الطبعة
الثالثة

أروى بنت محمد الحكمي

ETHOS'S
DREAM

حلم إيتوس

كُلَّما عَظُم المطلوب، كان ثَمنُه باهظًا..

READERS STAR

(رواية)

حلمُ إيتوس

WONDER
HOUSE
دار العجائب للنشر والتوزيع

رواية

حلمُ إيتوس

..كُلَّما عَظُم المطلوب، كـان ثَمنُه باهظًا

أروى الحكمي

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في مقدمة كتابي هذا أودُّ البَدء بذكر معاني بعض الأسماء التي اخترتها لشخصيات الرواية البارزة،

فهذا أدعى لأن ينسجم القارئ الكريم مع الأحداث بشكلٍ أكبر حين يُدركُ معنى كل اسم..

أَلِكْساندروس: حامي الرِّجال والمدافع عن الإنسانية.

طانْيوس: الجدير بالثناء، المتعذِّر تقديره.

سولون: أحد حكماء الإغريق السبعة الذين سنُّوا قوانين عادلة ليزيل الظلم عن الفقراء.

هادريان: قيادي عادِل، وعسكري بامتياز.

أركون: القائد أو الرئيس الذي يحبُّ مساعدة الناس.

آلي: شخصيةٌ جادةٌ تحبُّ مساعدة من يحتاج إليها.

كاليجولا: الحذاء الروماني، وهو اسم لأشهر طاغية.

بوروس: قائد جيش الطاغية (نيرون).

أما إيتوس واستيلا فسيظهرُ معنى اسميهما أثناء الرواية..

قبل آلاف السنين

في إمبراطورية تُدعى (ثيفا)

من الحضارة الإغريقية العريقة

دارت أحداث هذه الرواية..

الفصل الأول

الفِرارُ من الموت

تحتَ جُنحِ الظلامِ الحالك، وفي عُمق غابة ذات أشجار كثيفة وطرق وَعِرة، كانت خُيولُهم تجتازُ ما أمامها بِصعوبة بالغة، قد أضْناها الجَهْدُ دون أن يشفع لها؛ إذ فوقها فرسان ينهالون عليها بالضرب مُرغمينها على الـمُضِيِّ قُدُمـًا، قد بلغت قلوبهم الحناجِر، وأعْيُنهمُ الجاحِظات تلتفتُ إلى الخلف؛ تَرقُّبـًا وخِيفةً بين اللحظة والأخرى، وصُدورهم تعلو وتنخفض بقوة كأنَّ أقفاصها تحيط بمخلوق هائج، يحاول كَسْرَ قضبانها؛ لِيَفرَّ من سجنه، قد غطَّاهم العَرق من الجِبَاهِ إلى أخْمصِ الأقدام رُغمَ برودة الليل القارس!

وما إن حانت التِفَاتَةٌ من الوزير الكهل طانْيوس إلى الخَلف، حتى أدرك مدى القرب الشديد لرجال الإمبراطور الـمُدَججينَ بالسلاح الذينَ يَلْحقون بهم، فصرخ بمن معه ليتوقفوا، ومع أنهم أذعنوا لأمره إلا أنهم رَمَوه جميعـًا بنظرات التعجب والاستنكار؛ فليس التوقُّف في هذه اللحظة بالأمر الحكيم!

لم يأبه طانيوس لتلك النظرات، بل أسرع متجاوزًا جنوده نحو القائد وهو يقول:

مولاي أَلِكْسنادروس، العدو قريبٌ منا، وحتمـًا إن مَضينا في هذا الطريقِ فإنهم مدركونا دون شك.

ارتسمت على وجه أَلِكْساندروس حيرةٌ مستفهمة!

طانيوس بنبرةٍ قلقة:

كما ترى يا سيدي، الخيول مُرْهَقةٌ من طول ما ركضت في هذه الطرق الوعرة، وعددنا لا يرقى لمواجهة ذلك الجيش الجرار الذي يلاحقنا!

أَلِكْساندروس:

وما الحيلةُ للنجاة برأيك أيها الوزير؟

أطرق طانيوس بوجهه إلى الأرض، كأنما يستجمع قوَّتَه ليُدلي بفكرته التي يعلم مُسبقًا أنها مرفوضة لدى قائده، ثم رفع وجهًا اكتسى بجدية وصرامة وهو يقول:

ستتخذون طريقًا آخر لا يعرفه أحد من الناس سوى قلة أنا منهم ونائبي سولون، وهو الذي سيَدلكم عليه.

ألكساندروس بتوجس:

وأنتَ يا طانْيوس؟!

طانْيوس:

أنا سأشغل الجنود عنكم إلى أن تبتعدوا تمامًا نحو الطريق الآمنة ويفقدوا أثركم.

بعينين مستنكرتين حدجه ألكساندروس وارتفعت نبرته وهو يسأل:

أتعني أنكَ ستُضحّي بنفسكَ لأجلنا؟!!

طانْيوس وهو يخفضُ رأسه ويُسبل جفنيهِ إجلالًا:

لأجلكم ولأجلِ إمبراطورية ثيفا؛ فأنتَ أملُ ثيفا وأمل شعبها المخلص يا مولاي.

امْتقعَ وجهُ ألكساندروس غضبًا ورفضًا وهو يُمسكُ بمِعْصَم الوزير ويصرخ:

بل ستذهب معَنا ولن أقبل أن تكون كبش فداء لأنجو؛ فأنا أعلمُ أنَّ تضحيتكَ هذه لأجلي أنا!

رفع الوزير وجهًا ممتنًا يَعبُرهُ الأسى وهو يستمع إلى سيده الذي أكملَ بإصرار:

إما أن ننجو جميعًا يا طانْيوس، أو نموتَ عن نفسٍ واحدة.

تشقَّقت من بين شَفتي طانْيوس ابتسامةٌ بدَت مؤلمة رغمَ جمالها، كأنما قد سرى الموت في روحها، ثم فرَّت من صدره تنهيدة عميقة وهو يقول:

أشكر لك موقفكَ النبيل يا مولاي، لكنكَ لست رجلًا عاديًا لأقبل أن نقع جميعًا في أيدي أولئك الوحوش، بل أنتَ رجل أُمَّة كاملة ترجو إنقاذكَ لها من البؤس الذي يحيق بها، ويكاد يفترسها دون رحمة.. أرجوكَ يا مولاي، انجُ بنفسكَ وبمن معكَ، فهم خيرة الرجال الذين ائتمنهم عليك، انسَ أمريَ الآن، ففي الدنيا مئة وزير يمكن أن يحلَّ محلَّ طانْيوس، ويُخلص لك ولثيفا، لكن لا يوجد إلا ألكساندروس واحدًا له الحقُّ في نزع سلطة ذلك الظالم، وإنقاذ الشعب من بطشه.

ثم وضع يده على ساعد سيده التي تُمسكُ بيده الأخرى، وأخذ يشدُّها وقد طغى على وجهه رجاءٌ مذْعور كأنه منذرٌ لعشيرته، وهو يُرْدفُ بصوتٍ جاف:

أرجوكَ يا مولاي، امْضِ حالًا بمن معك، ولا تفكر في أمري، فالوقت قد أزِفَ، ورجال الإمبراطور قد اقتربوا، افعل ذلك من أجل الأطفال والنساء والشيوخ والضعفاء، أُنجُ بنفسكَ قبل أن يتمكَّنوا منك؛ فيُطوى الأمل الذي تَسْتجديه ثيفا إلى الأبد.

شَحبَ وجهُ ألكساندروس، وسرَت في جسده رعشةٌ رهيبةٌ وهو يتأمَّل ملامح هذا الشيخ الوقور الذي كان وزيرًا لوالده من قبله عشرين سنة، قضاها معه بوفائه وحكمته، ولم يزل إلى هذه اللحظة مخلصًا ومحبًّا ووفيًّا، وقد لفَّت تلك الملامح المُجعدة صرامة بثت في قلب ألكساندروس اليأسَ من أن يَحِيدَ صاحبه عن رأيه،

فارتجَفت شفتاه ولم تَنْبِس بحرف، وماجَ حزنٌ عميق في عينيه، ثم أغلق جفنيه بقوة كأنه يُسارع لإخفاءِ انكسارِهما وهو يهمسُ بصوتٍ مُتَهدِّج[1]:

أعلمُ أني لو بقيتُ دهرًا أُحاول تحييدكَ عن رأيكَ لما استطعتُ ذلكَ أيها الوزير العنيد.

ثم انقطع صوته كأنه قد غُلب، وارتمى يُحيط طانْيوس بذراعيه بشدةٍ حتى كاد ينتزعه من على فرسه، ولصدره أزيزٌ مهيب لم يَخْفَ صوته عمَّن حولهما، فأشاحوا وجوهًا طغت عليها ملامح الحزن إزاء هذا المشهد المؤلم، رفع ألكساندروس رأسه واتجه إلى الجهة المنشودة مباشرةً، كأنه يتعمد ألا يرى الوزيرُ وجهَه الغارق في ضعفه وانكساره، ثم وكأنما يريد أن يُغالب يأسه بكلماتِ أمل يعلم استحالتها؛ خاطب طانْيوس بنبرةٍ جاهَدَ تصنُّعَ جِديتها:

أنتَ تعرف الطريق يا طانْيوس، لا تتأخر عنَّا حالما تنتهي من مَهمتكَ.. الوداع الآن.. الوداع أيها الوفي.

وعضَّ على شفتيه كاتِمًا صوت نحيبه، ثم أغمض عينيه الباكيتين وهو يضرب فرسه بقوة، فارتفعت قدماها الأماميتان في الهواء وهي تَصْهل بصوتٍ مرتفع؛ لتنطلق بعدها نحو الطريق بسرعة البرق، ودموعه المنهمرة تتناثر خلفه في الهواء كلآلئ لامعة تصرخُ قهرًا وعجزًا كأنما تُشيِّع وزيره إلى مثواه الأخير، ثم اختفى هو وفُرسانُه الذين يُحيطون به، وكلُّ واحدٍ منهم على استعداد للتضحية بأهله ونفسه فداءً لهذا الرجل الذي أسماه وزيرُهم المُخَضرم «أملَ ثيفا الثكلى»..

---

(١) مُتهدِّج: مُتقطع فيه ارتعاش.

أما طانْيوس، فلبث في مقامه يرقب سيده وجنوده إلى أن اختفَوا، فَلانَ وجهه الـمُجعد أخيرًا بابتسامةٍ مشرقة كأنَّما اطْمأنَّ إلى أمانِهم، ثم رفع يده ضارِبًا بها تحية إجلال لمولاه.

وانْحَنى بعدها إلى جنود الإمبراطور الذين تَبَدَّت له رؤوسهم وأسِنَّة رِماحهم، وانطلق نحوهم كأسد جَسُور لا يلوي على حياة، وما إن اقترب منهم حتى رَشَقُوه برماحهم التي تفاداها بمهارة لِينْقَضَّ عليهم موقِعًا فيهم الجرحى والقتلى، ولو لم تكن للكثرة أن تغلب الشجاعة لغلبهم؛ ولكنَّ الأمر انتهى إلى ما كان يُدركُ أَلِكْساندروس حُدوثه.

وبعد عِدة أيام من التعذيب الوحشي، كان كُرسي الإمبراطور كاليجولا مكسوًّا بجِلد طانْيوس المسلوخ؛ عبرةً لكل من تُسوِّل له نفسه أن يَحْذُوَ حَذْوَه!

الفصل الثاني
وليُّ العهد

من خلف نافذته المطلة على باحة القصر وقف جسده ذو الطول الفارع، والمنْكِبين العريضين، يتأمَّل المنظر أمامه، قد بنت الهوايات التي يُمارسها باجتهادٍ كلَّ يوم عضلاته المفتولة.

تتلاعب نسمات الهواء المتسللة من النافذة بخصلات شعره البندقي الذي قارب مَنْكِبيه، وعيناه الأرْيَشِيَّتان[1] البُنيَّتان قد امتزج جمالهما بنظرات الحنق والازدراء وهو يُحملقُ في نافورة باحَة القصر ومدخله التي قد انتُهيَ من عملها قبل عدة ساعات؛ زُين حوضها الدائري بأحجارٍ كريمةٍ مَصْقولة اتَّخذت ألوانًا بهية تُضْفي على النفس الانبهار، يتوسَّطها تمثالٌ ضخم من الزبرجدِ[2] لمالك القصر (كاليجولا)، وقد زُيِّن رأس التمثال بعقدٍ من أغصان الإكليل، نُقش بإتقان بديع حتى تبدَّى لكل ناظر له أنه نبْتٌ حيٌّ وليس بِنقش! وحوله من ثلاثة جوانب من الحوض تماثيل لنساءٍ حسناوات جاثيات بدلال على رُكَبِهن، تُمسك كل واحدة منهنَّ بطاقةٍ من ثلاث زهرات بيدها، وقد ضمَّتها إلى صدرها، وباليد الأخرى الممدودة لتمثال الإمبراطور كأس مُطَعمٌ بحبات من الفيروز[3] الأخضر الـمُشَرَّبِّ

---

(١) الأرْيَشِيَّتان: ذات الرموش الكثيفة.

(٢) الزبرجد: حجر كريم، وهو ذو أَلوان كثيرة أَشهرها الأَخضر المصري والأَصفر القبرصي.

(٣) الفيروز: حجَرٌ كريمٌ غيرُ شفَّاف معروفٌ بلونه الأَزرق كلون السماء أَو أَميل إِلى الخضرة.

بزُرقةٍ صافية، ويخرج من كل كأس ماء ذو دفع قويٍّ، كأنما يرمز إلى النَّبِيذ وهنَّ يُقَدِّمْنه له؛ مُشكلًا ذلك ثلاث نوافير تُحيط بتمثال الإمبراطور، وقد زادت رشَّات الماء المتساقطة حول الكؤوس من أحجار الفيروز صفاءً ولمعانًا يأسرُ النفوس بجماله، ثم تستقرُّ في قاع الحوض مُغرقةً أجساد حسناواته الجاثِيات إلى أسفل بُطونهنَّ.

تأمَّل من خلف نافذته كلَّ هذه التفاصيل بِازْدِرَائِه الرافض لهذا الابتذال، ثم تمتم بتهكم:

يُزين قصور الملوك تماثيل العزة والانتصار، ويُزين قصر إمبراطور ثيفا المبجل الخمر والنساء! أهذا ما هداك إليه فِكركَ أيها الموقر شيشرون؟!

مرَّت عدَّة لحظات قبل أن يُطرق بابه بِخفة، فاستدار إلى الخلف وهو يقول:

ادخل.

فُتح الباب، وظهرت من خلفه خادمةٌ لم يرها من قبل، مَمْشُوقة القَدِّ، بهية الطلعة، قد رفعت شعرها الأسود إلى أعلى رأسها عدا خصلات نثرتها على جانبي وجهها فزادته بهاءً، تقدَّمت خطوتين، ثم أحنت رأسها بخضوع وهي تقول:

إنه وقت الحمَّام يا مولاي.

وقف لبرهةٍ يتأملها بتعجب، ثم اقترب منها وعيناه تتفحصانها، وعندما صار أمامها مباشرة علَّق متعجبًا:

لم أركِ هنا من قبل!

فردَّت بنبرة لطيفة:

نعم يا مولاي، فلم ألتحق بالعمل هنا إلا البارحة، ولخدمتكَ الخاصة.

زَمَّ شفتيه بامْتِعاضٍ وصمت قليلًا، ثم عاد يقول:

حسنًا اذهبى، وسألحقُ بك.

الخادمة:

أمركَ مولاي

ثم أغلقتِ الباب، واتَّجهت مسرعةً نحو بَهْو السباحة المخصص لسُمُوِّه؛ تتفقد ما رتبه مساعداتها اللاتي ينتظرْنَها هناك مما يحتاجه أميرهنَّ للاستحمام.

كان البهوُ فسيحًا بديعًا، يتوسَّطه حوضٌ واسع، يتساقط الماء عليه من أربعة تماثيل كبيرة، اثنين منها اتَّخذا شكل عُقاب، والآخرين على شكلِ نسر، وزُينت بقية الحواف بنباتات وأزهار عطَّرت المكان بشذا زكي يُنعش الأنفَاس، وتغاريد البلابل تتردَّدُ فيما بينها، وهي تطير وتتنقل بين الأشجار الخضراء المحيطة ببهو الاستحمام وبين أقواسٍ ضخمة أحاطت بالبهو، قد طُعّمت أعمدتها بالفُسَيْفِساء[1] الملونة، يعكس سطحها المصقول أشعةَ الشمس الساقطة، فغدا البهو كجنَّة بديعة تُدغدِغُ دموع البهجة والفرح..

لم تمضِ لحظاتٌ حتى دخل عليهنَّ الفتى بِطلَّتِه المهيبة وملامح وجهه الجميلة، فانحنين جميعهنَّ يُحيينَه، تتقدمهنَّ التي رآها قبل قليل، فاقتربَ منهنَّ حتى صار أمام سيدتهن وهتف:

ارفعنَ رؤوسكنَّ.

---

(١) الفُسيْفِساء: قِطَعٌ صغارٌ ملوَّنةٌ من الرخام أَو الحصباءِ أَو الخَرَزِ أَو نحوها، يُضَمُّ بعضُها إلى بعض فيكوَّن منها صور ورسوم تزين أَرضَ البيت أو جُدرانَه.

فامتثلنَ مباشرةً لأمره مرتميةً أعيُنهنَّ على وجهه الأبيض ذي الأنف الرفيع، والشفتين الدقيقتين، تعلوهنَّ عينانِ نجلاوان[1] صافيتان تُلقى الرَّهبةَ والإعجاب معًا في قلب الناظر إليها لأول وَهلة! ثم أخفضنَ أعيُنهنَّ إجلالًا..

فأخذ جولةً فاحصةً على وجوههنَّ قبل أن يستقرَّ على وجه سيدتهنَّ، وكأنه يُصَادق شعوره الذي يشعر به تجاه من يأتينَ لخدمته دائمًا!!

ثم سأل الفتاة:

وهنَّ أيضًا لم أرهنَّ من قبل!

الخادمة:

نعم يا مولاي

وأشارت إلى ثلاثٍ منهن عن يمينها وتحدثت بنبرة أوضحت أنها لُقِّنت ما ستقوله:

هؤلاء سيشرفْنَ على أخذ ملابِسكَ وتسبِيحكَ - ثم نظرت نحو اليسار إلى ثلاث أُخريات - وهؤلاء سيشرفن على تجفيفكَ وتطييبكَ بالعطور الملكية، ثم كِسوتك،

واختتمت حديثها حين وضعت يدها على صدرها وهي تقول:

أما أنا فسأُرَجِّل[2] شعركَ، وأُشرف على خدمتهنَّ لك؛ لنيل رضاك يا مولاي.

فسألها بغير اكتراثٍ لكل ما قالت:

ومن عيَّنكنَّ لخدمتي؟

---

(١) نجلاوان: واسعتان على حُسن.

(٢) أُرجِّل: أُسرِّح وأُزين.

الخادمة:

مولاي الإمبراطور.

سأل ليتأكد:

هل التقيتنَّه؟

الخادمة:

كـلا لـم نتشـرَّف برؤيـة جلالتـه، ولكـن التقينـا سـيدي الـوزير، وهـو الـذي عيننـا لخدمتك الخاصة، وأخبرنا أنها رغبة سيدي الحاكم.

فكَزَّ على أسنانه، وزَفَر بقوةٍ حتى لفحت أنفاسُه الحارَّة وجه الفتـاة التـي أمامـه، فانقبض قلبها خوفًا، وضمَّت يديها بقوة تُخفـي ارتباكهـا، ثـم طأطـأت رأسـها وهـي تقول:

سنعملُ على خدمتك على أكمل وجه، وسنبذلُ قصارى جهدنا؛ لترضى عنـا يـا مولاي.

ومع أنه حاول كتم غيضه إلا أن نبرته خرجت قاسية:

اُخرجنَ من هنا.

رفعت الفتاة رأسها وقد كست الدهشةُ ملامح وجهها الصغير!

فَزَجَرها موبخًا:

ألم تسمعي! خذي فتياتكِ واخرُجنَ من هنا.

ازْدَرَدَتْ ريقها قبل أن تردَّ بنبرةٍ مضطربة متوسلة:

إن كان هناك أمر أزعجكَ مِنَّا فإني أعتذر حالًا إلى جلالتك، وأرجـو أن تصـفح عنَّا وتهبنا شرف خدمتك.

فتَخضَّب وجهه احمرارًا غاضبًا ليصرخ بعدها بأعلى صوته:

ألا تفهمين؟ قلتُ اُخرجي ولم أقل غير ذلك لتُبرِّري ببلاهة!

فارتجفت أطراف الفتاة وشَحبت وجنتاها وهي تُردد بخوف:

أمرك مولاي.. أمرك مولاي.

أدرك ما يعْتريها، وساءَهُ أن يكونَ مصدر ذلك؛ فعطف قلبه عليها وتندَّم.

مضى عنها قَليلًا يقطع الأرض ذهابًا وإيابًا كالحائر، أو ربما كالذي يُحاول طرد الغضب الشديد الكامن في روحه، يطلق الزفرة تلو الأخرى، وكل واحدة أعمق من التي تليها وكأنه بذلك يساعد خطواته المضطربة؛ لتأخذ طريقها نحو الهدوء، والخادمات يسترقْنَ النظر إليه خُفية وخِيفة، وبعد برهة، غيَّر وجهته عائدًا نحو رئيستهن، فوقف أمامها هُنَيْهة بصمت كأنه حائر لا يعرف ما يقول، ثم تبسَّم أخيرًا، وكأنَّما وجد مخرجًا من موقفه الذي كرهه، وراح يسألها بصوتٍ أشعرها بالحنان:

ما اسمك يا فتاة؟

الخادمة:

اسمي آلي يا سيدي.

زادت انفراجةُ شفتيه ببسمة أعذب وهو يُردد:

آلي.. اسمٌ جميل.

فتحوَّلت وجنتاها الشاحبتان إلى إشراقةٍ مُتَورِّدة طربًا بغزل مولاها.

ثم أردف:

آسفٌ يا آلي أني صرختُ في وجهكِ، فأنا أعلم أنكِ لستِ إلا مأمورة..

ثم صمتَ قليلًا ليطلق زفرةً عميقة، وتحدَّث بنبرةٍ بدت حانقةً رغم هدوئها:

اذهبي الآن إلى ذاكَ الوزير وأخبريه أني أرفض خدمتكنَّ، وأنكِ بذلتِ ما في وسعكِ لإقناعي ولكنكِ فشلتِ.

آلي بشفقة:

ولكن مولاي...

فقاطعها:

لا تبتئسي

ثم غمز لها بعينه وهو يشيرُ إلى يديه مُردفًا:

فلديَّ أطراف تقوم بالخدمة أفضل مما ينبغي.

لفحَ الخجل وجهها وهي تتأمل ملامحه التي ازدادت بهاءً بابتسامته ولطفه، وقالت:

لا أستحقُّ أن تعتذر إليَّ! فأنا لستُ إلا خادمةً لجلالتك، سنخرج حالًا، وسأبلغ سيدي الوزير بما أمرت.

ثم انحنت له بخضوع، وانْحَنت معها فتياتها قبل أن يُولِّينه أدبارهنَّ، ويُغلقن باب البَهْو دونه، وما إن فعلنَ ذلكَ حتى عاد الدم يفور في جسده، فأطلق العنان لغضبه المكتوم وهو يُزمْجِر:

شيشرون.. ما أحقركَ أيها الدنيء!

ثم خلع ملابسه بعنفٍ حتى كادت تتمزق من فرطِ غضبه، وغطس في الحوض العميق، واختفى داخل مياهه الباردة لحظات طويلة قبل أن يطفو فوقها، ثم أخذ يسبحُ بانهماكٍ شديد كأنه يريدُ إطفاء ناره التي تغلي في جوفه ببرودة الماء؛ فكان يسبح طافيًا مدةً طويلةً حتى لا يكاد يظنُّ ظانٌّ أنه سيعودُ للغطس، ثم يعود غاطسًا

داخلها فترة من الزمن حتى لا تكادُ تجد من يؤمِّل في بقيَّة حياة تنبض في الفتى الغارق داخلها! ثم يسلك سلوكًا يناقضُ ذلك كله؛ فيبقى بين غطس وطفو متتابعين كأنه قد أصيب بالجنون التامِّ! وما يلبث أن يغير نهجه؛ فيسبح على يُمناهُ مرة، ثم يَعقبُ ذلك سباحة على يُسراه، وسطح الماء يموجُ بقوة من حوله إثر حركاته العنيفة، واستمر على ذلك ساعة من الزمن حتى بَردت أعصابه، ثم استقرَّ أخيرًا وسط الحوض يغسل شعره، ويُليِّف جسده بهدوءٍ كأنه شخصٌ آخر!!

ولم ينقضِ وقتٌ طويل حتى مضى إلى حافة الحوض؛ حيث المنضدة ذات الكساء الحريري ذي الأطراف المزركشة تقبعُ هناك، قد رتَّبت عليها الخادمات ما يحتاجه أميرهنَّ من المنظفات المعطرة قبل أن يُؤمرنَ بالخروج، أخذ يشمُّها بانتعاش واحدةً تِلو الأخرى، حتى استقرَّ على اثنتينِ من بين أعدادها الوفيرة، إحداهما بعطر الياسمين الذي يحبّه، والثانية اُسْتُخْلِص ريحها من ورد قُرمزيٍّ[1] اللون، زُرع الكثير منه حول القصر الملكي؛ لبهاء منظره، وزكاوة شذاه، وعاد نحو البركة؛ ليستحمَّ من جديد ويعطر جسده بما اختار، ثم انهمكَ في ذلك بسعادة حتى نسيَ أنه كان غاضبًا منذ ساعة، إلا أنَّ ذلك لم يدم طويلًا؛ فلم يلبث أن سمع وقع خطوات تقترب من خلفه، التفتَ نحوها سريعًا وصرخ بارتباك:

من هنا؟

وما إن رأى الوزير الذي قد وصل إلى حافة الحوض حتى ضمَّ رجليه بغير شعورٍ، وغمرَ نفسه في الماء الذي قد غُطيَ سطحه بسحابة المنظفات، ولم يبقَ منه

---

(١) قُرمزِيّ: لونٌ أحمر مشرقٌ وعميق.

إلا أعلى صدره، ووجهه الذي اصطبغ حينها باحمرارٍ من استحيائه.

فانحنى الوزير بخضوع حتى كادت جبهته أنْ تمس الأرض وهو يقول:

عمت صباحًا مولاي ولِّي العهد.

فصرخ الشاب في وجه الرجل وقد قطَّب الحنقُ جبينه:

كيف تجرؤ على الدخول دون استئذان يا شيشرون؟! وكيف لم أسمع من خطواتك إلا آخرها؟! أكنتَ تمشي على أطراف أصابعك؟!

ثم استدرك: هل كنتَ تختلس النظر إليَّ منذ زمن؟!!

شيشرون بنبرةٍ هادئةٍ وهو يرفع رأسه متبسمًا:

مهلًا مولاي المبجل، لا ترمِ عليَّ التهم جُزافًا، إنما مشيتُ إليك على سجِيَّتي، لكن ربما كنتَ في عالم جميلٍ منع عن حواسكَ الانتباهَ لأي شيء آخر.

لم تُهدِّئ كلماته من غضب الفتى، بل اتَّضح غيظه من نبرة صوته حين قال:

وإن يكن؛ فلا يحق لكَ أن تدخل إلى البهو حتى آذنَ لك.

شيشرون مُتصنعًا البراءة:

إنما أنا رجلٌ مثلك!

الفتى:

اخرس أيُّها الوضيع، فأنا أعلمُ ما وراءك.

اغتاظَ قلبُ الوزير، وتجلَّى ذلك على وجهه رغم محاولته الكتمان.

الفتى بغير اكتراث:

أُغرب عن وجهى حالًا يا شيشرون.

شيشرون وقد عادت تلك الابتسامة الماكرة إلى شفتيه:

مهلًا مولاي، لا أظنك ستهنأُ بعيش إن علمتَ قلبًا كسرته! الفتيات المسكينات يا سيدي إيتوس، لو تعلمُ كم كُنَّ سعيدات حين علمنَ بأنهنَّ المختارات لخدمة أميرهنَّ الجميل، ثم عاملتهنَّ بذاك الجفاء!

وأخذ يهزُّ رأسه بخفةٍ معاتبًا:

كنتَ قاسيًا معهنَّ يا سيدي؛ فالفتيات رقيقات الحسِّ، لا يتحملنَ غضب حبيبهنَّ.

ما إن أكمل شيشرون كلمتهُ تلك؛ حتى انفجر الفتى غاضبًا أكثر من ذي قبل:

كاذب، ما قسوتُ عليهنَّ ولا أنا بِحبيبهنَّ، إنما أنتَ تحاول منذ زمن أن تقودني لنهجٍ أُبغضه ولا أقبل به! قُل لي لماذا لا تزال ترسل إليَّ الخادمات رغم عِلمكَ برفضي لهن؟

شيشرون:

إنها رغبةُ مولاي الإمبراطور.

إيتوس:

بل هي رغبتكَ أنت، وإن عُدتَ لمثلها فسيكونُ لكَ حساب آخر، هل تفهم؟

لم يظهر على الوزير تأثُّره بهذه الكلمات، بل بقي على هدوئه وهو يقول:

أريد سعادتكَ ورضاك، ألا ترى الأمراء والوزراء ممن هم دونكَ يعيشونَ بسعادة وترف، وأنتَ ولي العهد لا تتمتع بما يتمتع به أولئك!

إيتوس وهو يُشيحُ بوجهه ازدراءً:

إن كنتَ تُسميها سعادة، فأنا لا أراها إلا عبثًا لا يقبل به رجل فيه ذرة مروءة!

وأعاد وجهه نحو الوزير وهو يخاطبه بنبرةٍ مرعبة رغم انخفاضها:

اخرج من هنا الآن، ولا تناقشني في الموضوع مرَّةً ثانيـة، ولا تريني وجهكَ إلا اذا طلبتك.

شعر شيشرون بذلٍّ يكتسحُ فؤاده هذه المرة، وكعادته حاول كبتَ ذلك قدر ما يستطيع، فابتسمَ بزيف وهو ينحني مجددًا لإيتوس قائلًا:

أمركَ مولاي المبجَّل، لكن حاول أن تُسرع؛ فسيدي الإمبراطور ينتظركَ؛ لتشاركه الفطور.

ومضى نحو الباب دون أن يسمع ردًّا من إيتوس الذي كان يستشيطُ غيظًا هو الآخر، وما إن اختفى شيشرون خلف الباب حتى قبضَ الفتى يديه ورفعهما إلى الأعلى؛ ليهويَ بهما على الماء بقوة، فأصدر ارتطامهما بسطحه صوتًا قويًّا، وتطاير الماء عاليًا قبل أن يرتدَّ فوق رأسه وهو يصرخُ بأعلى صوته:

شيشروووون ما أحقرك! إن كنتَ تنوي غلبتي بمكركَ وبمنزلتك عند والدي فأنتَ تحلم، سأنزلكَ قدركَ عما قريب، وسأريحُ أهل القصر من فسادك.

ولم يُسكتهُ إلا تطاير العصافير من حوله باضطراب، مُحدثة زقزقاتُها الفزِعة ارتداداتٍ صاخبةً في فضاء البهو.

الفصل الثالث

النَّاي الحزين

وصل إيتوس إلى بهو الطعام، وما إن ألقى التحية على والده واتَّخذ مقعده حتى قرأَ الإمبراطور أمارات الغضب على وجه ابنه المدلل، فسأله مُلاطفًا:

ما بال «إيتوسَ قلبي» مُعكر الصفْو منذ الصباح؟ هل لي أن أعرف ما أغضبه؟!

إيتوس بحَنَق:

نعم يا والدي، إنه شيشرون.

الإمبراطور:

ما باله؟

إيتوس:

ما يزال يزعجني بتصرفاته وسلوكه الذي يريد فرضه عليَّ!

الإمبراطور وقد لان وجهه بابتسامة:

إنه يريدُ سعادتكَ وإرضاء شبابكَ.

إيتوس بحَنَق أكثر:

إنما هي خساسةٌ أبغضها لا سعادة!

ثم ابتلع بقية كلماته حين شعر أنه قد أهان والده الذي يسلكُ سلوك أولئك المترفين الذين عناهم شيشرون دون قصدٍ منه، فأنزل وجهه نحو الأطباق التي أمامه بحرج.

أما الإمبراطور، فقد تمَعَّر وجهه غيظًا واستنكارًا لهذا النيل الجريء من مقامه، ولكنَّ مكانة ابنه الغالية عنده أمسكته عن البطش به، فأخذ يتناول فطوره كأن لم يسمع شيئًا، ومرَّت عدة لحظات قبل أن ينهض إيتوس من المائدة بهدوء وقد ترك فطوره كما كان، بقيَ والده يشيعه بنظراته إلى أن خرج دون أن يقول له شيئًا، فقد كان يعلم بما يختلجُ في صدر ابنه من مشاعر ثائرة على وزيره المفضل!

توجه إيتوس بعدها مع حرسه الخاص نحو الغابة للاصطياد، كان يُمضِي معظم يومه في ممارسة الرياضات المختلفة من المبارزة، ورمي السهام، والصيد الذي هو أفضل هواياته المحببة لديه، وما إن اصطادَ غزالين حتى التفت لقائد حرسه الخاص (هادريان) وهو يقول:

هذا يكفي، احملوهما الآن إلى الخيمة ولنبدأ بالشواء.

هادريان بتعجب:

غزالين فقط! سيغضب منا الإمبراطور حتمًا هذه المرة؛ فقد كانت أوامره صارمة بألا يقلَّ صيدك اليوم عن عشرين طريدة.

إيتوس:

لكننا سبعة رجال، وغزالان يكفيان، فما حاجتنا لثمانيةَ عشرَ أُخر؟!

هادريان:

أتفَهَّمُ مقصدك يا مولاي، لكنها أوامر الحاكم، فهي رياضة ستصقل موهبتك أكثر كلما ازداد صيدك.

لاحت على شفتي إيتوس ابتسامة ساخرة وهو يقول:

رياضة! إننا نغيرُ من معاني الأفعال ما يحلو لنا، فعندما نقوم بها نكسوها أجمل الأوصاف، ولو همَّ الآخر أن يردها علينا رميناه بأبشعها وأقبحها! حقًّا ما أعدلنا بني الإنسان!

ثم تابع بإصرار:

لن أصطاد أكثر من حاجتنا يا هادريان فامتثل لما أُمرت..

ومضى للأمام قليلًا قبل أن يعود ويلتفت إلى القائد بوجهه المشرق الضاحك وهو يُتِم:

ولا تقلق من غضبه فعندي دواؤه..

وعاد يمضي نحو الخيمة المنتصبة.

فانبسط وجه هادريان عن ابتسامة حب عميق وهو يُحدِّث نفسه:

ألا ما ألطفك يا إيتوس!

ثم صمت لوهلة استحالت فيها شفتاهُ لتعبيرٍ بائسٍ وهو يُردف:

تُرى هل تستطيع أن تحتفظ بجمال روحك وهدوء سمْتكَ لو علمت حقيقةَ والدك كاليجولا؟

انتهى الجميع من طعامهم، وارتمى إيتوس على الأرض وهو يمسك بطنه ضاحكًا:

أشعر أنه سينفجر لكثرة ما أكلت، ما أطيب لحمكما أيها الغزالان.

فبادله هادريان الضحك وارتمى بجانبه، وكان يشعر بأريحيةٍ كبيرة حين يكون مع إيتوس دون غيره من سكان القصر وزوَّاره، ثم هتفَ مداعبًا:

وأنا مثلك، غير أني لا أُلام، فلم أذق طعامًا منذ البكور، ولكن ما عذرك أنتَ يا مولاي؟ هل صرتَ شرهًا جدًّا لتفطر مرتين!

وبدلًا من الضحكة التي كان ينتظرها من سيده، حلَّتْ نبرة مُقتضبة وهو يرد:

كـلا يـا هادريـان مـا ذقـتُ لقمـةً اليـوم، وكيـف لمثلـي أن يهنـأ بطعـام أو حيـاةٍ وشيشرون يشاطره ذاتَ الحياةِ وذاتَ المكان! ألا ما أتعسَ حظي يا صديقيَّ!

استوى هادريان جالسًا وهو ينظرُ إلى وجه إيتوس ويسأله مُشفقًا:

وهل آذاك مجددًا؟

إيتوس:

أجل، وبكلِّ جُرأة.

هادريان:

هل لي أن أعرف ما فعل؟

إيتوس:

بالطبع، فمن غيرك يا هادريان أُحب أن أبوح لـه بمشـاعري وأسـراري وأجـدُ في ذلك راحةً تُنسيني همي.

فضاقت عينا هادريان الدعجاوان[1] بابتسامةٍ تورد لها وجهه الحِنطي كأنـه غير قادر على احتمال كلمات الثناء المنهمرة عليه من مولاه.

استرقَ إيتوس نحوه نظرةً قرأ فيها ما يشعر به قائد حرسه فأردف:

على أنك كثيرًا ما تحاول إخفاء الحقائق عني؛ إلا أني لا أجـدُ لإخفـاء أسـراري عنك سبيلًا!

فارتبك هادريان قليلًا وهو يسأل:

(١) الدعجاون: شديدتا السواد شديدتا البياض، متسعتان.

أنا أخفي عنك يا سيدي؟!

أسند إيتوس يديه خلف رأسه، وأغمض عينيه بهدوء وهو يقول:

أجل، وكثيرٌ ما هو..

تصنع هادريان الثقةَ في نبرته وهو يقول:

يخيلُ إليك ذلك يا مولاي، وإلا فما حاجتي لأخفي عنك حقيقةً أنتَ تحتاجها؟!

ثم أكمل مُغيرًا دفةَ الحديث:

لكن هلَّا أخبرتني بماذا استحق شيشرون غضبك عليه هذا الصباح!

إيتوس:

لقد أرسل إليَّ بعض الفتيات ليقُمن بخدمتي الخاصة!

هادريان بوجهٍ ضاحك:

ورددتهنَّ كعادتك.

إيتوس:

طبعًا هو ذاك، ولكن ليس هذا ما أثار غضبي فحسب، ولكنه تجرأ ودخل عليَّ بهو الاستحمام دون استئذان، هل تصدق أنه فعل ذلك يا هادريان وبكلِّ وقاحة؟! لا أدري لو لم أكن في وسط المياه كيف سيكونُ موقفي حينها!

هادريان وقد جحظت عيناه تعجبًا:

الوزيرُ فعل هذا؟!

إيتوس:

أجل، هل تلومني الآن على انسداد شهيتي هذا الصباح؟ لا أدري ما الذي يجعل والدي يحبه ويستأمنه دون غيره! إنه على الرغم من حبه الشديد لي لم

يرضخ لطلبي المتكرر عليه بإعفاء شيشرون، بل يغضب كثيرًا كلما طلبتُ منه ذلك أو ألمحتُ له وكأن مُلكه قائمٌ بشيشرون دون ما سواه!!

فندت من ثغرِ هادريان ابتسامة ملؤها الألمُ والأسى وهو يُحدِّث نفسه (ما أنفذ بصيرتك يا إيتوس!)

إيتوس مُكملًا حديثه:

لكن أريدُ أن أخبرك بشيء آخر.

هادريان:

تفضل يا مولاي فكلي آذانٌ صاغية.

إيتوس:

الفتيات، الفتياتُ يا هادريان، أقرأُ في أعينهنَّ الحزن، كل الفتيات اللاتي يعملنَ في القصر، وليس المخصصات لي فقط، على الرغم من ثيابهنَّ الأنيقة، وابتسامتهنَّ التي لا تفارق وجوههنَّ الحسناء كلَّما لقيتني، إلا أنِّي أجدني أشعرُ أنَّ في طيات ذلك كله أحزانًا وآلامًا، أخبرني أرجوك: هل أنا محقٌّ في حدسي؟ أم هي هواجسٌ لا أصل لها؟!

تنهَّد هادريان بحرقةِ العاجِز قبل أن يرد:

لا عليك يا مولاي، إنما هي هواجسُ لا أكثر، وإلا فمن التي لا تسعد بعملها المرموق هذا!

إيتوس بابتئاس وهو يتمعن السماء فوقه:

نبرةُ صوتك أجابتني بما يخالف ذلك، لا فائدة إذن، فأنتَ ما تزال تتعمَّدُ إخفاء الحقائق عني، ولا أعلم لمَ ذاك؟!

ثم استوى واقفًا ومضى مبتعدًا وهو يقول متهكمًا:

سأذهبُ للتجوُّل قليلًا بمفردي؛ فلعلِّي أجدُ من الأشجار أو الأحجار صديقًا يصدقني جوابه كلما سألت.

ضمَّ هادريان قدميه، وأرخى وجهه على ركبتيه، قد غمرَ قلبه الإشفاق والإجلال معًا لأميره الذي يشعرُ بغربته؛ ثم يسعهُ حلمه من أن يوبِّخَ قائدَ حرسه المخادع أو يعاقبَه! وبقيَ يتابعهُ بنظرات ملؤها الانكسار؛ لِهُزَال موقفه، حتى اختفى سيدهُ بين الأشجار.

استمرَ إيتوس يمشي بخطوات هادئة ينظر لما حوله بعينين شاردتين، يشعرُ بالمكان البالغ السعة ضيقًا كئيبًا، ونسمات الهواء العليلة التي تُراقصُ الأغصان وتُنعشُ المكان حوله خانقةً حدَّ الموت، وهو يتراءى عيني آلي التي كان واثقًا أنه قرأ فيهما حزنًا شديدًا! وأخذ يتمتم لنفسه:

هل أنا مُحقٌّ فيما أشعر به؟! أم أنها تخيلات خرقاء؟

ثم أخذه فكرُه بعيدًا ليُراجع أمورًا كثيرة تحصل في القصر يتوجَّسها ولكن لا يجد من يُفصح له عنها، فمرَّة يتذكر حِرص والده على منعه حضور المناسبات التي تقام له مع الشعب، زاعمًا أن ذلك في مصلحته، ثم تُقذف عليه فكرة إجبار والده له على الصيد المتوحش؛ ليقتل ما يحتاج إليه وما لا يحتاج، بل يوبِّخه بشدةٍ إن لم يفعل ذلك! ثم ذكر فجأةً حين كان يسأل والده عن إخوانه فيزعم أنه وحيد والده، فاستحقَّ حكم الإمبراطورية بجدارة! فيَحتجُّ إيتوس الطفل بأنه يرى في الصورة الكبيرة التي تُزين بهو الاستقبال والمرسومة للإمبراطور السابق وابنه كاليجولا؛ شابًّا يقفُ بالجانب الأيمن من الحاكم يُشبههما، حتى اضطر والده في

آخر الأمر إلى نزع الصورة والتخلص منها! ثم تراءى له وجه شيشرون بابتسامته التي يُبغضها ويقرأ دائمًا مكرًا خلفها، وتذكَّر مشوراته الفاسدة، وأفكار العيش المبتذلة التي ما يزال ينهجها والده الإمبراطور منذ عرف نفسه، فإيتوس لم يُولد إلا وشيشرون وزير والده، ومستشاره الأوحد! وارتسمت أمامه صورة النافورة الحديثة التي تحكي أسمى مطالب والده في هذه الحياة، فزادهُ ذلك غيظًا واحتقارًا، ولم تتوقف الأفكار قذفًا عنيفًا يؤلم روحه الحائرة، حتى اخترق أُذنيه صوتُ شيشرون وهو يقول:

(أريد سعادتك ورضاك)، وأخذ يتردَّدُ في عقله كالصدى حتى أغلق أذنيه وهو يصرخ:

اخرس أيها الكاذب، أقسمُ أنك حيةٌ تحوم في القصر لأغراضك الخبيثة، أقسمُ على ذلك أيها المتلونُ مكرًا.

ثم ارتمى جالسًا على الأرض كالمنهك، وأسند رأسه إلى الشجرة القابعة خلفه، ثم رفع رأسه إلى الأعلى وهو مُغْمض العينين بسكونٍ كالمُتفكر، ونسماتُ الهواء تداعب وجهه وخصلات شعره بأريحية تامة.

وبينما هو على حاله هذا؛ إذ تهادى لسمعه عزفٌ عذبٌ شجيٌّ، فتح عينيه، ونهض من مكانه يتتبع مصدر الصوت، وقد فرَّت كلُّ تلك الأفكار من رأسه، استمرَّ يمشي مُقتربًا من مصدر الصوت، حتى خرج من بين الأشجار إلى تلٍّ واسعٍ مكسو ببساطٍ ربانيٍّ بديع من كمٍّ هائل من أزهارٍ وورودٍ، قد أوتيت من كل لون سببًا.

ثم أخذ يتلفَّتُ حوله، فوقع بصره على فتاة تجلس قريبًا منه لم تلحظه، تميل على نايٍ ذهبيٍّ بين يديها، تتناقلُ أصابعها الرشيقة بين ثقوبه برِقَّة مُصدرةً نغمًا

شجيًّا حزينًا أخذَ قلبه أخذًا رهيبًا كأنَّها يدٌ ناعمةٌ تلامسهُ برفقٍ وحنان، تسمَّر في مكانه وهو يظنُّ أنَّ ما يُشاهده حلمٌ؛ لشدَّة الجمال الذي وقعت عليه عيناه، قد تناثرت خصلات شعرها حولها كأنها خيوطٌ من حرير ذهبي، ترسله النسمات الرقراقة ذات اليمين وذات الشمال، فيطير عن وجهها مرةً كاشفًا عن ملامح ساحرة، ويعود إليه أخرى لتتفرق خصلاته الطويلة عليه، ويكون لوجنتيها منه النصيب، تلك الوجنتان اللتان قد أينعت فيهما وردتان فاتِنتان، من تحتهما شفتان قُرمزيَّتان تمدانِ النَّايَ بأنفاسها؛ كأنهما حلقةٌ من الياقوت الأحمر، يلفُّ جسدها لباس ريفي أنيق، امتدَّ طوله إلى نصف ساقيها، تاركًا النصف الآخر مكشوفًا كأنهما ساقا فضة صفاءً وبياضًا، تنتهيان بقدمين حافيتين، صُور له أنَّها أقدامُ طفلة للتوِّ تعلمتِ المشي لطراوةِ باطنها ونعومته، كانت تعزف بانسجام مغمضة العينين تكاد أهدابهما الطويلة الوارِفة تلامس وجنتيها.

لم يشعر الأميرُ بنفسه حتى مضى وقتٌ طويلٌ وهو ما يزال يقف بالقرب منها، فخشي أن تنتهي من عزفها ثم تنتبه لوجوده فتفزع! فعاد أدراجه بهدوءٍ حتى وصل إلى حرَّاسه - الذين ينتظرون عودته - بفكرٍ سارح، وجوفٍ فارغ؛ حيث قلبه ما يزال قابعًا هناك فوق التلِّ، متأملًا تلك الهيئة الفاتنة، ذائبًا بين أصابعها وهي تنتقل بخفة ومهارة على ثقوب نايها الحزين.

الفصل الرابع

اللقاءُ الأول

مضى الأسبوع الثاني على إيتوس بالنهج نفسه، يُكمل صيده سريعًا، ثم يذهب خِلسة نحو فتاته، يُمتِّع حواسه بمجلسها البعيد، تاركًا روحه تُرفرف بسعادةٍ بينهما، كأن الدنيا تحولت بعد معرفتها لحلم بهيج لا يريد الاستيقاظ منه، ثم يعود نحو حرسه مُتورد الوجه لا تُفارقه ابتسامته، وما إن يصبح اليوم التالي حتى يُسرِع في الخروج من القصر بحماسٍ ملحوظ، ودون تأثُّر من توبيخ والده الذي يُصرُّ عليه بمضاعفة صيده عن المرات السابقة؛ ليعود بعدها من صيده بابتسامةٍ متجددة كأنما غُمست في ينبوع الحياة، وليس بيده سوى الصيدين أو الثلاثة!

كاليجولا بانزعاج:

آه يا شيشرون، ما الذي أفعله بهذا الفتى لأصنع له قلبًا من حديد بدل قلبه المُرهف الذي أتعبني؟!

شيشرون:

لا عليك يا مولاي، سيصل يومًا إلى ما تبتغي.

كاليجولا:

ومتى يأتي هذا اليوم الذي ما زلت أُمنِّي نفسي به، قد أصبح حبيبي إيتوس في الثالثة والعشرين من عمره، وما يزال يربأ بنفسه عن صيد الحيوانات التي لا يحتاجها لأنَّ في قتلها قسوةً!! يا لتعاستي أن يكون خليفتي على عرشي بهذا

الضعف! كيف سيحكم البلاد ويوثق قبضته على الشعب بهذه الأحاسيس التي أُبغضها؟ يا لحسرتي عليك يا إيتوسَ قلبي! متى تدرك ما يجب عليك؟!

شيشرون:

مولاي الإمبراطور هدِّئ من روعك، سأعمل جاهدًا على أن نُحدث تغييرًا يُرضيك في شخصيته بأسرع وقت.

كاليجولا بنظرة مُتوجسةٍ نحو وزيره:

ما الذي تقصده؟

شيشرون:

أرى أن نُشركه معنا الأسابيع المقبلة في حفلات التعذيب؛ فيشاركَ الاستمتاع بها.

فزَّ الإمبراطور واقفًا وقد معَّر الغضب وجهه وهو يصرخ:

يحضر حفلات التعذيب؟ هل جننت؟!

شيشرون:

أرجوك سيدي، ستكون بدايةً موفقة عِوضًا عن فكرة الصيد المملة، إنه ما إن يرى الانتشاء الذي يغمر وجهك في تلك الحفلات حتى يُشاطرك فيها، فهو يثقُ بك كثيرًا مولاي، ويعتقد الصواب في كل ما تفعله.

كاليجولا:

أبدًا لن أفعل، فتىً يرفض أن يقتل أرنبًا أو إوزةً دون حاجةٍ تريده أن يرى إنسانًا يُقطع جسده إلى أوصال وهو حي؟! أو يشاهد آخرَ تُغرس المسامير في جوفه تِباعًا وهو يملأ القاعة بصراخه المزعج ويصفق لذلك!

ثم استدرك ساخرًا:

بل نحن نراه مزعجًا، أمَّا إيتوس فحتمًا سيراه استنجادًا يستحقُّ الرحمة، أؤكد لكَ ذلك، إنه فتىً أخرق أتعبني ضعفه! ولكني بالرغم من ذلك لن أسمح بتفتيت فؤاده على النحو الذي تريد!

ثم أخذ نفسًا عميقًا وزفرهُ بغضب وأكمل:

أنا أصبو إلى تقويته وليس إلى تحطيمه، فافهم ذلك يا شيشرون ولا تعُد لمثلها أبدًا! تعلم مدى ثقتي بك فلا تخذلها، فأنت أعلم الناس بما يعنيهِ إيتوس لحياتي وقلبي.

أطرق الوزير رأسه بإجلالٍ وبنبرته الهادئة أجاب:

أمرك مولاي، ولن يكون إلا ما تريد، فإيتوس كولدي أحبه وأحنُّ عليه، ثم إن ثقتكَ بي وسام شرف ما زلت أحمله منذ سنوات طويلة، لا حُرمت عنايتكَ وفضلكَ علي.

هدأ الإمبراطور حين سمع ذلك، وهزَّ رأسه موافقًا لكلام وزيره، فاستدار الأخير وغادر الغرفة، وما إن أغلق بابها دونه حتى تمتم بحقدٍ دفين:

اللعنة عليك وعلى إيتوس الغبي، ستنتهيان قريبًا، ولن تصبحا سوى ذكرى ساذجة بغيضة إلى قلبي، ثم مضى في سبيله ضاحكًا بخبث.

في الوقت ذاته كان إيتوس خارجًا من بين أشجار الغابة مقبلًا على حرسه، ثم ركب فرسه متجهين جميعًا نحو القصر، وفي أثناء الطريق اقترب القائد هادريان من أميره السارح بخياله في تشتت واضحٍ، وباغته سائلًا بلطف:

ما بال مولاي اليوم على غير عادته؟

انتبه إيتوس لصوته فردَّ عليه متعجبًا:

ما الذي تقصده يا هادريان؟

هادريان:

لا أرى البِشرَ يلفُّ وجهك الجليل هذه المرة!

فتنهد إيتوس بأسى، ثم سأل:

لمَ محظور عليَّ أيها القائد أن أُخالط العامَّة من الشعب؟ وما المصلحة في ذلك؟

فهربت عينا هادريان وقد تجلَّى فيهما احتقاره لموقفهِ وهو يجيب:

لا أعلم ما السبب يا مولاي، ولكن الزم الأمر فحتمًا فيه مصلحتك!

إيتوس بيأس:

هذه إذن حقيقةٌ جديدةٌ تخفي كنهها عنِّي أيها القائد المخلص!

لم يرد هادريان بشيءٍ ووجَّه بصره نحو الأمام؛ ليخفي موقفه الحرج.

استمرَّ الجو الصامت في هذا السِّرب طويلًا كأنما على رؤوسهم الطير، ثم هتف إيتوس فجأة بفرح:

هادريان وجدُّت الحل، هل تستطيع أن تنزل إلى سوق المدينة في أقرب وقت؟

هادريان:

نعم، والليلة إن أردت.

إيتوس مبتهجًا:

رائع، سيكون الحلم أسرع مما ظننت!

ثم أسَرَّ لصاحبه:

اسمع إذن أيها الصديق، ستأخذ لي زيًّا متكاملًا مما يلبسه رجال العامة، والليلة أريده.

هادريان ببسمةٍ ماكرة:

إذن قررت أخيرًا أسرها في قفصك، حسنًا، لك ذلك يا مولاي.

فزوى إيتوس فمه وهو يرفع حاجبًا متأملًا ملامح قائد حرسه الذي حرص على تغافل نظراته، ولم يطق صبراً حتى سأل:

كيف عرفت؟

هادريان كاتمًا ضحكته ودون أن يُلقي نظرة في عيني أميره:

من وجهِكَ المشرق، وعينيكَ الفائضتين حبًّا كلما عدت إلينا من خلف الأشجار.

إيتوس:

هكذا إذن، ما أزال أبوح لك بأسراري شئتُ أم أبيتُ، وما تزال أنت السدَّ المنيع أمام أسرار القصر البغيض أن تصل إليَّ، ما أعمق وفاءكَ لي!

رفع هادريان يده على شعره يمرّره بعشوائية تنبئ عن حرجه الشديد، فاستدرك إيتوس حين غلبته الشفقة عليه:

لا بأس عليكَ، فأنا أعلمُ أنك مأمور في النهاية، لكن اعلم أن لي مع قلبك الكتوم هذا موعدًا خاصًّا يفيضُ به عليَّ بكل ما فيه، أشعر بذلك يا هادريان، وأشعرُ أنه قريب!

سَرت في جسد القائد رعشةٌ رهيبة، وخفق فؤاده خِيفَة، ثم همس:

سلامتكَ أرجو يا مولاي..

لم يردَّ عليه إيتوس الذي عاد ذهنه مشغولًا بتفاصيل خطته التي عزم على تطبيقها.

في اليوم التالي، وبعد أن انتهى الأمير من جولة صيده السريعة، وتناول مع فرسانه الأشداء لحمًا طيبًا، قام وهو يخاطب قائد حرسه:

سأناديكَ حين أنتهي فأصغ إليَّ سمعك.

هادريان:

أمرك مولاي.

وانطلق إيتوس خلف الأشجار حينًا يسيرًا من الزمان قبل أن يصل هتافه لهادريان، فانطلق الأخير نحوه كالسهم بحماس، وما إن رأى أميره بثيابه الجديدة حتى اتَّسعت عيناه، وعلت محيَّاه ابتسامةٌ تصرخ إعجابًا وهو يهتف:

ما أبهاك يا إيتوس! صدقني لقد طغيت حتى على أنديمون[1] بهذا اللباس.

فاصطبغ وجه إيتوس بحمرةٍ زادته جاذبية، ثم تبسّم وهو يقول بمكر:

لا بأس، إني أُصدقك ما دمتَ أخيرًا نطقت باسمي مجردًا وبدون مُنمّقات.

فاستدرك القائد بحرج:

أووه آسف، فلقد أسرني جمالك.

إيتوس:

بل شكرًا لك لأنك لبَّيْتَ رغبتي التي طلبتها منك مرارًا وإن كان بدون قصد، فكم هو جميل أن يكون للشخص صديق وفيٌّ قريب لقلبه يناديه باسمه دون ألقاب مزيفة.

فنظر هادريان في عينيه بحبٍّ وإكبار، ثم قال:

---

(١) أنديمون: في الأسطورة الإغريقية راعٍ وسيم عشقته آلهة القمر.

أجل، أنت صديقي وسيدي ومولاي وأميري العظيم إيتوس.

إيتوس وهو يرفع رأسه بيأس:

عُدت لها بهذه السرعة!

فضحك هادريان، ثم انطلق مبتعدًا وهو يهتف:

انتظرني قليلًا، سأحضرُ لك شيئًا مُهمًّا قبل أن تذهب إليها.

ولم تمرَّ بضع دقائق حتى عاد وهو يحمل بين يديه عقدًا أنيقًا من أغصان الإكليل، وضعه فوق شعر إيتوس وهو يقول بوجه لا يخفي إعجابًا:

محظوظةٌ هذه التي ينتظرها تشريفكَ لها، ستعلق في قفصك إلى الأبد.

ولم يملك نفسه فأمال جذعه تحيةً لبهاء مولاه..

إيتوس وهو يواري خجله:

يكفي يا رجل، إنك لتُطري بأكثر مما ترى ولا أعلم لماذا؟! لكن لا تخف، أعدك أني سأتماسك إن فشلتُ في مهمتي.

هادريان:

لن تفشل إلا إذا كانت مجنونة أو عمياء.

فضحك إيتوس بخفةٍ وهو يقول:

ستغيب الشمس قبل أن أذهب إليها إن بقيتُ أستمع لهذيانك أكثر أيها القائد.

ومضى نحو مقصده يتتبع صوت نايِها كالمسحور.

أخذ مكانه الذي يقف فيه كل يوم حين يستمع إليها، حتى إذا ما انتهت الفتاة من عزفها سمعت صوت تصفيق عن يمينها؛ ففزَّت واقفة تنظرُ بوَجل جهة التصفيق، فإذا بعينيها تقعان على وجه إيتوس الوضاء، وابتسامته الجذابة، يُحيطُ

بجسده المفتول اللباس الشعبي الذي اتخذه له هادريان، بقميصه الأسود الـمُمتد إلى أعلى الركبتين، والسروال الضيق تحته والذي ينتهي بجوربين أحمرين يمتدان إلى نصفِ ساقيه، وعلى صدره وشاحٌ أحمر يلتفُّ خلف ظهره، وفوق شعره البندقي عِقدُ الإكليل الذي صنعه له هادريان؛ فأضفى عليه صورةً ملائكية مهيبة.

بقيت تحدِّق فيه بدهشةٍ وارتباك، فاستجمع قواه، وغالَبَ اضطرابَ قلبه الشديد، وخطا نحوها، همَّت أن تستدير عنه راكضة نحو منزلها إلَّا أنَّ ملامحه اللطيفة أثْبطتها، فتسمَّرت في مكانِها تُتابعه، وقلبها يدق توازنًا مع خطواته، أصبحَ أمامها مباشرةً وقد تركَّزت كل حواسه في عينيه؛ فوجدها أبهى وأجمل مما كانت عليه من بعيد، وشعر حينها بخجلٍ شديدٍ واراهُ بنظرةٍ إلى الأرض وهو يقول:

سعدتِ صباحًا آنستي، وأعتذرُ عن تطفلي هكذا ولكن...، ثم استجمع بقية قواهُ ورفع عينيه النجلاوين نحوها وأكمل:

ولكن أحببتُ أن أسألكِ مَن علمكِ هذا العزف الجميل؟

الفتاة وقد اتَّضح على صوتها الارتباك:

آآآ.. إ.. إنها.. أمي!

لمعت عيناه تعجبًا وهو يقول:

حقًّا؟! هذا مدهش! يبدو أنها موسيقية بارعة.

صمتت لحظةً، ثم أجابت:

أجل، هي تتقن ذلك، منذ كانت صغيرة.

إيتوس:

وورثتِ ذلك عنها.

فهزت رأسها موافقةً وقد انفرجت شفتاها ببسمةٍ عذبة.

إيتوس وقد ذهبت تلكَ الابتسامةُ بلُبِّـه:

لكنكِ لم ترثِي منها جمالكِ بالتأكيد، فجمالكِ هذا لا يُورث، جمالكِ هذا هبة منحها الإله لكِ خاصَّةً دون غيركِ من أهل الأرض، أنتِ سماويةٌ حتمًا، وسقطتِ على هذه الأرض؛ لتُضيئي عتمتها وتسعدي نفوس أهلها بحسنكِ الأخاذ، ثم ترحلي لعالمكِ العلوي بطُهركِ الذي أراه جليًّا في عينيك الزرقاوين.

فأذهلتها كلماته، وصرخَت وجنتاها بحُمرةِ الخجل، غيرَ أن ذلك استحال فجأة للغضب؛ فعقدت حاجبيها وحدَّت فيه النّظر فارتبك، ثم استدارت عنه حاثَّةً الخُطا نحو منزلها أسفل التَّل دون أن تُسمعه صوتها!

ولما أدرك إيتوس ثرثرته التي لا يعلم كيف باغتته، وضع يده على مؤخرة رأسه يحكُّها وهو يُتابع خطواتها المبتعدة عنه دون أن يجِد ما يقول، حتى إذا دخلت الفتاة منزلها جلس مكانه، وضمَّ ركبتيه إلى صدره، وبقي ينظر إلى المنزلِ بإحباط.

انهمكت الفتاة في أعمال المنزل مع أمها التي لاحظت التغير الذي اعترى ابنتها، وبعد ساعتين والفتاةُ تغسلُ صحون الغداء، رأت من خلفِ النافذة المُقابلة لها الفتى الجالسَ أعلى التَّلِّ؛ فتمَلَّكتها الدهشة من استمرار بقائه إلى هذه اللحظة! وربما خالط قلبها شيء من العطفِ عليه، وأنَّبت قسوتها معه، لكن سُرعان ما عادت تُحدِّثُ نفسها أنَّ ردَّة فعلها كانت طبيعية لفتاةٍ يُسمِعها شابٌّ غريبٌ معسولَ الكلام وبكلِّ جُرأة!

فأصرَّت على موقفها، وأكملت أعمالها، غيرَ أنها كانت تتطلع إليه من النافذة بين اللحظة والأخرى، وهو لا يزالُ في مكانه، لا تعلم لمَ لمْ يُصبهُ الملل فيعود من

حيث أتى؟ أو يُقبلُ إلى منزلها فيُكمل ما ابتدأه معها إن كان فظًّا جريئًا كما اعتقدت؟!

فحارت في أمرِه حيرةً عظيمة، ومن حيث لا تشعر؛ مالَ لهُ قلبها.

وحين غربت الشمس، وأوشك القمر أن ينوبَ مكانها في كبِد السماء؛ نهض إيتوس بهدوء، واستدار ماضيًا، وعينا الفتاة الواسعتان تتُابعه حتى اختفى خلف الأشجار.

وفي اليوم التالي فعلَ ما فعلهُ بالأمس حين لم يجد الفتاة على التَّل، فجلس مُحبطًا ينظر إلى بيتها دون أن يمضي إليه؛ وهي تُتابعه من خلف نافذتها دون أن تذهب إليه هيَ الأخرى، وبقيا كذلك إلى أن غربت الشمس، فاستدار عائدًا من حيث أتى، وهكذا فعل في اليوم الثالث.

وحين أقبل صباح اليوم الرابع، وظهرَ إيتوس من خلف الغابة ليجلس مكانه، سمِعَ صوت خطواتٍ على الحشائش؛ فطار قلبه وطالع جِهة الصوت، ولم تكد عيناه تقع على وجهها الصغير حتى أشرقتا، ورقصت على ملامحه تباشير الفرح بقدومها إليه، اقتربت منه؛ فرأت في عينيه الجميلتين وداعةً تُريح نفْسَ النَّاظر إليها؛ فاستحيت، وأشاحت بوجهها قليلًا وهي تتصنع العتب:

ألم ترُق لكَ إلا هذه البقعة من هذا التَّلِّ الواسع لِتحتلَّ مكاني؟

إيتوس بحرج:

أوه كلا ليس كذلك صدقيني - ثم بنبرةٍ نادمة - ولكن عزَّ عليَّ أني آذيتكِ من حيثُ لا أدرك، ولولا خوفي من أنَّ قدومي إلى منزلكِ سيؤذيكِ أكثر؛ لكنتُ قد قصدته من وقتها مُعتذرًا إليكِ.

الفتاة وهي تُحاول ألا تُباشرَ عيناها عيني الفتى:

أوه كلا لا داعي، انسَ ما حصل.

ثم صمتت برهةً علَّهُ يمضي حين أدرك أنها لم تعُد غاضبة، لكنه لم يمضِ، بل بقيَ ينظر إليها بإعجاب يفيض من عينيه، ففهِمت ذلك وداعبها شعورٌ خجول من الفرح، غير أنها تصنَّعت اللامبالاة وهي تقول:

حسنًا هل تُريدُ قول شيء آخر قبل أن تمضي؟

إيتوس متعجبًا:

أمضي؟! أنا مُرابطٌ هنا منذ أربعة أيَّام لأحظى بمحادثتك يا ملاكي؛ فكيف لي أن أمضي الآن وقد سنحت ليَ الفرصة أخيرًا؟!

ثم غطَّى فمه بيدهِ حين خشيَ أن يكون قد أزعجها مُجددًا بتَغزُله الذي يُباغته كلَّما تأمَّل ملامحها البالغةَ الحُسن، ثم رفعها إلى شعره يحُكُّه وهو يتضاحك بغباء.

لكن الفتاة لم تنزعج هذه المرة؛ بل اجتاحتها ضحكةٌ رقيقة حين رأته هكذا وقد أدركت لُطفهُ الشديد وصِدقَ مشاعره، ولم يكد يرى ذلك حتى ازدادَ قلبه جنونًا بها، وسارع لإغلاقِ فمه بإحكام كي لا تباغته ثرثرةٌ ثالثة.

سألته الفتاة:

ما اسمك؟

- اسمي إيتوس، وأنا من عامة الشعب كما ترينَ ذلك على ملابسي.

صمتت الفتاة لحظة لم تفهم خلالها سبب شرحه الأخير! ثم أكملت مُستوضحة:

هل أنت فارس؟

إيتوس بارتباك:

فارس؟! ولماذا تظنين ذلك؟ أنا لم أرَ قصر الإمبراطور يومًا فضلًا عن أن أكون أحد فرسانه!

قوَّست الفتاة حاجبيها، ثم ضحكت ثانيةً وهي تلاحظُ بلاهته، ثم قالت:

لم أقصد أنك من فرسان الإمبراطور، ولكن لـمَّا رأيتُ بُنية جسدكَ القوية ظننتُ لوهلة أنك فارسٌ ورياضيٌ ماهر.

تهللت أسارير إيتوس حين اطمأنَّ لبُعد شكِّها في حقيقته، وأجاب مُمعنًا في تضليلها:

حسنًا فهمتُ قصدكِ، ربما هذا عائدٌ لعملي؛ فأنا بحار ابن بحار، أقضي جُلَّ وقتي فوق سفينتي، أجوب بها بين الأمصار، ولو تعلمين كيف هو عمل البَحَّارة لما استغربتِ عضلات جسدي التي تقتاتُ على أسماك القرش وقناديل المحيطات.

فغمرت السعادة وجه الفتاة من بديع وصفه، وضمَّت يديها وهي تهتف بنبرةٍ عذبة:

يا لها من صُدفة جميلة! منذ زمن وأنا أتمنى ركوب البحر؛ لأعيش ما يُسمونه بمغامرات البحَّار المذهلة.

تنوَّر وجه إيتوس بفرحٍ كأنه حظيَ بفُرصة لم يتوقعها! فوضع يده على صدره وهو يقول:

سأُحقق لكِ أمنيتكِ، وسأحكي لك تفاصيل حكاياتنا حتى تعيشي الصورة كأنها كائنة أمامكِ حقًّا تخوضين غِمَارها.

وجلسا على حشائش التَّل البهيج، تُحيط بهما أزهاره الملونة من كل جانب مُهديةً لأنفاسهما أطيب شذاها، وأخذ إيتوس الذي لم يركب البحر يومًا يقصُّ عليها ما كانت تحكيه له مربيته في طفولته عن عالم البحار ومخلوقاته من مخيلتها المحْضة، فجعلها حقائق لا زيفَ فيها عايشها بنفسه، وركب غِمَارها بشجاعته! والفتاة تستمع له بانسجام، قد جعلها إتقان وصفه تشاهد فتاها الجالس أمامها يقف في مقدمة السفينة، قد رفع إحدى قدميه على لوحة حافتها، والأخرى تُثبته كالوتد، ويده اليمنى المرفوعة خلف رأسه تُمسك برُمْحٍ عظيم الطول في هيئة الاستعداد لرمي الفريسة الضخمة، والأمواج من حوله تتلاطم بقوةٍ لاعبة بسفينته ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال وهو لا يأبه بذلك كله؛ كأنما شجاعة رجال الأرض كلهم اُكْتُنِزت في قلبه وحده، ثم ظهر له ذلك الكراكن[1] الذي كاد يغطي ما بين السماء والأرض لعِظَم خِلقته، فتقافز البحارة رعبًا من حول البحار إيتوس فرارًا من هذا الوحش، لكن الفتى المغوار لم يبرح مكانه شبرًا ولم يهتزَّ قلبه خوفًا من هذا المخلوق الذي قد رفع أذرعه المائة عاليًا ليُحطم بها سفينته، وفي لحظة ذكية حاسمة رماهُ البحار برمحه بكل قوته؛ فاخترق قلوب الكراكن الثلاثة في آن واحد! وسقط الوحش ميتًا في قاع المحيط؛ ليهتف البحارة فرحًا بشجاعة قائدهم الذي يُنقذهم دائمًا من مخلوقات البحر الفتاكة.

واستغرق إيتوس طويلًا يحكي لها ما يشابه هذه القصة غرابة أو تزيد، فلما انتهى أخيرًا ما استَحْضَره عقله من حكايات مربيته، نظر في عيني فتاته وقال متفاخرًا:

---

(١) الكراكن: مخلوق بحري أسطوري يشبه الأخطبوط، إلا أنه عملاق.

هذه بعض مغامراتي التي أخوضها دائمًا في عملي كبحَّار.

فلمعت عينا الفتاة بدمعتين سعيدتين وهي تُميل وجهها على يديها المضمومتين بِرقةٍ وتقول:

أنا معجبةٌ بك سيد إيتوس، وسعيدة لتعرفي عليك.

فتأملها إيتوس بِهِيام، ثم همس بنبرةٍ لطيفةٍ هادئة:

بل أنا السعيد حقًّا بمعرفتك، لقد أخذني جمالكِ بعيدًا، وأنساني حتى أن أسألكِ عن اسمك، هل لي أن أعرفه؟

الفتاة بنبرة صوتها الآسرة:

أجل، اسمي استيلا.

إيتوس:

أووه ما أجمله! جميلٌ إيقاعه كإيقاع عزفكِ الشجي.

فتبسمت له الفتاة، وعاد سائلًا:

وهل تعرفين معناه؟

هزَّت رأسها وهي تُجيب:

أجل، فمعناه النجمة المتألقة.

فانبجست من وجه إيتوس ابتسامة مندهشة وهو يقول مؤكدًا:

ما أروع ذلك! وما أصدقه! فإني لا أراك إلا نجمة الأرض الوحيدة حين امتلأت السماء بآلاف النجوم.

وصمت برهةً يُنظر إليها بِوَلهٍ واضح وهو يُحاول كبتَ مشاعره التي تتأججُ في صدرهِ المجنونِ بها، غير أنه لم يستطع، فأردف:

بل أنتِ نجمتي يا استيلا، نجمتي التي أضاءت لي حياتي، وأنعشت لي عالمي منذُ رأيتها أول مرة، لو تعلمين كيف نزعتِ قلبي من جوفي حينها؛ ليغدو بين يديكِ تعبثينَ به كيف شئتِ.

فأخذها كلامه المعسول أخذًا رهيبًا، ودقَّت نبضاتها له بعنف، ثم ابتسمت بخجل، وغيَّرت وجهة عينيها إلى الأمام، وحين أدرك ذلك خافَ أن يُغضبها فتعودَ إلى منزلها من جديدٍ وتتركه على التَّل! فغيَّر مجرى حديثهما مباشرةً ليسألها عن هواياتها، وعن أحب الورود إليها، وعن اليوم الذي اقتنت فيه نايَها، وهي تُجيب بمشاعر ضاحكة من ارتباكه الجليِّ لها، ثم أخذت دوره فطرحت عليه بعض الأسئلة لمعرفة ما تودُّه عنه، ومضى بهما الوقت وهما يتبادلان الحديث بتناغمٍ وانتعاش، حتى إذا أوشكت الشمس أن تؤوب إلى مخدعها، تاركة صفحة السماء خلفها تسبح في الاحمرار البديع؛ وقفت استيلا وهي تقول:

عليَّ أن أعود إلى المنزل الآن يا إيتوس وإلا قلق عليَّ والداي.

فنهض الفتى وقابلها مباشرة وهو يقول بأسى:

لأول مرة أحسب ساعات النهار الطويلة تمرُّ كدقائق خاطفة، لقد مرَّ الوقتُ سريعًا يا استيلا..

فاحمرَّت وجنتاها وابتسمت له وهي تطيِّبُ خاطره:

لا بأس، سنلتقي في يوم ما.

فأمسكَ الفتى بيديها، ورفعهما تجاه صدره وهو يهمس لها:

بل سنلتقي غدًا، أرجوكِ؛ لأجل قلبي الذي صارَ بين يديك تعالي غدًا إلى هنا.

فَسَرَت حرارةُ دمائهِ في شرايين يديها، وتدفَّقت سريعًا نحو قلبها الذي أخذ

يخفق بقوةٍ رهيبة، والتقت عيناهما، سَحرها صفاء عينيه البُنيَّتين، وغاصَ هو في زرقة بؤبؤتَيْها الواسِعتين، وخُيِّل له حينها أن أهدابها الطويلة تُداعبُ وجهه؛ فغمرهُ شعورٌ جميل رسم على شفتيه ابتسامة المنتعش، فأشاحت بوجهها خجلًا وطربًا لما أدركت عظيمَ هِيامه، وتنبه إيتوس لموقفه فاستدرك:

إلى اللقاء الآن يا نجمتي المتألقة.

عادت استيلا إلى منزلها، واتَّجه إيتوس نحو حراسه المنتظرين له، وما إن رآه هادريان حتى باغتته ضحكة غالبها لما رأى السرور البالغ الذي يغمر وجه أميره، مُدركًا أنه قد وصل إلى غايته أخيرًا.

❊ ❊ ❊

مضت ساعات الليل ثقيلة لا تُحْتمل على إيتوس الذي أقضَّ مضجعه حنينه لفتاته، فراوده لأول مرة شعورٌ عدائي لهذا الليل الذي فرَّق بينهما، وبات يتقلب على فراشه يتراءى صورتها الجميلة كل لحظة، يتمنى لو ينقضي هذا الليل الغيور بسرعة ويشرق الفجر العادل؛ ليحظى بلقاء حبيبته، وحدَّث نفسه أن يُطوِقها بذراعيه محتضنًا حين يلقاها؛ فيستنشق عبيرها وهو يُعبِّر لها عن وجده الشديد الذي أطار النوم من عينيه؛ فيعوِّض حِينئذٍ فقده!

وما إن أقبلت أول ساعات الفجر حتى نهض واغتسل وبكَّر في خروجه قبل أن يكتمل نور السماء، اصطاد فريسته ثم تناول مع فرسانه لحمها المشوي، ثم نهض يحاول ضبط مشيته أمامهم؛ لِئلا يُفتضح جنون قلبه لهادريان الذي يعلم أنه الآن يراقبه، وما إن اختفى خلف الأشجار حتى أطلق قدميه للريح، وصار في غضون ثوانٍ قابعًا في مكان لقائهما البارحة!

وأحزنه أنها لم تكن في المكان بعد؛ فبقيَ واقفًا برهةً، ثم أخذ يذرع التَّل يمينًا وشمالًا، وعيناه تجوبان كل طَرفٍ وكل اتجاهٍ عساه أن يحظى برؤيتها وهي تصعد التَّل كوردة بيضاء تنبتُ بزهاء من بين الحشائش؛ فيكون أول من يلتقطها، ولـمَّا طال عليه الوقت خطرت بباله فكرةٌ، فجمع من الزهور أبهاها في عينيه، وجلس على الحشائش يصنعُ منها عقدًا؛ ليُزين به شعر حبيبته، ولم تمضِ دقائق حتى سمع صوت أقدام تخطو إليه، فوقفَ قلبه قبل أن تقفَ قدماه، رآها تقبل إليه تَرْفُلُ في حُسنها وبهائها، فأسرع نحوها والأرض لا تكاد تحمله فرحًا بها وهو يَهُمُّ بفعل ما حدَّث نفسه به البارحة؛ ليعوِّض فقده! ولكن ما إن صار أمامها ولمحَ ثغرها الباسم حتى أُخذ فؤاده وارتبكَ كأنه يراها أول مرة! ولم يجد إلا أن ينحني لتحيتها فحسب، واضعًا يده على صدره؛ تعبيرًا عن سعادتهِ بقدومها وهو يهتف:

طابَ صباحكِ يا نجمتي المتألقة.

فصدرت منها ضحكة رقيقةٌ فاتنة، وأمسكت طرفي فستانها بيديها، وأنزلت جسدها قليلًا تبادله التحية، فرفع رأسًا تفيض البهجة من قسماته، ومدَّ لها عقد الزهور وهو يقول:

هذا لكِ استيلا، صنعته بيدي.

فتناولته بعينين مبتهجتين وهي تقول:

ما أجمله!

ثم وضعته فوق شعرها الذهبي المسترسل إلى أسفل ظهرها، وأنزلت من تحت العقدِ خصلتين أحاطت بهما وجهها المستدير، ثم دارت دورتين بفستانها الريفي الأنيق قبل أن تقف بدلالٍ وهي تسأله:

كيفَ أبدو به؟

إيتوس بإعجاب:

ما ازددتِ به إلا تألقًا، بل إن أردتِ الحقَّ فهوَ من تألقَ بكِ، فأنتِ من يهبُ للأشياءِ جمالًا وليست هي.

غطَّت فمها القُرمزي بأطرافِ أصابعها ضاحِكةً بِنُعومة، ثم غمرها الخجلُ حين رأت عينيهِ العاشقتين تجنَّان بها، ولم يمهلها لحظةً فأرسل يده لمعصمها وأمسكه، وجذبها نحوه فدُهشت، وعلت نبضات قلبها حتى وصل إيقاعه إلى أذني الفتى، غير أنه تجاهل ذلك، وهمس في عينيها القريبتين:

استيلا، هل تصدقين أني حُرمت النوم البارحة؟! كيف لكِ أن تفعلي هذا بقلبي؟! إنكِ أول مخلوق يتجرأ عليه فيبقيه يقظانَ مشتاقًا! وإني لأراني الآن محقًّا أن أطلب على فعلتكِ العوض.

ثم وضع يده الأخرى على ظهرها؛ ففطنت أنه يهمُّ باحتضانها، فعاجله استحياؤها حين وضعت كفها على صدره تدفعه بخفة وهي تتظاهر بالثبات؛ بينما قلبها يكاد يفضحها اضطرابًا:

أووه لستَ وحدك من حُرم النوم، فحتى أنا لم أجد له سبيلًا البارحة، وأظننا متعادلين.

أرخى قبضته حول معصمها،وأبدى اندهاشه الذي سرعان ما تبدَّل إلى ابتهاج واضح وهو يسأل:

ومن الذي فعل بكِ هذا؟

أخفت ضحكتها حين نجحت في الابتعاد عنه، وراحت تجيبه:

لا شيء، فقط كنت أفكر كيف أذهل أمي بغداء اليوم! فانقضى الليل ولم أقرر بعد.

أدرك أنها حيلة نالت ما وراءها، فزمَّ شفتيه وقال:

أيتها الماكرة.

ضحكت استيلا، واتَّسعت شفتا إيتوس ببسمةٍ حانية حين رآها كذلك، لا يعلم لمَ كلما رأى مبسم ثغرها ينسى كل شيء.. كل شيء، سوى فرحة تنبت في قلبه؛ يتبسم على عقبها ثغره؟! فأخذ على نفسه عهدًا ألَّا ينقض مسلكه.

استيلا:

من علمكَ صنع العقد يا إيتوس؟

إيتوس:

علَّمني صديقٌ لي، وإن شئتِ الحقيقة فهي أول مرة أصنع فيها عقدًا بنفسي.

فتناولت العقدَ من رأسها، وأخذت تنظرُ إليه وهي تقول:

ولذلك أجد فيه بعض ما يحتاج إلى إتقانه، ثم تابعت بصوتها الرقيق:

لا بأس، سأعلمكَ الآن كيف يُصنع؛ لتغدو أمهر من يُزين رؤوس الفتيات.

ثم انطلقا يجمعانِ ما طاب لهما من الأزهار، واستقرا جالسين فوق البساط الأخضر الممزوج بأبهى الألوان، قد امتدَّ أمامهما مدَّ البصر، والشمس المتوسطة لقبةِ السماء تنشر على الأرض أشعتها البرونزية الدافئة، مانحةً العاشقيْن من نورها ما أحالهما لمشهدٍ من مشاهدِ الأحلام السماوية، هي تصنعُ العقد بانسجام وهدوء وهو يراقبُ ذلك بانتشاء، ثم ما يلبثُ أن تبتعدَ عيناه عن الأزهار فتستقران بين أصابعها الرشيقة البيضاء، ثم تعلوان وتعلوان مارةً بانبهار بجسدها الرشيق شبراً

بشبرٍ إلى أن تصلا به إلى وجهها؛ فيتعمَّق تأمله، ويغبط نفسه أنه يجلس بالقربِ من فتاةِ الأحلام هذه، ونجمة الأرض الوحيدة كما يؤكد لنفسه؛ فيخْفِقُ فؤاده خفقانًا مضطربًا، وسُرعان ما يُعيدُ بصره تجاه الأزهار من جديد وقد احمرَّ وجهه.

انقضت عليهما ساعة من الزمان لم يشعرا بطولها وهما يتبادلان الأحاديث والضحك بينهما، ثم أمسكت بنايِها وهي تسأله بصوتها العذب:

هل تحبُّ أن أعزفَ لك الآن؟

انبلج البِشر على وجهه وهو يجيب بسرعة:

أجل، اعزفي أو اصنعي عقدًا ثانيًا أو حدثيني عن أي شيء تريدين، المهم أن يطول مجلسنا يا حسنائي.

باغتتها ضحكة كتمتها بصعوبة، ثم استجمعت ثبات ملامحها وهي تومئ بالموافقة، ورفعت النَّايَ إلى شفتيها المضمومتينِ، وأغمضت عينيها بأهدابهما الطويلة؛ لتبدأ عزفها بهدوءٍ وانسجام، كأنما نسيت العالم من حولها؛ ونسيت معه هذا الشاب الذي يجلس بجانبها، واستغرقت بعيدًا في ماضيها الذي أخذ يرسل إليها من نسماته ما تفتحت له تلك الصور، صورٌ مطوية في أعماق قلبها، تثير في جوفها الحزن والحنين بقدر ما تثيرُ في عزفها الشجن..

انقضى ذلك النهار سريعًا، وعاد كلٌّ منهما إلى بيته، وروحه لم تشبع بعد بخليله.

وتحوَّلت من بعدها حياة إيتوس؛ فصار قليل المكوثِ في قصره الملكي، يخرج أول البكور ولا يعود إلا عند المساء، يتناول عشاءه شارد الذهن، متورد الوجه في بسمة، ثم يأوي إلى غرفته، ولا يراه والده بعدها إلا في عشاءِ اليوم التالي،

فشقَّ ذلك عليه، وآلم قلبه ألَّا يجد ولده الوحيد بقربه كما كان، فكان يسأله عن سبب غيابه وتحوله المفاجئ! فيُحيل إيتوس السبب إلى مسبباتٍ غير مقنعة لم تنطلِ على والده، فعزم التضييق عليه وإعادة (إيتوسَ قلبهِ) إليه، لولا أن أثناه شيشرون عن ذلكَ بدهائه، حيث كان يعلمُ جيدًا ما يشغل إيتوس وهو الذي يراقبُ كلَّ خطواته ليس حبًّا فيه؛ ولكن لأن عِلْمَ الإمبراطور بأن ولده واقعٌ في حب فتاة ريفية من عامة الشعب سيُخِلُّ بتوازن الأمور، وسيُحدث اضطرابًا في القصر بل وفي الإمبراطورية كلها؛ حيث إن إيتوس لن يتخلى عنها ولو كلفهُ الأمر حياته! وكل ذلك سينعكس سلبًا على مخططات شيشرون ورغباته، فاستمر بمكره يبث الهدوء في القصر؛ ليحُول دون أن يقع شيء يخالف ذلك، وغرِقَ إيتوس في بحر حبٍّ عميق، ومرَّت عدة أشهر وهو بعيدٌ عن والده وعن القصر، ولم يعد يعيش في عالمه سوى استيلا، أو كما يسميها (نجمتي المتألقة).

الفصل الخامس..
أركون

كان العرق يتصبَّبُ منه كحباتِ الجمان وهو يذرع أرضه ذهابًا وإيابًا مع بقرته التي تحرث الأرض، يرسل عليها سوطه بين الفينة والأخرى بضربات أقرب للتربيت منها إلى الضرب! ولسان حاله: (مُكرهٌ لا بطل)!

فالموت هو النهاية المحتومة لهما ولوالديه؛ إن تقاعس أحدهم عن العمل، والذي يأخذ منهم كل يومهم دون راحة سوى ساعات نومٍ متقطعة من آثار الآلام التي تُعانيها أجسادهم إثر الأعمال الشاقّة، وأخيرًا وبعد ساعات متواصلة، ألقى نظرة على ما أنجزه هو وبقرته؛ فانشرح صدره لما رأى الأرض كلها قد حُرثت، ولم يبقَ إلا البذر، ثم تتولى الأمطار التي تنعم بها بلادهم بقية المهمة، فيبدأ النبتُ بالخروج من ظلمات الأرض إلى نور الأفق، يُتابعه يومًا بعد يوم سعيد الخاطر مبتهجًا بمراحل نُموه مشتاقًا لاكتماله كأنَّما هو ولدٌ له، وما إن تمر عدة أشهر حتى يبدأ الثمر الطيب بالينوع؛ فتصير أرضه الخاوية كأرض الأحلام التي يتمناها كل إنسان، وبينما وجهه يتهلل من فرط السعادة وهو يُتابع ذلك في مخيلته، تمَعَّرت الملامح فجأة، وعقد حاجبيه، وتثبَّط فؤاده المنتشي!

ثم حضَّ بقرته على المُضي نحو مَأواها لترتاح، وهو يندب حظَّه وحظَّ الشعب البائس الذي ينتمي له، فما إن يجني الثمر حتى يذهب رَيعُه وأرباحُه إلى إمبراطور البلاد؛ لتتضاعف ثروته، وينعم بِترفه الذي قد وصل حدَّ البذخ، ثم لا

يتبقى له ولوالديه إلا ما يسدُّ رمقَ الجوع فقط، بل قد يبيتون الليالي دون قوتٍ إلا ما يحول بينهم وبين الموت إذا شحَّ النبت عليهم بثماره!

ولما أدخل البقرة حظيرتها، أقبل على أمِّه المنهمكة في عمل السلال منذُ الصباح الباكر، فقرأت على ملامحه الإحباط، وراحت تحاول تخفيف تلك المشاعر عنه وهي تقول:

زدتُ اليوم في عدد السلال، وسنجني منها ربحًا مضاعفًا إن بِيعت، وسأطهو لكم به لحم الحمام الذي تحبه.

تنهدَ أركون بعمقٍ وهو يقول:

لقد ضَعُفت القوَّة الشرائية كثيرًا يا أمي، فلا تُعلي سقف أحلامك كثيرًا،

ثم تابع متهكمًا:

لكن لا بأس فقد أكلنا اللحم قبل ثلاثة أشهر، ولا يزال مذاقه الشهيُّ في لساني.

صمتت الأم قليلًا، ثم قالت وهي تضع سلة قد انتهت منها وبدأت العمل بأخرى:

ولدي حبيبي لا تبتئس من الحال، فنحنُ على الأقل أفضل من غيرنا، فقد توفيت ابنة جارتي هذا الصباح حين عجز والدها عن دفعِ قيمة الدواء، ولما طلبتُ من جاراتي مساعدتهم رفضنَ وبررنَ أنَّهُنَّ وأولادهنَّ أولى بهذه الدراهم المعدودة التي لا تغني من جوع، فلم تقوَ الفتاة على مجابهة المرض، ولم أستطع أن أقدم لهم شيئًا إلا أن بقيتُ بجانب أمها أواسيها ونحن نشاهد صغيرتها تُنازع الموت هذا الصباح، ثم عدتُ إلى البيت وأنا لا أعلم كيف سيتدبرون كلفة دفنها، يا لها من فتاة مسكينة!

ثم رفعت يدها تمسح دموع الحزن من عينيها، فما زاد حديثها الفتى إلا سخطًا وأسىً بانا على وجهه، ثم حمل السلال التي أنجزتها والدته وهو يقول:

سأسبقُ والدي بهذه إلى السوق، وليلحقني بالبقية..

ومضى تُشيعه نظرات والدته المتألمة لحاله وهي تعلم ما يخْتلج فؤاده اللحظةَ من الضيق والرغبة في البكاء لولا حياؤه منها، فتندَّمت على ما باحت به.

وما إن وصل أركون إلى سوق المدينة، وبدأ بترتيب السلال في دكانه الذي هو عبارة عن سقفٍ من أوراق الشجر قائم على أربعة أعمدة من الخشب كبقية المحلات في السوق، حتى رأى الناس تذهب تِباعًا إلى ساحة الميدان التي تلي السوق، فالتفت إلى صاحبه البائع بجواره يستوضحُ منه السبب؛ فأجابه وهو ينفضُ عن بضاعته الغبار الذي علق بها:

يقولون إنها تطبيق عقوبة.

أركون بتعجب:

واليوم أيضًا؟! أراها كثُرت عن ذي قبل!

كاسكا بصوت منخفض وهو يُشير بسبابته إلى فمه الذي كوَّنه كحلقه:

هششش! لا يسمعنَّكَ أحدٌ يا أركون وإلا فقدكَ والداكَ المسنَّانِ إلى الأبد!

والتفت يمينًا وشمالًا بخوفٍ حتى اطمأن لعدم سماع أحدِهم حديثه؛ فاقترب من أركون وهو يزيد من خفض صوته:

لقد سمعتُ أن الإمبراطور هذه الفترة في مزاج سيء، وكالعادة ينفس غضبه في الشعب!! لقد علمتُ اليوم أنَّه أعدم ثلاثة من التجَّار الكبار؛ ليُعجل في نقل ثروتهم إليه، فالقرارُ الذي صدر منذ عشر سنوات وأُجبروا على الموافقة عليه؛ يُفيد أنَّ

جميع أملاك التاجر تُنقل مباشرةً إلى خزينة الدولة إذا مات فلا يرثه أحد، لكن يبدو أن تأخُر الآجال قد ضاقت على حاكِمنا فصار يعدم من يشاء بتهمٍ ملفقةٍ؛ لتنتقل إليه ثروتهم مباشرة، وينعم بها مع ولده المدلل!

اتَّسعت حدقتا أركون استنكارًا وهمَّ بالشجب، إلا أن الضجة التي ارتفعت من الميدان حثته على الذهاب قبل أن يردَّ على صاحبه بشيء سوى أن قال له موصيًا وهو يُولِّيه دُبره:

اعتنِ بسلالي إلى أن أعود يا كاسكا.

واختفى مع الجموع التي تتدفق إلى الميدان.

كاسكا مُحدثًا نفسه وهو يهزُّ رأسه بحزن:

لم يكن من الحكمة أن تذهب!

وصل أركون إلى الساحة الواسعة التي اكْتَظت بالناس، والتي تحوي منصة في آخرها، وأربعَ بوابات مقوَّسة ضخمة عن جانبي تلك الساحة هي مخارج تؤدي إلى أطراف العاصمة، وقد تدلى من كلِّ قوس قفصٌ بعرض متر وبارتفاع يزيد عن ذلك بنصف متر، عُلِّق بسلسلة غليظة بينه وبين القوس، وإذ به يرى الجنود يدخلون من أحد تلكَ البوابات على عرباتهم مدججين بأسلحتهم، والجمع ينفضُّ من أمامهم حتى وصلوا إلى المنصة، ثم انتشر الجنود حولها متأهبين بأسلحتهم؛ للفتك بكل من يُحاول إحداث شغب أو إبداء أي اعتراض، فارتدَّ الناس إلى الخلف بِضعة أمتار مذعورين، ثم نزل من العربة قائدهم يتبعه اثنان يقودان فتىً دون الخامسة عشر من عمره، قد جُرِّد من الثياب ما عدا سروالٍ يستره إلى نصف فخذيه، مُنكَّس الرأس، على جسده آثار السِياط، ووجهه مُمتقع بلون الرعب مُنكمش.

ارتقى القائد أعلى المنصة، وأقبل على الحشد الهائل من الناس رافعًا رأسه، يكاد ظهره أن ينكسر من شدة انتصابه كِبرًا وبطرًا، ثم ألقى نظرة خاطفة اتضح منها ازدراؤه للشعب البائس أمامه سرعان ما قطعها، كأنَّما أراد تفحصهم ثم استقذر ذلك على عينيه! وأخرج من داخل قميصه العسكري ورقةً مطوية، ثم شرعها أمامه ليقرأها على الناس، فصمت الجميع ترَقُّبًا للخبر، ولم تعد تسمع في ذلك الميدان الذي احتَشَد فيه المئات من البشر صوتًا ولا همسًا، كأنَّما نزل عليهم الموت فانتزع أرواحهم جميعًا في لحظة واحدة، وبدأ القائد بالقراءة:

(إلى شعب ثيفا العظيم، حرصًا على توطيد الأمن في هذه البلاد المباركة، وبترَ كل معتد يُحاول المِساس بأمن الإمبراطور المُبجل وأمن الشعب، صدر القرارَ بشأن هذا المُتَّهم الماثل أمامكم؛ والذي حاول مقاومة رجال الإمبراطور حين أرادوا القبض على والده الذي تخلف عن دفع المُستحقَّات الواجبة عليه للدولة، بل ونال من مقام الحاكم السامي، ووصمهُ: بالقسوة والتجبر، وسيدي الإمبراطور المبجل بعيدٌ عن أوصافه كل البعد؛ لذا تقرَّر عقوبته بالحبس في (قفص المجرمين) دون أن يذوق من خيرات الإمبراطور التي تنكَّرَ لها حتى يلقى حتْفَه جائعًا حقيرًا كما يليقُ به، ليكون عقابه رادِعًا لكل من تُسوِّل له نفسه التمرد على هذا البلد الآمن وشعبه العظيم).

ثم أدخل الخطاب في جيبه، وولَّى ظهره للناس قبل أن يتطلَّع إلى وجوههم ويقرأ ما فيها؛ لأنه يعلمُ أنها لن تصرخ إلا تكذيبًا لما قُرِئ واستنكارًا لهذا الظلم الفظيع.

وقِيد الفتى إلى القفص الخالى؛ حيث الثلاثة الباقية شاغرة بثلاثة مجرمين، اثنان لم يَتبقَّ منهما سوى الجماجم، وثالثهم قد التصق جلده بعظمه راسمًا بذلك

قفصه الصدري وعظام وجهه بوضوح كأن لا شيء يكسوهما، ولم يعد يملكُ من القوة ما يستطيع أن يذُبَّ به الذباب الذي يحوم عليه؛ فقد كان يحتضر.

فُتح القفص الرابع، وأُدخل الفتى فيه دون مقاومة منه؛ ليجلس ضامًا ركبتيه إلى صدره؛ حيثُ لا يتَّسع قفص المجرمين لأكثر من ذلك! ثم سُحبت السلسلة، وبدأ القفص يعلو عن الأرض، والفتى ينظر حوله بعينين تكادان تخرجان من بين جفنيه ذعرًا من مصيره الأخير، والناس ترْقُبه تكادُ تأكل قلوبها قهرًا وكمدًا، ولا تستطيع أفواههم إبداء شيء من ذلك؛ لِئلا يُلاقوا نفس المصير هم وأهليهم؛ إذ كان القانون الذي سنَّه إمبراطورهم كاليجولا أنَّ المجرم لا يُعاقب وحده، وإنما تشمل العقوبة والديه وإخوته وأبناءه جميعًا، فكان الشخص إن أرخص نفسه لقاء كلمة الحقِّ تذكر من ليس له ذنب من رجال وأطفال ونساء؛ فيتراجع حينئذٍ عن تهوره!

واستقرَّ القفص أخيرًا في مكانه العُلوي تحت القوس مباشرة، وأمسكَ الفتى القُضبان بِيدين بضَّتَين[1] لا تزالان تنبضان بحياة أوَّل الشباب، ناظرًا في الوجوه تحته بوجه شاحب، وشفتين ترتجفان بشدة دون أن يصدر منه أيُّ صوت من استغاثة أو أنين وكأنه مستسلم لهذا المصير، أو ربَّما لأنه يعلمُ أنه مهما صرخ وبكى واستنجد فلن يحصل على شيء يُغير من نهايته المحتومة، فآثر الصمت على ذلك!

وابتدأ مشهد جديد لشعب ثيفا يشاهدون فيه شبح الموت يتغلغل في هذا الجسد الغضِّ الطريِّ[2] لحظةً بلحظة، كأنما هو جاثم أمامهم حقيقةً يعرفهم بمراحله في كل حي!

---

(١) بضتين: رقيقتين ناعمتين لصِغر السِّن.

(٢) الغض الطري: رقيق الجلد من حداثة السِّن.

بقيَ أركون ينظر في وجه الفتى وقتًا طويلًا بقلب باكٍ، وملامح تصيح ألـمًا وقهرًا لمنظره العاجز حتى فاضت عيناه، ثم رفع طرف كُمِّه يمسح دموعه، واستدار أخيرًا نحو السوق بخُطًا وئيدة كأنَّما يجرُّ قدمين مصابتين جرًّا ثقيلًا، وما إن وصل إلى محله حتى التقت عيناه بِعيني كاسكا؛ فقرأ الأخير ما يختلجُ قلب صديقه، جلس أركون أمام سِلاله بوعي غائب؛ وعي ما يزال قابعًا في الميدان متأملًا وجه الفتى المسكين بكل حواسِّه.

- أركون، أركون.. أركون هل تسمعني؟!

انتبه أخيرًا إلى الصوت، ونظر إلى صاحبه بعينين متسعتين كغافل بُوغت بهجوم شرس.

كاسكا:

أركون، أنت حقًّا لستَ على ما يرام!

أخفض أركون جفنيه، وأشاح وجهه بوهن بالغ وهو يقول:

وكيف أكونُ على ما يرام وقد رأيتُ ذلك الوجه الصغير يتلفت حوله بجزع مؤلم كأنَّما كان يرى الموت يحيط به من كل جانب!

كاسكا وهو يضع كفه على كتف أركون وبهمس امتلأ عطفًا:

لم يكن عليك الذهاب يا صديقي، لا أدري متى ستستمع إلى نصيحتي وتربأ بنفسكَ عن الذهاب إلى ميدان الظلم ذاك؛ ميدانٌ يتلذذ فيه الظلمة بتنويع عُقوباتهم الغاشمة أمام الشعب، ما الذي يدفعك للذهاب إليه؟! ها أنا ذا قد هجرته منذ زمن بعيد، ولا أفكر أبدًا في تغيير قناعتي هذه، ألا تنتهجُ نهجي لترتاح؟

فرماه أركون ببسمة ساخرة وهو يقول:

حقًّا؟ أرتاح؟ ولكن لماذا لا أرى الراحة في عينيكَ؟!

فاهتزَّ قلب كاسكا متفاجئًا حين أدرك ذكاء أركون وكأن له حاسة سادسة تقرأ ما يدورُ في الخلدان!

ثم ابتسم وهو يقول بعينين لا تُخفيان الإعجاب:

أنتَ مذهلٌ يا أركون، لك مع روحكَ الثائرة قلب ذكي!

أركون وقد التقط كلمة ثائرة دونما سواها:

ثائرة! إيه يا عزيزي، لو كان للناس أرواح تثور ضدَّ الظلم الذي لم يوجد مثله على وجه الأرض؛ لكان الوطن بخير، لكن للأسف؛ لقد ماتت أرواحنا منذُ اليوم الذي رضينا فيه بكاليجولا حاكمًا لنا بعد أن قَتل والده!

كاسكا وهو يشدُّ قبضة كفِّه على كتف أركون ويتبسم:

بل لا تزال هناك أرواح حية يا أركون، ومقتُ الظلم الذي نقرؤه في الأعين هو أول الدلائل على حياة تلك الأرواح.

فَفَرَّت من بين شفتي أركون تنهيدةُ يأسٍ قبل أن يرد بتهكم:

إذن هي حياةٌ عاجزة حتمًا تحتضر منذ أن ولدت!

ثم انشغل كلاهما بعمله، وفي أثناء مسير والد أركون إلى السوق ليلحق بابنه، علمَ من بعض أصحابه خبر الفتى المسجون في قفص المجرمين بالميدان، وكيف أن سنَّهُ الصغير لم يشفع له عند أولئك الطغاة حين أراد حماية والده الذي يعول بالإضافة إليه خمس من البنات مع والدتهم، وكيف أن العقاب شمل كل الأسرة بسبب مخالفة الفتى لأوامر الإمبراطور؛ فصُودرت أملاكُ والدهِ الزهيدة، وانتقلت مِلكيتها للدولة، وبِيعت أخواته الخمس في سوق العبيد، وأُخذ والداه إلى السجن؛

تمهيدًا لتفعيلِ عقوبتهما حرقًا على منصة الميدان بعد أيام أمام الناس وأمام عيني ولدهما إن ظَلت في عينيه بقيةٌ من حياة؛ فتفنى حينها كمدًا بالمنظر الأحمر المشتعل بوالديه.

فلم يصل والد أركون إلى دكانه إلا وهو متكدر الخاطر كسير الفؤاد، وما إن التقت عيناه بعيني ابنه حتى قرآ ما يختلجُ فؤاد كل منهما؛ فزاد كمدهما كمدًا، وذاب فؤادهما من مشاعر الذلِّ والهوان، ولم ينتهِ ذلك اليوم حتى علما بمُعظم المستجدات في إمبراطورية ثيفا من بعض أصحاب المحلات التي بجوارهما ومن بعض المشترين الذين يعرفونهما؛ فقد صدر قانون بقطع لسان من يتفوَّه بأي اعتراض على أحكام الإمبراطور ولو مرةً واحدة، وقطع أطراف من يتوانى في عمل أرضه؛ لأن مُعظم أرباحها للإمبراطور، ثم يُترك في العراء حتى يرحمه الموت! كما أن قانون أخذ الفتيات إلى قصر الحكم للعمل فيه دون شرط رِضى الأهل ودون مقابل لذلك؛ والذي فُرِض منذ ثمان سنوات قد أوشك أن يصل إلى كل بيت بعد أن مُنَّ به لكلِّ أهل البلاط من الوزراء والنبلاء دون حدود، فصار الإقبال عليه يتعدَّى الحاجة إلى البذخ والإجرام!

فقد استحدث كاليجولا هذا القانون حين اعتلى عرش الإمبراطورية بعد قتله لوالده، وكان العبيد في زمن والده هوميروس قد نالوا حظَّ العِتق الذي أمر به، فجاء كاليجولا على بلد لا عبيد فيه ولا إماء، ولأن كاليجولا لا يرى خدمًا أفضل من أبناء شعبه، استحدث قانون أخذ الشباب والفتيات من أبناء شعبه للعمل في قصره وأراضيه من الحراثة، والزراعة، وأعمال القصر من المطبخ، والتنظيف، وكل ما يُوكل عادةً إلى الخدم والخادمات، ففرض أخذ مجموعات كل سنة تعمل كل

واحدة منها خمس سنوات إن لم يصدر منهم ومن أهاليهم أي اعتراض؛ وللأبدِ إن صدر منهم ذلك! ولمَّا كان الشباب يهبُّ غاضبًا كلما نالت سياط رجال الإمبراطور من إحدى بنات وطنه تحت أي عذر أو قصور؛ كثرت الاشتباكات حينها، مخلفةً إصابات في رجال الإمبراطور وأهل الغنى، وقتلى دائمًا من أبناء الشعب، فضجر الإمبراطور من هذا الوضع الذي يعارض راحته، فاستبدل الشباب بالفتيات لأنهنَّ أدعى للسلام!

كما ناقشوا الأمر الأخير القاضي بتعزير كل تاجر يثبت عليه نقل أمواله لبلد مجاور؛ فيُصلب مدة شهر عند مدخل المدينة؛ ليراه جميع التجار الخارجين من البلاد لممارسة أنشطتهم والداخلين إليها، فيَرتدع كل من توسوس له نفسه بذلك، ناقشوا كل هذه الأخبار بدون كلمة واحدة تحوي اعتراضًا سوى ما كان همسًا خافتًا يستعصي سماعه على أكثر من أذن واحدة! فنشر الأوامر مسموحٌ به ليعلم من لم يعلم بها، لكن الويل أشد الويل لمن يُرفق مع ذلك كلمة تُصرح أو تُلمح إلى التذمر والسخط!

وبعد انتهاء هذا اليوم الثقيل، وحين بدأ الباعة بجمع أغراضهم، تسرَّب إليهم نبأٌ هامسٌ أنه يجري الانتهاء من دراسة قانون جديد في قصر الحكم، يقضي بأحقية الإمبراطور وأهل بلاطه في أخذ النساء المتزوجات ممن تصلح للعمل في قصورهم إن لم يكن لها أكثر من ثلاثة أولاد؛ حيثُ أن الأملاك اتَّسعت وتحتاج لأيدٍ عاملة أكثر من ذي قبل؛ فتعيش الأمُّ حينئذٍ سنوات طويلة من عمرها مقطوعة عن فلذات أكبادها؛ لأنه وقع الاختيار عليها، فإن وُجد أنَّها تعول أكثر من ثلاثة لم يشملها القانون رأفة من الإمبراطور بشعبه المخلص! فكان هذا الخبر قاصمةَ الظهر، ورأى

أركـون بعـده بحاسـته السادسـة مـا يعـتري النفـوس مـن خـلال الوجـوه، فـأدرك أنَّ الأجساد المتعبة من الأعمال الشاقة قد زاد هوانُها هوانًا بهذا الخبر كأنَّما قـد جفَّت الدماء التي بداخلها، أو كأنَّها قد شاخت أعوامًا وأعوامًا بهذا الخبر، وبطبيعة الحـال لا شـفاه تفصـح عمَّـا في النفـوس، فعـمَّ هـدوء مرعـب أرجـاء السـوق، بـل عـمَّ ثيفـا الثكلى كلها!

وصل أركون ووالده إلى المنزل؛ حيث والدته التي ما تزال تنتظر ما عادا به مـن ربـح بفـارغ الصـبر، ومـا إن سـمعت صـوت البـاب حتـى قفـزت مـن مقعـدها كأنَّمـا لُدغت من حيَّة، وأقبلت مسرعة نحوهما تلهثُ بتلهف:

هل بعتما السلال كلها؟ وكم ربحنا هذا اليوم؟

ثم التفتت نحو زوجها وهي تسأل ببسمةٍ عريضة متشوقة:

أخبرني هل أحضرت معك لحم حمام؟

لم يـرُدَّا عليهـا بشـيء، إلا أنَّ الإحبـاط والإشـفاق اللـذين طغيـا علـى وجهيهمـا أنبآها بالجواب؛ فانمحت ابتسامتها وتبدلت ملامحها، ثم سُرعان ما حاولت إخفاء ذلك فتبسَّمت من جديد ببسمة جافة لا حياة فيها وهي تقول:

لا بأس، سيكون غدًا أفضل، أثق بذلك، أما اليوم فلدينا ما يكفينا.

وذهبت تحضِّر خبزة يابسة بعد أن كسرتها لثلاث مع إناء صغير من الماء، حيث أصبح هذا غِذاءهم الوحيد منذ شهر!

وتناول كل واحد منهم كسرته، كان يغمرها في إنـاء المـاء لِتلـين، قبـل أن يقضـم منها قضمةً صغيرة يتعمد أن يتـأخر في مضـغِها قبـل أن يبتلِعَهـا ويبـدأ في الثانيـة؛ لأن ذلك أدعى للشبع!!

غير أن الأمَّ قد قرأت على وجه ابنها حزنًا مضاعفًا وحنقًا أكثر من أيِّ يومٍ مضى، لكنَّها آثرت الصمت لِئلا تُعكِّر جوَّهم الهادئ!

ولم تمضِ إلا برهة حتى وضع أركون كِسرته على الأرض وهو يقول:

شكرًا أمي، لقد شبعت.

الأمُّ بإشفاق:

أنتَ لم تأكل إلا لقمة واحدة، مالك يا بنيَّ، ما الذي يُشغلك؟

أركون وهو ينظر إلى أمه بعينين كسيرتين:

ألم تسمعي آخر الأخبار؟

الأمُّ:

كلا، فقد انهمكتُ في العمل اليوم ولم أخرج من المنزل، ما الذي سمِعْتُماه؟

أركون:

هذا الشعب المحظوظ قد نال مكرمة جديدة من الإمبراطور.

الأمُّ بتعجب:

الإمبراطور أكرم الشعب؟!!

ثم أشرق وجهها فرحًا وهي تقول:

هذا عظيم، ربما امتلأ قلبه بالرحمة علينا أخيرًا، أخبرني الخبر بسرعة فإنِّي أتحرق شوقًا له يا حبيبي.

تبسّم أركون بحنان وحزن وهو يقول:

وهل تعتقدين من رجل قتل والده وشرَّد أهله أن تنال الرحمة من قلبه!!

فاستحالت ابتسامة والدته إلى إحباط واضح، أطرقت عينيها وهي تقول بنبرة دامعة:

وما الضَّيْر إن حلم شعب ثيفا بالرحمة، أليس هذا من حقه؟! أليس هذا الشعب من بني الإنسان؟! فما الضَّيْر إن تمنى يومًا عيشة الجنس الذي ينتمي إليه!

لم يرد أركون أو والده عليها بشيء، بل عادَ الصمت إليهما كأنَّهما يغرقان من جديد في ظلمات الأنباء المتوحشة، فرفعت الأمُّ ما بقي من العشاء وذهبت عنهما، وبعد لحظات الصمت القاتلة، رفع الأب نظره نحو أركون، وتصنَّع ابتسامة زائفة وهو يقول:

غدًا سنحاول بيع كلِّ السلال وسنشتري لحم الحمام، ألا يدعو ذلك إلى انتظار الغد بلهفة يا أركون!

ثم أطلق ضحكة خفيفة أكثر زيفًا.

فنظر أركون إلى والده وهو يقول:

الغد الذي تزعم أنَّكَ تنتظره يا أبي، هو عند أهل ثيفا وحشٌ قادم فارج بين فكيه يحرق بالنيران كلَّ ذي زوجةٍ ذاتِ يدين عاملتين؛ فيُصلِيهم جميعًا نارهُ الموقدة! من هذه الليلة وصاعدًا يا أبي لن تجد من ينتظر غده إلا مجنونًا أو أحدًا من أهل القصور..

ثم أكمل بنبرةٍ ساخرة لا تخفي حُرقة:

على كلٍّ فشعب ثيفا شعبٌ مدلل كثير الشكوى؛ فلو كنتُ أحد هؤلاء النسوة لقطعتُ إحدى يديَّ أو قدميَّ؛ وحينئذٍ لا أصلحُ للعمل، وسينتهي الأمر - ثم وهو ينظر إلى والده - أليس الأمر سهلًا؟!

فأشاح الوالد وجهه الآسي ولم يرد بشيء، ومضت دقائق من الصمت المؤلم الثقيل، ثم أرخى الوالد سمعه لولده الذي كان يُتمتم لنفسه بغضب وهو يحدِّق في الأرض:

ما حياة الـذلِّ والهـوان هـذه؟! متـى سـيفيق المـوتى الـذين يتحركـون في أجسـاد يكاد يُفنيها الإنهاك؟ متى سيفهمون أن الحرية إن لم تُقدَّم لك على طبق من ذهب فليس لك إلا أن تنتزعها انتزاعًا أو تموت كريمًا دونها؟!!

فارتعب قلب والده لذلك وارتعدت أوصاله، وأخذه همٌّ ثقيل أن يخرج غضب الفتى عن طوره في أيِّ يوم فيفقده إلى الأبد!

فقال مُلاطفًا ابنه لافًّا من يتسخط عليهم بأوشحة الأعذار:

بل هم أحرار يا ولدي ورجال عظماء، ولكنَّ الظلم الغاشِـم الـذي لـم يسـبق لـه مثيل قد غلبهم ونال منهم، فمن ذا الذي يجرؤ على عِتابهم ولومِهم؟!

فلانت ملامح أركون بابتسامة كأنَّه فهِم مغزى والده ثم قال:

لو أن الحُرَّ يا أبي وقف أمام طُغيانهم كالشجرة شامخًا لم يُستعبد، وإن حاولوا اجتثاثه فلن يسقط إلا مستقيمًا! لكنَّهم أحْنَوا لهم ظُهورهم فاعتلوهم ليستبدَّ الظلمُ بعدها في كلِّ قُطْرٍ وكلِّ بيت.

ثم نهض ومضى خطوتين قبل أن يُدير وجهه نحو والده مجددًا وهو يُحاول طمأنة قلبه الفزِع:

لا داعيَ للقلق يا أبي، فلن أدعكَ وأمِّي تذوقانِ الحسرة أبدًا.

ومن حيث لا يدري كيف؛ شعر الوالد بشيء من السكينة تجتاحه، وأخذَ يُتابع ولده بعينيه إلى أن اضْطَجع في فراشه أمامه، وإحساس غريب يلفه، يُخبره أنَّ للأيام مع ولده شأنًا آخر!

أما أركون، فقد وجَّه وجهه قِبَل الجدار مُخفيًا آلامه التي هجمت عليه حين زارته ملامِح خطيبته المأسورة في قصر الحكم بالقوة والجبروت، وأخذ الدمع

يترقرق في عينيه، ثم انسكب حارًّا مُحرقًا ما يمرُّ به إلى أن أغرق وِسادته، ومضى الليل وهو يُعيد تذكر ملامحها مرة بعد مرة كأنَّه يجد في ذلك أُنسًا بها، فَهُم وإن سرقوا الجسد لن يستطيعوا سرقة الطَّيف! وككلِّ ليلة لم يزره النوم إلا دقائق متقطعة مُحملًا بكوابيس بشعة لمخطوبته؛ فينهض فزعًا يلهثُ باسمها، وحين يدرك أنَّها ليست إلا كوابيس يُهدِّئ نفسه شيئًا قليلًا، ثم لا يلبثُ أن يعود مُضطجعًا نحو الجدار يكتمُ نحيبًا موجعًا يأخذه كل ليلة، ولا يبقى من أثره إلا اهتزازًا واضحًا لجسده؛ فيعلم حينها أبواه أنه يبكيها مجددًا ولا يستطيعان لمواساته سبيلًا!

وفي اليوم التالي، وحين أقبل أركون على محله في السوق، استقبله كاسكا بابتسامة غامضة تنكَّرَ لها أركون، إلا أنه لم يُفصِح، وحين بدأت حرارة الشمس بالارتفاع، وقلَّ الناس في السوق، التفتَ كاسكا لجاره وهو يقول:

كيفَ كانت ليلتكم؟

فرمقهُ أركون بنظرةٍ باردة وهو يقول:

كليلةِ أيِّ ثيفي!

فضحكَ كاسكا بخفة، ثم قال:

واضحٌ هذا من جوابكَ المُقتضب، لا عليكَ يا صديقي، فلستَ الوحيد الذي بات ليلته ناقمًا على الأحكام الظالمة.

وسَّع أركون عينيه دهشةً، وتلفتَ سريعًا حوله، ثم وجَّه خطابه إلى كاسكا:

هل ثمِلتَ هذا الصباح؟! أراك تهذي على غير عادتكَ الحذرة!

ثم أكمل مُتهكمًا: أم أنك سئمت الحياة فأصبحتَ وعلى رقبتك عهدٌ أن تودِي بنفسك إلى المنصة وتحت أيَّة عقوبةٍ تحظى بها!

ارتفعت ضِحكةُ كاسكا وهو يُجيب:

وهل ترى من أحد حولنا؟! خبرُ البارحة قد أقعد الناس في بيوتهم من شدَّة الغمِّ، ومن خرج للتسوق مرغمًا سارع بالعودة إلى منزله قبل حرِّ الظهيرة.

أركون بأسى:

شعبٌ مسكين، كأنَّما كُتب عليه أن يعيش تعيسًا.

كاسكا:

غيرُ صحيح، لو كانت لديهم الإرادة ما كان حالهم هكذا، فلا أحد يستطيع أن يسلب إرادتك إلا إذا سمحت له!

انفرجت شفتا أركون بابتسامةٍ لا تُخفي إعجابًا:

حقًّا أنت تهذي اليوم، وإن كان في هذيانك هذا شيء من الحكمة!

بادله كاسكا رسمة الشفتين، وصمتَ لحظة يتأمله بنظرات غريبة، ثم سأله بصوت خافت:

ألا تحلم بالحرية يا أركون؟

أشاح أركون بوجهه للأمام وقد ارتفعت من صدره زفرة ألم عميقة، ثم أجاب:

بلى.. أحلم بها كما يحلم بها كل ثيفي، ولكن ما فائدة الأحلام؟! إنما هي عالم العاجزين، يجدون فيه ما لا يجرؤون على طلبه في واقعهم.

كاسكا:

الأحلام هي الأمنيات، ومن تمنى أن يكون حُرًّا فقد دخل الحرية من أوسع أبوابها.

رماه أركون بنظرة ساخرة وهو يقول:

إذن فأنا قد أوشكت أن أصل إلى نهايتها حتمًا؛ لأني ما زلت أُمنِّي بها نفسي كل ليلة ومنذ زمن طويل. ألا ترى ذلك عرَّافنا العليم!

لم يتمالك كاسكا نفسه فضحك طويلًا، ثم اقترب من صاحبه الشاب، وهمس له وهو ينظر في عينيه نظرة جادة:

أركون، اِعلم أني أعرفك جيدًا فليست صداقتي لك بالحديثة، إني أعرفك منذ سنوات، وأنت مختلف عن البقية، أنت تملك روحًا لا ترضى الهوان، ونفسًا طموحة، ترى في الألم أملًا، وخلف التعاسة نورًا، ألستَ ما تفتأ تخبرني بأن الظلم يعقبه العدل والجوع يتلوه الشبع؟ ألست تكرر ذلك على مسمعي دائمًا؟

ابتلع أركون ريقه وهو ينظر بتعجب وحذر في عيني صديقه الذي يحدثه بهذه الجدية لأول مرة، ثم أجاب:

بلى!

هزَّ كاسكا رأسه مؤكدًا، وقال بهمس عميق:

ولذلك اخترتك، إني على ثقة بك فلا تخيب ظني، وإن كنتُ لا أشك قيد ذرة أنك ستبلغ بنا المجد يا روح الشباب.

وعاد يتبسم بغرابة!

أركون بتوجس:

لم أفهم من كلامك شيئًا، أفصح يا عرَّاف.

ضحك كاسكا كأن لم يضحك من قبل، ثم قرب وجهه من أركون وأمعن إسرارًا:

تعال معي الليلة وستعرف كل شيء!!

لم يجد أركون بُدًّا من تلبية فضوله ورغبته في معرفة ما وراء كاسكا رغم توجسه منه، فما إن حلَّ الليل حتى استأذن والديه لأمر طارئ على أن يعود إليهما

أول ما ينتهي، ومضى مع كاسكا لا يعلم إلى أين! سوى أن الذي يذهب معه صديقه وصديق والده في المهنة منذ سنوات، كان طريقهما صمتًا لم يتكلم أحدهما مع الثاني، شعر أركون فيه بشيء من الارتباك والخوف والحذر في عيني صديقه وهو يتلفتُ حولهما بين فترة وأخرى! ثم ترك الطريق العام وأخذه إلى طريق آخر لم يعهده أركون في تنقلاته في العاصمة، وبدأت معالمه تتضح لأركون بعد مسافة عدة أمتار؛ حيث لاحظ دخوله في أحياء لا ينتمي إليها أحدهما، ثم عرج به أخيرًا إلى طريق مظلم لا صوت فيه لشيء كأنه قطعة من أحد القبور! فتوقف أركون على الفور، وما إن التفت إليه صاحبه متسائلًا عن سبب توقفه حتى بادره أركون بحاجبين معقودين وعينين مرتابتين:

إلى أين يا كاسكا؟

تبسّم كاسكا وقد قرأ ما يدور بخلد أركون اللحظة، فأجاب مُلاطفًا ومُطمئنًا:

لا تخف، لن يسوءك شيء وأنت معي، فقط اتبعني بهدوء وستعلم كل شيء قريبًا.

شعر أركون بإحساس يؤنبه على ظلم صديقه القديم، وإحساس آخر يحضُّه على الرجوع فما عاد الزمن آمنا، وشعر أن عِراكًا يتَّقد داخله بين هذا الإحساس وذاك وهو يقف بينهما تلفُّه الحيرة وبعض الخوف الذي أخذ يدُبُّ في داخله، وأخيرًا أغمض عينيه بقوة كأنه يحول بينهما؛ ليختار أحدهما على الآخر، ثم فتح عينيه وقد سكن وهو يقول لصاحبه:

فلنمضِ إذن.

أومأ كاسكا موافقًا، ثم مضى به ليتغلغلا بعد لحظات في بيت كبير مهجور، بدا لأركون أن لا ساكن فيه سوى الظلام والأشباح!

الفصل السادس
الحقيقةُ الصادمة

بدأت أول أنوار الصباح تنبثق في أفق السماء، معلنةً عن يوم جديد من أيام السعادة؛ ليطير إيتوس فيها مُحلقًا نحو محبوبته، لا تسعه الدنيا فرحًا بها، ولا تزيده طول المدة بينهما إلا وجدًا وتعلقًا، فبكَّر كعادته، وخرج من غرفته بلباسه الأميري؛ حيث أن اللباس العامِّي يتركه مع هادريان حين عودته من (تلِّ الألوان) كما تسميه استيلا، ولا يأخذه منه إلا في اليوم التالي حين يستعد للقائها مجددًا.

كان يُسارع خطواته حتى انتهى إلى بوابة القصر؛ حيث جواده الأبيض ذو العنق الطويل، والمتن العليّ، والجذع الناعم، كأن فضة مطلية على جسده من شدة لمعانه؛ يقف أمامه مع مربيه، فانبلجت أسارير وجه إيتوس حين رآه إذ كان يحبه كثيرًا، أقبل إليه يمسح جسده، ويلاعب وجهه، والجواد يُحمحم له أنسًا به، فلما همَّ بركوبه لمح من بعيد آلي التي التقاها قبل عدة أشهر تطلب خدمته، فشعر برغبة في لقائها فغيَّر مساره، وأطلق خطواتٍ وئيدة نحوها؛ ليفاجئها، وهو يحدث نفسه بشكرها عميقًا على حسنِ خدمتها التي ما زال يراها في آثار ترتيباتها، وإشرافها على خدمةٍ ترضيه دون أن تسمح له برؤيتها.

ولما أن صار قريبًا منها انتبه لشرودها التام، وهي تنظر إلى الأعلى؛ حيث أول خيوط الشمس تخبر عن خروج سيدة السماء من مخدعها الشرقي بعد لحظات،

ورغم ضعف النور، إلا أنه رأى بريقًا يلمع بين جفنيها، ثم تحدر دمعًا على وجنتيها، لم ترفع يدها لتمسحه، أو ربما لم تدرك أنها كانت تبكي!

بقيت ساكنة لا يتحرك منها شيء سوى انفراجة بدت بين شفتيها وانغلقت في تتابع كأنها تخاطب تلك السماء!

فانقبض قلبه لمنظرها، واستقرَّت في حلقه غصة لا يعرف سببها، أهو حال من لا يدري إن كان سبب بكائها شيئًا يستحق البكاء أو دلال فتيات لا أكثر، أم أنه الشعور الذي يراوده تجاه خادمات قصره الصغيرات كلما رأى وجوههن!

فعاد أدراجه بهدوء كما أتى، حتى استقرَّ عند فرسه الأبيض، وانطلق به مع حرسه نحو تلِّ الألوان.

وما إن التقى بفتاته حتى انغمس في ينبوع حُبِّها، ونسي أمر آلي، وإن كان من خاطرٍ يشغله فهو خاطر احتلَّ كل تفكيره منذ مدة ليست بالقصيرة، حتى استفحل فيه همًّا يرجو انفراجه، وبينما هو يُخلل أصابعه بين غُصينات الحشائش الخضراء تحته، هاجمه ذلك الهمُّ من جديد، يتمنى أن يجد له حلًّا يجعل عالم أحلامه واقعًا حقيقيًا يعيش هناءه إلى الأبد، لكن كيف ذلك؟ كيف تتحقق أحلامه وبينهما ما بين السماء والأرض!

فهو ابن الإمبراطور وولي عهد البلاد، وملاكه ليست إلا من عامة الشعب البسطاء!

كيف السبيل لملكها والسعادة بوصالها؟ وما الحل الذي يمكن أن يحيل أحلامه الوردية واقعًا؟

إن زواجه منها بصفته ابن الملك وهي ريفية بسيطة، من المستحيلات التي لا يقدر حتى على تمنية نفسه بها، فوالده وإن كان يحبه حبًّا جمًّا لكنه صعب

الـمِراس، يتمسك بمبادئه حد العبودية والتقديس، والتفكير في إقناعه ضربٌ من اللهو والعبث!

وإن فكر بزواجه منها بشكل سري عن والده وحاشيته، فإن ذلك أمر لم يستطع تقبله؛ إذ بأي صفة يطلب يدها من والديها؟ وتحت أي مسمى؟ بحار مغترب من البلاد الخضراء، ولا يُعرف عنه أكثر من ذلك! ثم ماذا إن كان حظه رائعًا فوافق والدها على هذا الارتباط دون حرج، ثم كُشف أمره لوالده ولو بعد زمن، إنه يؤمن أنه لو لم يعلم والده بأمره إلا وقد صار عنده عشرة من الأحفاد من إيتوس فلن يغير من الأمر شيء، وحتمًا سيحكم بالتفريق بينهما، إذن فما الحل؟!

وبينما هو غارق في محيط أفكاره ذي الأمواج العاتية التي ترتطم بروحه بين الفكرة والأخرى بكل قوتها، مُخلفة وراءها حُطامًا مُحبطًا لتلك الروح العاشقة، أطلق تنهيدةً عميقة قبل أن يسترق نظرة نحو القابعة بجانبه، المنهمكة في عمل عقد جديد لوالدته التي زعم أنها أحبت عقدها الأخير حين عاد به إلى البيت، قد ارتسمت بين شفتيها ابتسامة عذبة حلَّت بين وردتين حمراوين على وجنتيها، كانت تتخيل كلمات الثناء من والدته حين ترى العقد، فاصطبغ وجهها بخجل طفولي فجأة كأنها غير قادرة على تحمل تلك الكلمات الحلوة المنهمرة عليها من والدته الطيبة، وبينما هو يتأملها بفكره المشغول بهمِّه الثقيل، تبسّم لا إراديًا لما رأى ثغرها المتلألئ، وقرأ أفكارها الكامنة وراء ذلك، بقيَ على تأمله هذا زمنًا وهي لا تحس به، يتمعن قسماتها الحسناء مرة، ويسرح بين أناملها الجميلة التي تصنع العقد بمهارة مرة أخرى، يذكر كيف ذاب قلبه من أول يوم رآها فيه، حين جذبه إليها عزفها؛ ليسحره بحسنها موقعًا به في شباكها متيمًا بهواها من حينها إلى هذه اللحظة،

كان لا يراها إلا سارقة، سارقة من نوع آخر، من نوع لذيذ يفرح المجني عليه بما سُرق منه! يمتزج فيه عذابه بحلاوة فتطغى عليه، يختلط فيه أنينه بسعادة وفرح فيغلباه، ويقضُّ مضجعه تفكيره بفتاته فيتعذب عذابًا يستطيبه ويأنس به!

أخذ يسأل نفسه بقلبٍ حائر خفاق:

أهذا ما يسمونه بالحب؟!

كان يُسائلها دون صوت، سوى صوت بداخله أخذ يتردد بين جنبات روحه، حتى استقر أخيرًا في المكان الذي كان ينبغي أن يكون فيه قلب، لكنه قد سُرِق منذ زمن، والسارقة تجلس بالقرب منه الآن، وهو لا يستطيع أن يطالبها بحقه، أو ربما لا يجد مبررًا لأن يطلبه منها فيفقد الحياة السعيدة التي غُمس بداخلها منذ اللحظة التي سُرق فيها!

ثم يعود ويسأل نفسه؛ أنه رغم كل ذلك لا يزال يشعر بامتلاء منتعش في ذلك الجوف الذي كان ينبغي أن يكون خاليًا بعد سرقتها أعز ما فيه، إلا أنه لا خواء ولا فراغ! وكأنما قد نبتت مكانه أزهار ورياحين بهية لا يشبهها أزهار في الدنيا ولا رياحين، مُكونة ربيعًا مُبهجًا لا يُخلق إلا في أفئدة العاشقين.

انفرجت شفتاه أخيرًا هامسًا لها:

أتمنى حقًّا لو أخطفك!

رمته بنظرة مستغربة مستنكرة، فهمها مباشرة فاستدرك متعجبًا:

يبدو أنكِ أسأتِ الفهم! أتمنى خطفك لأهرب بك بعيدًا؛ حيث عالم لا يعيش فيه غيرنا، فنخلد فيه معًا وإلى الأبد.

تحول وجهها المستنكر إلى بسمة متندمة وهي تقول:

هكذا إذن، سامحني إن عبستُ في وجهك، فلم أعرف كلمة خطف إلا من قرار الإمبراطور الجائر.

ثم هزت كتفيها بتهكم وأكملت:

على أني الآن أحببتها ما دامت ستبعدني عن بلاده إلى بلادكم الخضراء؛ حيث العدل والأمان.. فننعم بالعيش معًا.

ثم أدركت جرأتها التي لم تعلم كيف خرجت منها فغطت فمها، واحمر وجهها تضحك بحرج.

- الإمبراطور الجائر؟!

قالها بعينين متسعتين استغرابًا، كأنه لم ينتبه لآخر كلماتها التي كانت من المفترض أن تُحلق به فرحًا!

تأملته قليلًا، ثم قالت:

أووه تذكرت، فأنت لست إلا مغتربًا لحاجة في بلادنا ثم تعود مع والدتك، لذلك تخفى عليك الكثير من الأمور.

ثم انخفض صوتها وهو يتزايد حدة وحنقًا:

نعم حاكمنا جائر ظالم يا إيتوس، إنه قاسِ القلب، بل إني أُوقن أن قلبه قد خُلق في عمق نارٍ مظلمة مستعرة قبل أن يُوضع في جسده! أؤمن بذلك.

إيتوس:

ولمَ ذاك؟ أظن أنكِ تظلمينه فهو محب لشعبه!

رمقته بنظرة ازدراء وغضب لأول مرة ولم ترد بشيء، بل وجهت عينيها إلى الأمام لتصرفها عنه.

داهمته حيرةٌ من تصرفها، فسأل:

لم غضبتِ مني؟

استيلا بصوت متهدج:

لأنكَ تهرف بما لا تعرف! إنه لا يستحق ما وصفته به أبدًا، إنه شرير رخيص عديم المروءة والرحمة.

ازْدَرَدَ إيتوس ريقه، وصمت برهة يرقب التغير الذي اعتراها، ثم عاد سائلًا:

هل لي أن أعرف ما قصدتِ بقرار الخطف من الإمبراطور؟

أطلقت تنهيدة دامعةً قبل أن تجيب:

قصدتُ الأمر الذي صدر منه منذ ثماني سنوات وما زال يُعمل به إلى الآن، وهو أن يتم أخذ مجموعة من فتيات البلاد كل سنة إلى القصر؛ ليختار صاحبه ما يطيب له منهنَّ، قد يختار عشرة أو عشرين، وتعود الباقيات إلى أهاليهنَّ يبكين من الفرحة، وقد يأخذهنَّ كلهنَّ وإن بلغنَ المئات على حسب مزاجه والوحشية التي تملأ قلبه وقتها؛ فيبكين جميعهنَّ حسرة وألـمًا وقد أُبعدنَ عن أهاليهنَّ قسوةً وتجبرًا، فيعشنَ خادمات له ولولده المدلل كلٌّ بما وُكل لها من عمل حتى تنقضي سنواتها الخمس!

ثم رمقته بحنقٍ وعيناها تفيضان بالدموع:

أتعلم أن كل هذا يتم دون رضى ودون مقابل؟! ومن تبدي اعتراضًا أو يبديه أحدٌ من قرابتها يُقتل وتؤخذ هي للأبد؛ لتقضي زهرة عمرها تقوم بالأعمال الشاقة التي لا يطيقها أقوى الرجال حتى تموت! هذه الوحشية يا إيتوس يسميها حاشيته الذين يوكلون بها بواجب الوطن وواجب الإمبراطور المقدس! ولا يأبهون لبكاء

الفتيات واستغاثتهنَّ وأمهاتهنَّ، إن أبشع منظر يعمُّ ثيفا كل عام هو هذا المنظر الذي يُدمي أفئدة الشعب المسكين ثم لا يستطيع أحد رده أو حتى إنكاره!

طغى على وجه إيتوس ذهولٌ وصدمةٌ فهتف بانفعال:

هذا كذبٌ، هذا افتراء، لا يوجد أخلص من إمبراطور ثيفا لشعبه، ولكن لأنك لا تنزلين المدينة، وتخاف أمك عليك الاختلاط بالناس؛ فتختلق عليك هذه الأساطير الوحشية؛ ليزداد حرصك على البقاء هنا ولا تفكرين بالنزول إلى المدينة أبدًا، وما ساعد والدتك على إيهامك بكلّ هذه الخرافات هو وحدتك التي تعيشينها فلا سبيل لأن تتحققي منها.

مسحت استيلا دموعها بطرف كمها، ثم بنبرة حزينة ونظرة مشفقة:

أتمنى أنها لم تكن إلا أساطير وخرافات من صنع خيال أمي، لكن، لكن يا إيتوس، هي حقائق تحدث في البلاد بداية كل عام، وتستطيع التأكد من ذلك حين تنزل المدينة وتجوب شوارعها في ذلك اليوم، فترى العجب والأسى القاتل الذي يجوب بيوت أهلها ممن كُتب اسم ابنتهم في سجل المختارات لخدمة الإمبراطور وولي عهده.

كزَّ إيتوس على أسنانه ثم صرخ بغضب:

إذن أنتِ مصرّةٌ على تصديق هذه الأكاذيب الحاقدة يا استيلا! ما حسبتك بلهاء إلى هذه الدرجة لتنطلي عليك كل فِرية! أخبريني إذن أين الناس؟ أين رجال ثيفا وشجعانها؟ صدقيني يا استيلا لو كان كلامك حقًّا لثار الناس ضد الظلم والاستعباد الذي تدعينه، لقد أثبتِّ لي اليوم أنكِ لست إلا غبية ساذجة!

علت نبرة الفتاة وقد اختلط احمرار وجهها الغاضب بدموع الحزن المنهمرة مجددًا على وجنتيها:

لستُ غبية، ولم أفقد عقلي بعد لتنطلي عليَّ الأكاذيب يا إيتوس، إنها الحقيقة، الحقيقة، إن في ثيفا رجالًا وشجعانًا منعهم من الثأر القرارات الغاشمة التي تقضي بأن يُعدم كل من له صلة بمعارض على حقوق الإمبراطور! فيؤخذون إلى منصة الميدان شبابًا وأطفالًا ونساء؛ ليعدموا بطرقٍ مرعبة فلا يشفع لهم ضعفهم أو براءتهم، أخبرني من هذا الذي سيضحي بوالديه وإخوانه وأبنائه لقاء محاولته الاستنكار؟ إنَّ ثيفا تبكي يا إيتوس منذ أن قتل كاليجولا والده هوميروس ليحلَّ حاكمًا عليها من بعده.

جفلت عينا إيتوس واصفرَّ وجهه، شعر أن أطرافه ترتعش، ونبضات قلبه تضعف، وأخذت شفتاه ترتجفان وهو يحدق بوجه استيلا الذي بدا عليه الجدُّ وقد غرق في دموعها، ولشهقاتها المتتابعة صوت مسموع في أذنيه، فلم يستطع قول شيء، إنما نهض عنها بضعف، واستدار بجسدٍ يسري فيه الهوان ماضيًا إلى مكان حرسه متُرنحًا في مشيته، ينظر إلى الطريق أمامه بعينيه دون عقله، فعينا عقله كانت تنظران تلك اللحظة إلى وجه آلي الباكي هذا الصباح.

❊ ❊ ❊

لاحظ هادريان شحوب وجه سيده وشتات عقله منذ أن خرج لهم من بين الأشجار حتى وصلوا إلى القصر، لا يعلم ما الذي حدث له ليكون على غير عادته بعد كل لقاء بفتاته! هذا غير أن يومهما قد انتهى باكرًا!

دخل هادريان إلى غرفته، ورمى نفسه فوق سريره، ووجه إيتوس الذابل ما يزال عالقًا أمام عينيه، يتمنى معرفة ما حدث له ولكن لا يدري لمَ أُلجم لسانه فلم يسأله عن سبب هذا التغير وهو أقرب حاشيته إليه!

كان إيتوس حينها يجلس على أحد كرسيَّي المنضدة المستديرة في غرفته الملكية الواسعة، واضعًا يديه فوق المنضدة، وقد أرخى رأسه كالمتعب، وإذ ببابه يُطرق، رفع إيتوس رأسه وهتف:

تفضل.

دخلت آلي وأحنت رأسها تُحيِّيه:

طاب مساؤك مولاي، هل استدعيتني؟

لم يخفَ على إيتوس الارتباك الذي يلفُّها، فقد كانت تشعر بالخوف الشديد لدعوة سيدها لها؛ إذ اقتصر عملها منذ أول يوم كُلفت فيه بخدمة ولي عهد البلاد وبعد حادثة بهو السباحة بالقيام بشؤونه والإشراف على خدمته بعيدًا عنه، والآن يطلبها ليقابلها وجهًا لوجه وفي غرفته!

استوى واقفًا وهو يقول:

أغلقي الباب واقتربي.

ملأ فؤادها اضطراب فظيع اهتزَّ له قلبها، غير أنها امتثلت لأمره، وفي غضون ثوانٍ صارت أمامه، همس بنبرة عطوفة:

آلي..

رفعت وجهها إليه، فقرأ المشاعر التي قرأها خلف عينيها ذلك اليوم، لكنها تبدَّت له بوضوح هذه المرة؛ بل كأنها ازدادت! فاعتُصِر قلبه ألـمًا، أشاح بوجهه

ناحية اليمين، وتنهَّد، لاحظت هي ما يعتريه واستغربت، لكنها أطرقت وجهها إلى الأرض بصمت.

عضَّ شفته السفلى وتحامل على ألمه، ثم أعاد وجهه ناحيتها وسأل:

كيف جئتِ للعمل هنا؟

ضمَّت يديها، وأجابت وهي ما تزال مطرقة الرأس:

تقدمت بطلبٍ للعمل هنا، وكان حظي السعيد أن قُبلت للشرف بخدمة جلالتكم.

لم يقتنع بردها، أو بالأصح أخبرته نبرة صوتها وطريقة كلامها بما يخالف ذلك! صمت عدة لحظات، ثم قال:

سأعيد سؤالي، ولا أريد أن أسمع إلا جوابًا صادقًا هذه المرة.

رفعت عينيها نحوه بدهشة، لم يمهلها لقراءة تعابير وجهه الذي حاولَ أن يبدو خاليًا من أي تعابير، وسألها:

كيف جئتِ للعمل هنا؟

آلي وهي تتبسم بزيف:

قلت لك يا مولاي، تقدمتُ بطلب للعمل هنا وتم قبـ...

قاطعها صارخًا:

آلي!

شدَّت ضمة يديها، وأغمضت عينيها بقوة كأنها تحاول تفادي غضبه.

إيتوس بنبرة حادة وهو يهز سبابته تجاه وجهها متوعدًا:

ستندمين إن أصريتِ على الكذب أكثر من ذلك، لستُ أبلهًا ليخفى علىَّ خداعك! أجيبيني بالحقيقة يا آلي.

انتفض قلبها وهي تلحظ أوداجه التي انتفخت من غضبه ووجهه الممتقع احمرارًا، فرفعت يديها إلى صدرها متوسلة، وعيناها تنذران بالهطول، وصوتها المرتجف بشدة قد عرَّى عنها تماسكها؛ ليتضح فزعها الشديد من وعيده وهي تقول باكية:

مـ مـ مولاي ولي عهد البلاد، الرحمة لي، الرحمة لي ولأهلي، أتوسل إليك، ألا يحل علينا غضبك.

ثم انخرطت في البكاء دون أن تغلق عينيها المتسعتين خوفًا.

لما رآها بهذا الوضع تملكته شفقة كبيرة عليها، وتندَّم على قسوته معها، فأحاط كتفيها بيديه، وهمس لها باسمًا بنبرته الحانية:

أووه لا تخافي، فلن تبأسي، أنتِ وأهلكِ جميعًا في أمان صدقيني، أنا ما استدعيتك لأغضب عليك أو لأعاقبك، إنما استدعيتك لأصل إلى الجواب، إني حائر يا آلي فأنقذيني وامنحيني صدق جوابك،

ثم انكسر حاجباه، وبدا الحزن جليًا على وجهه وهو يقول:

هل أُخذت من أهلك بالقوة؟ وهل أنتِ مكلفة بالعمل هنا دون حقوق ولخمس سنوات تُقطعين فيها عن أهلك؟

وإن كان بعض الهدوء قد احتوى بكاء آلي بعد شعورها بعطفه العميق فاستحال لبكاء خافت، إلا أن دموعها ازدادت انهمارًا وهي تنظر في عيني مولاها بصمت، كانت تتمعن تقاسيم وجهه المتألمة! ربما تشعر الآن بصدق حدسها حين رأت في إيتوس أول يوم التقته فيه شيئًا لا يوجد في أحد من أهل البلاط؛ فضلًا عن والده، فرأت وراء قسوته التي أظهرها لهنَّ ذلك اليوم ورفض خدمتهنَّ قلبًا ساميًا

رحيمًا، هي الآن تحس أن حدسها كان صادقًا، فغمرها في عزِّ خوفها هذا شيءٌ من أمان.

إيتوس مُكررًا لـمَّا استمرَّ صمتها:

أرجوك يا آلـي، أجيبيني بصدق ولك الأمان ما حييت، هذا وعد مني، هل أُخذت من أهلك بالقوة؟

بقيت برهة على صمتها، ثم هزت رأسها موافقة.

شعر بطعنة تخترق صدره، إلا أنه أكمل وهو يُحاول التماسك:

وهل.. وهل أنتِ مكلفة بالعمل هنا، دون حقوق، ومحرومة من والديك؟

فهزت رأسها ثانية بنعم، ثم أدركت أنها الآن خائنة للعهد الذي قطعنه للإمبراطور ألا يُخبرن أو يُلمحن لولي العهد عن هذه الأمور، وشعرت أنه قد أُحيق بها وبأهلها؛ فسقطت جاثية على الأرض أمام قدميه تبكي بجزع.

كان إيتوس حينها يشعر بالانهيار تمامًا، وأن الطعنة التي وُجهت لصدره قد تبعتها ألف طعنة أخرى، أحاط رأسه بيديه وأخذ يضغطه بقوة وهو يرى الأرض من تحته تلتف بسرعة، ترنَّح في مكانه مرتين، ثم انتبه لآلي التي لم تكن أحسن منه حالًا، فأخذته رحمة بها، أظهر بعض التماسك وهو ينخفض ليجلس أمامها، سألها ووجهه يتصنع التبسم:

لمَ البكاء يا آلي؟ لقد وعدتك ألا أخبر بك أحدًا أبدًا، وألا تصل لك ولأهلك يدٌ باطشة، اهدئي الآن يا عزيزتي واذهبي إلى غرفتك قريرة العين.

ثم مسح دموعها، وأخذها بيديها ليساعدها على الوقوف، ثم مرر يده على رأسها بخفة وهو يهمس مؤكدًا:

هذا وعد، هذا وعد..

فتبسمت بغير شعور؛ حين رأت اللطفَ الشديد في وجهه الجميل وهو يردد عليها كلمات الأمان التي سرت في جسدها كله مُخلفة شعورًا يُشبه شعور من أُنقذ بعد أن أوشك على الهلاك!

فتمتمت بالشكر، وامتثلت لأمره، وما إن أغلقت الباب خلفها حتى انهار جسده على الكرسي من جديد، يشعر بضيق شديد في صدره مُخلفًا اختناقًا رهيبًا يكاد يفتك به، ضمَّ يديه مُسندًا فمه عليهما، وأسبل جفنيه، وحاجباه من فوقهما يتراقصان ألمًا وانكسارًا، ظلَّ على وضعه يطلق التنهيدة تلو الأخرى، وقد امتلأت كل واحدة منها بمشاعر لا تطاق من الأسى والصدمة التي لم يتوقعها يومًا من الزمان، وفجأة؛ فتح عينيه بقوة كأنما استذكر شيئًا، وانعقدَ حاجباه، وعلا جبينه لفحةٌ من الغضب فتمعَّر، ثم قفز من مكانه ليطلب هادريان إليه حالًا.

كانت آلي حينها قد استقرَّت في غرفتها، ذهبت نحو النافذة بعقل شارد، تتقاذفها الخواطر أقصى اليمين وأقصى الشمال، تشعر مرة بالفرح أن للحاكم الطاغي ابنًا رقيق القلب مرهف الإحساس امتلأ فؤاده بالرحمة، فتُتمتم:

هو بالتأكيد من سينقذ ثيفا من بطش والده، نعم سينقذنا قريبًا دون شك.

ثم هاجمها دون سابق إنذار خاطرٌ مرعب أن إيتوس في موقف لا يحسد عليه؛ فما إن يعلم به والده حتى يبطش به حتمًا؛ فلا رحمة تسكن قلب ذلك الظالم، فغطت فمها مرتعبة لهذه الفكرة، وساورها قلق كبيرٌ على مصيره، بقيت برهة قبل أن يخبرها فكرها أن هذا أمر مستحيل، فكاليجولا مهما بلغ جبروته فإنه يحب ابنه كثيرًا، إنه ابنه الوحيد والمدلل الذي لا يُرفض له طلب، ولم يرَ في حياته يومًا

تعيسًا، وكما تعلم ويعلم عامة الشعب أن والدة إيتوس ماتت وهو طفل رضيع؛ فضاعف ذلك عطف والده عليه، وصار له الأب والأم معًا، فكيف للقلب الذي جُمع فيه حنان الأب والأم أن يقوى على إيذاء من يحب، بل كيف لتلك العينين اللتين لا يهنأ صباحهما ولا يسعد ليلهما إلا برؤية مهجة الفؤاد وفلذة الكبد، وقد أدركت ذلك في الفترة الأخيرة حين كثر غياب إيتوس عن القصر، فرأت كيف انقلبت حياة والده إلى غضب مُستميت وجوٍّ عكرٍ لم تغنه فيه النعم المحيطة به من كل جانب؛ ولم تعوضه شيئًا حين لم تعد عيناه تكتحلان برؤية وجه الوليد الحبيب إلا قليلًا، فهل يُعقل أن يقدر الآن على إيذائه أو البطش به فيفقده إلى الأبد؟! هذا من رابع المستحيلات، فسكن قلبها لهذا الحديث الأخير، واطمأن به؛ لتفتر شفتاها عن بسمة فرحة، وذهبت نحو فراشها لتنعم بنوم الأمان، وما إن اضطجعت، وأسبلت جفنيها، حتى تذكرت غدر هذا الرجل بأعز مخلوق لديه وأمنِّهم عليه؛ ألا وهو والده الإمبراطور السابق للبلاد، فنهضت بسرعة وفي أطرافها رعشة، وعيناها قد وصلت إلى أقصى اتساع؛ فزعًا من هذا الخاطر الكريه الذي كدَّر عليها اطمئنانها القصير! فأخذت تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا بهمٍّ ثقيل أقضَّ مضجعها، ثم قذفتها ذاكرتها بالحوادث التي سمعتها في صغرها، حين عاث كاليجولا بعد قتل والده فسادًا في أهل بيته، فقتل منهم من قتل، وشرّد من شرّد، عدا من داهنه منهم وسكت خوفًا من بطشه، كيف لهذا المتوحش أن تخالط قلبه الرحمة على ولده إن خالفه؟! إن مصير من يخالفه معروف فكيف يُستثنى من ذلك إيتوس؟! إن ذلك لن يحدث إلا أن تكون معجزة من الإله يريد بها حفظ إيتوس المسكين!

وأخيرًا أحاطت رأسها بيديها، وأخذت تهزه كأنها تريد نفض كل تلك الأفكار البغيضة، ثم جثت على الأرض كأنما قد أُنهكت، بقيت هنيهة قبل أن تضم يديها وتخفضهما أسفل ذقنها مُحنية الرأس في خضوع وتذلل، ولها تمتمة غير مسموعة كأنها في صلاة مع الإله، ولم تمضِ ثوانٍ حتى فاضت عيناها بدموع اتخذت طريقًا غزيرًا نحو شفتيها.

* * *

- ادخل

قالها إيتوس حين طرق بابه؛ فدخل من خلفه هادريان.

ما إن رآه إيتوس حتى تجهَّم في وجهه، فعرف هادريان ذلك، لكنه لم ينطق بشيء، كان يُفضل أن يبادره سيده بأمره على أن يسأله وهو يرى الغضب الذي يتملكه، اقترب منه إيتوس، ولكن بدلًا من الكلام والسؤال باغته بلكمة قوية على وجهه؛ فارتد هادريان للخلف خطوتين، وما إن أعاد وجهه المندهش لسيده حتى أعطاه الثانية بقوة أشد، فرفع هادريان يديه في وضع الدفاع لا الهجوم وقد ازدادت الدهشة على وجهه! لم يمهله إيتوس لأن يستفسر منه عن سبب هذا الهجوم المفاجئ، بل أمسك بتلابيبه وأخذ يهزه بقوة وهو يصرخ في وجهه:

أيها الخائن، أيها الغادر، ما أغباني حين اعتبرتك صديقًا وأنت لستَ إلا مخادعًا كذابًا، كنتَ تكذب عليَّ كلما سألتك عما أجهله وأتوجسه فتماري كأنك الثعلب! ما أبغضني لك الآن يا هادريان بعد أن اكتشفتُ حقيقتك!!

هادريان بفزع واستنكار وهو يمسك كفي إيتوس:

ما الذي تعنيه ياسيدي؟ أنا لم أخنك يومًا ولا أجرؤ!

إيتوس والدماء تحتقن في وجهه مُخلفة حُمرة زادت من خوف هادريان:

بل أنت خائن مُتملق، تُظهر الوفاء وتُبطن الغدر، ألا ما أحقرك أيها الرخيص!

وما أسفهني حين انطلت عليَّ ألاعيبك!

ارتفع صوت هادريان لأول مرة منذ عرف إيتوس قائلًا:

قلتُ لم أخنك، ولا أقبل أن تُمعن في اتهامي دون دليل! أهان عليك حبي وإخلاصي لتصدق من وشَى بي عندك؟! هلَّا تبينت قبل ذلك وأدركت وجود من يعاديني ويسعى للنزغ بيننا؟

إيتوس وهو يتبسم بتهكم:

وَشَى بك؟ أسفي عليك أن خاب ظنك أيها الحارس المخلص! فلم يُخلق بعد من يجرؤ على التفكير في أن ينمَّ بأحد عندي، ولكنها الحقائق انبلجت أمامي فعرَّت لي غدرك.

ابتلع هادريان ريقه وقد ذهبت به الظنون المفزعة المتخبطة كل مذهب! ثم سأل بصوتٍ خافت وهو يمسح خيط الدم الذي تسرّب من فمه إثر اللكمتين:

مولاي إيتوس، أرجوك أفصح فقد بلغ بي الشكُّ بنفسي أعظم مبلغ!

لا يعلم إيتوس لمَ أثّرت فيه نبرة صوته الجادة وشعر أنها تكسوه البراءة! فأرخى يديه شيئًا قليلًا وإن كان ما يزال في صوته حدة وهو يقول:

كلُّ ما كنتُ أسألك عنه وتخفي أمره عني، قد أُجيب لي عليه ولم أسعَ إليه بقدم!! ألا ترى أن الأقدار قد رغبت أن تكشف لي زيف إخلاصك!

ثم قرأ على وجه هادريان الحيرة وعدم الفهم؛ فاستبق سؤاله الإيضاح بأن أكمل:

الوجوه الحزينة التي ما فتئتُ أحدثك عنها وأتمنى تفسيرها، ولم أكن أسمع منك إلا المراوغة.

ففهم هادريان مقصد إيتوس، وانبثقت على شفتيه ابتسامة لم يفهم كنهها إيتوس، فازداد غضب الأخير وقست لهجته:

يا للخيبة يا هادريان! أوَفقدتَ رجولتك لتهون عليك آلام الضعيفات؟

هادريان وما تزال الابتسامة على وجهه:

كلا، ما فقدتُ رجولتي ولن أفقدها، ولا تهون عليَّ آلام الرجال فضلًا عن آلام النساء، ولكنها أوامر أتقيد بها.

إيتوس صارخًا:

كاذب، فأنت تعلم أني لم أكن لأفضح أمرك لو أنك صَدَقتني، ولم يكن عليك ضير لو كنت تخبرني بالحقيقة، فما الذي منعك؟ أجبني!

هادريان:

أقسم لك ماشككتُ فيك لحظة، ولكنها أوامر من مصلحتي ومصلحة ثيفا كلها أن ألتزمها، إنها أوامر الحاكم الحقيقي لثيفا، أفبوسعي أن أخالفه؟!

رفع إيتوس حاجبًا دون الآخر مستنكرًا آخر ما تُفُوه به:

الحاكم الحقيقي! أهناك حاكم حقيقي وآخر مزيف؟

هزَّ هادريان رأسه بنعم.

إيتوس ساخرًا:

وأيهما والدي؟ أتمنى ألا يكون هو المزيف!

لم يُجبه هادريان بأكثر من ضحكة زادت تعجب إيتوس، ثم نظر في عينيه وهو يقول:

أرأيت أسئلتك التي تدور في رأسك دائمًا، تلك التي سألت من حولك عنها والأخرى التي لم تنطق بها يومًا، أستطيع أن أقول لك الآن أنه قد آن أن تسمع جوابها جميعًا دون مراوغة أو تدليس، بل قد جاء الوقت الذي يجب عليها أن تُدلي لك بجملة جوابها وتفصيله، هيا يا سيدي ومولاي ولي عهد البلاد إيتوس بن كاليجولا، جهز متاعك ولتنطلق معي إلى البلاد الخضراء أقرب وقت تودُّ فيه سماع جوابك، فليس من مكان غيره يمكن أن يُدلي لك بالصدق ويدُلَّك على خير طُرقك!

إيتوس مندهشا:

البلاد الخضراء؟!

هادريان:

نعم، إن كنت تريد معرفة الحقائق!

إيتوس مؤكدًا:

بالطبع أريد ذلك..

ثم مُتوجسًا: ولكن ما شأن تلك البلاد التي لم أدخلها يومًا بكل هذا؟!

هادريان وهو يخفض رأسه احترامًا:

اعذرني يا مولاي، فلا أستطيع الدلو بأكثر مما قلت، لكلٍّ منا مهمة، ومهمتي لا تتعدى ما صدر مني هذه اللحظة، كلُّ ما تبقى لي أن آخذك إلى مكان الجواب وحسب.

سكت إيتوس، واستدار عنه يمشي في الغرفة مُطرقًا مُفكرًا، ثم لم يلبث طويلًا حتى عاد ليقف أمام هادريان وهو يقول:

أتقسم على ما قلت؟

هادريان:

أقسم لك.

إيتوس:

إذن ننطلق صباحًا.

هادريان:

أمرك سيدي، على أن يبقى الأمر سرًّا وأن تُورِّي وجهتنا.

صمت إيتوس لحظة، ثم أجاب:

لك ذلك!

أشرق وجه هادريان وهو يقول:

ائذن ليَ الآن أن أذهب لأجهز ما نحتاجه للسفر، ولأبلغ من سيرافقنا بالأمر.

إيتوس:

حسنًا، ولكن قبل أن تذهب أبلغ آلي أن تأتي إليَّ حالًا.

بعد دقائق، كان باب الأمير يُطرق بخفة؛ فعرف أنها آلي، قام يمشي إلى الباب بوجه وضاء باسم الثغر وهو يقول:

ادخلي..

ما إن دخلت حتى رأته يقدم إليها مُشرعًا ذراعيه وهو يقول:

أبشري يا آلي لن تبأسي بعد اليوم - ثم وهو يحيط كتفيها بكفيه - فمن اليوم وصاعدًا سيكون أمرك مختلفًا.

ثم نظر إلى الباب خلفها لوهلة كأنه يتأكد من خُلو المكان قبل أن يعيد نظره إلى عينيها ويُمعن الهمس:

لكن يجب أن يبقى الأمر سرًّا بيننا، وإلا آل الأمر بكلينا إلى السوء.

كانت آلي وقتها مشدودة الانتباه متشوقة لما سيُدلي به هذا الأمير!

وعند أول ساعات الفجر، انفتحت بوابة القصر الخارجية؛ ليخرج منها ولي العهد والحرس المرافق له، ووجهتهم على ما قال لوالده إحدى مدن الشمال؛ لشراء بعض الأسلحة الحديثة للصيد، وقضاء يومين آخرين للاستجمام فيها!

وفي الوقت نفسه، كان رسولٌ من إيتوس ينطلق مسرعًا نحو تلِّ الألوان؛ ليسلم استيلا رسالة تُفضي أن ظرفًا طارئًا حتَّم على إيتوس الاستعجال في الذهاب إلى بلاده (البلاد الخضراء)؛ ليقضي فيها عدة أيام، ثم يعود بعدها إليها تحمله أشواقه وهيامه!

الفصل السابع

لقاءٌ بعد انقطاع

بعد ساعتين من استقباله، وسماع ما عنده، ثم إعطائه ما يلزمه من أوامر وتوصيات؛ نهض أركون ليغادر المنزل، انحنى للجالس أمامه بإجلال وهو يقول:

شكرًا المولاي على ما ألبسني من الثقة والتشريف بما خُول إليَّ من مسؤولية، ولا أراني إلا قليل المقام لأحظى بمثل هذا الشرف.

ألكساندروس:

بل أنتَ رفيع المقام ذو روح تواقة، ولا أراك إلا شخصًا عظيمًا سيكون انضمامه إلينا نقطة تحول كبيرة.

ثم تبسّم وأكمل مُختبرًا:

لكن تستطيع الانسحاب إن شئت، فنحن لا نجبر أحدًا على خوض المكاره.

أركون بإصرار وثبات:

وهل حُفَّت الحرية بغير المكاره؟! ستجدنا يا مولاي قومًا تتكشف عنهم الشدائد، بقلوبٍ أشد منها.

ألكساندروس بنظرة لا تُخفي إعجابًا:

إذن فاذهب تحفُّك أطيب الأقدار.

خرج أركون بمرافقة كاسكا وثلاثة آخرين عائدين إلى ثيفا.

نظر مستشار ألكساندروس إليه وهو يقول:

إذا سمحت يا مولاي.

ألكساندروس:

تفضل سولون.

سولون:

ألا ترى أننا تعجلنا بتعيين هذا الفتى أحد القادة الرئيسين؟ أما كان من الأفضل أن يكون كاسكا القديم بيننا أولى بهذا المنصب!

ضحك ألكساندروس بخفة، ثم قال:

علمتُ شعورك يا سولون منذ عينتُه قائدًا، فلم تكن نظراتكَ تحمل الرضى عن قراري.

سولون باضطراب وبصوت منخفض:

المعذرة يا مولاي إن تجرأتُ عليك حينها وأنا لا أشعر! أتمنى ألا يُشقيني سخطك.

ألكساندروس:

لا بأس عليك سولون، فمن ذا الذي أرضى عليه إن سخطتُ عليك، أنت لست مستشاري وحسب، أنت صديقي منذ خانني الأصدقاء، ومُنقذي حين أراد الأقربون قتلي.. إنك لا تزال في فسحةٍ من رأيك تُدلي به كيفما شئتَ ما بقيتْ لي حياة.

سكت لوهلة ثم استدرك: ولكني رأيتُ في الفتى مالم يره غيري، رأيت من ذكائه المتقد وحنكته، وما اقترن به من صدق وإخلاص، ما يجعله الاختيار الأصوب من غيره، أشعر أن أمرنا قد اقترب من النور مسافات واسعة بانضمامه إلينا.

ثم رفع عينيه إلى الأعلى وتنهد بثقل المسؤولية؛ ليتابع:
وأتمنى ألا يخيبَ هذا الظن فيه.

سولون وهو يحني رأسه احترامًا:

إذن فليبارك الإله سعيك يا مولاي.

دخل عليهما في ذلك الحين حاجب الباب يستأذنهما بدخول هادريان وفتى غريب قدم معه!

سولون بتعجب وتخوف:

هادريان؟ إنها ليست من عادته أن يعيد الزيارة بعد شهرين!

ألكساندروس:

أتمنى ألا يكون وراءه مكروه!

عمَّ المكانَ صمتٌ ثقيل عدة لحظات، قبل أن ينظر ألكساندروس إلى الحاجب وهو يقول:

حسنًا ائذن لهما.

غاب الحاجب خلف الباب لدقائق، ثم عاد ومعه الزائران، واستدار بعد ذلك خارجًا من غرفة الاستقبال بمنزل سيده.

ما إن رأى هادريان ألكساندروس حتى انحنى مُحييًا له:

طاب صباحك سيدي الحاكم.

ألكساندروس مبتسمًا:

أخبرتك كثيرًا أني لستُ حاكمًا بعد.

هادريان وهو يرفع رأسه:

هكذا يطيب لي نداؤك يا مولاي، وحتمًا سيأتي هذا اليوم الذي تنتظره ثيفا بفارغ الصبر.

ثم انتبه لوجود إيتوس، وأدرك أن كلامه الآنف سيغضبه حتمًا، فالتفت نحوه ولم يخب توقعه، فقد كان إيتوس يستشيط غضبًا وهو يرمق هادريان بنظرات الازدراء، ولم يطل صمته؛ إذ رفع يديه مُصفقًا وهو يقول ساخرًا:

رائع، هذا رائع، هادريان الذي ائتمناه زمنًا طويلًا وأحسنَّا صحبته، يُعلنها أمامنا خيانةً حقيرة.

هادريان متداركًا موقفه بحرج:

عفوًا مولاي ما قصدتُ ذلك، إنما خانتني عفويتي فتفوهتُ بما تفوهتُ به.

إيتوس:

بل صَدَقتني عفويتك، وأبت إلا أن تُسمعني فحيحك[1] القذر!

رفع هادريان يده إلى مؤخرة رأسه بحرج شديد لا يعرف ما الرد المناسب في هذا الموقف، فوجَّه بصره نحو ألكساندروس كأنه يرجوه الإنقاذ.

كان ألكساندروس حينها يُتابع المشهد بصمت كأنه قد شُغل بأمر آخر، فملامح إيتوس حين رآه وجعلته يظنُّ ظنًّا يتمناه، قد زيدت عليها بهذا الحديث الذي صيَّر ظنَّه مؤكدًا؛ فاستنار وجهه وأضاء فرحًا وهو يتأمل وجه إيتوس الغاضب المصدوم من قائد حرسه، فاقترب منهما قليلًا وقد كست وجهه ابتسامة أقرب للضحك من فرطِ فرحته وهو يسأل هادريان:

---

(١) الفحيح: صوت الأفعى

أليس هذا إيتوس؟ أليس هو يا هادريان؟ قل لي نعم أرجوك ولا تُحبطني

ثم تهدَّج صوته وهو يتابع: أرجوك يا هادريان انطق بنعم.

تبسّم هادريان، وهزَّ رأسه وهو يجيب بملء فمه فخرًا:

نعم، هو ذا مولاي ولي عهد ثيفا المبجل؛ أتى معي إلى هنا باحثًا عن الحقيقة التي لم يزل يسأل عنها منذ زمن طويل.

ألكساندروس مُوسِعًا بين ذراعيه بابتهاج:

حقًّا ما أسعدني بهذا اليوم! منذ قليل أركون القائد الفطن الأبيّ، والآن إيتوس ولي عهد ثيفا، هل شاء الإله أن يُبدل سنين أحزاني العشرين بهذا اليوم السعيد؟! ما أعظمها من هدية إذن!

ثم استدار عائدًا إلى سولون وهو يقول:

انظر من جاء يا سولون، قد كنا نعلمُ أنه قادم إلينا لا محالة، لكنني أُراهنُ إن كان أحدنا قد توقع ذلك مبكرًا!

لم يكن سولون بأقل تعجبًا من سيده ولا أدنى فرحًا، فهتف مؤكدًا:

حقًّا لم نتوقع ذلك، ما أجملها من هدية! ما أجملها من هدية!

اقترب إيتوس من هادريان وهو يهمس له:

من هذان العجوزان؟! هل الحقيقة التي زعمتَ أني سأجدها؛ هي عند هذين المجنونين!!

غطى هادريان فمه يواري ضحكة باغتته، ثم قال:

أنصحك ألا تعيد ما قلت، فإني أخشى عليك الندم.

إيتوس بصوت مسموع وهو يُشير بسبابته نحوهما، وعيناه على هادريان:

أندم من هذين! إني أجزم لك أني قادر على قصم ظهريهما اليابسين معًا وفي لحظة واحدة.

لم يتمالك هادريان نفسه؛ فاستدار للخلف، وعلت ضحكته، تقدم حينها ألكساندروس من إيتوس وهو يقول دون أن تتغير ملامحه الفرحة:

لو كنتَ تعرفني ما قلتَ ذلك، لكن لا بأس، سنتبارز في أي وقت تشاء بعد أن ينتهي مجلسنا، وستعلم وقتها إن كنتَ تستطيع كسر ظهري حقًّا أم لا.

استطاب إيتوس لطفه في حديثه رغم إساءته له! فذهب عنه غضبه تاركًا له رؤية الواقف أمامه بعيني العقل هذه المرة لا بعيني الغضب أو الحيرة، ولم يكد يفعل حتى ضيقهما قليلًا بلا شعور وهو يتمعَّن وجه ألكساندروس، وبقي على ذلك لحظات لا يُزحزحها عنه، ثم التفت إلى هادريان وهو يقول:

لم تخبرني من الرجل؟! ألم يأتِ يومًا لزيارة والدي؟

هادريان باستغراب:

كلا لم يفعل أبدًا، إنه لم يدخل ثيفا منذ عشرين عامًا يا سيدي.

إيتوس:

لكن أشعر أنني قد رأيته!

هادريان:

أنَّى لك أن تراه وقد خرج من ثيفا قبل أن تولد؟! ربما شُبِّه لك.

ضحك ألكساندروس بخفة وهو يقول:

كلا ما كان الذي رآه شبهًا لي يا هادريان، بل من رآه هو أنا، حقًّا إنه أنا..

هادريان بدهشة:

كَـ.. كيف!! هل سبق أن التقيتما؟

ألكساندروس:

لو التقينا لعرفته من أول وهلة، ولكن أخذ الأمر مني وقتًا لذلك

ثم نظر إلى إيتوس وتابع: أمَّا هو فقد رأى وجهي كثيرًا قبل أن تؤخذ اللوحة من بهو الاستقبال في قصر الحكم بثيفا.

اتَّسعت حدقتا إيتوس، وانتفض قلبه مثلما تنتفض شفتا العطشان الذي أشرف على الهلاك حين تلامس حافة الكأس!!

بقي هادريان يُقلب بصره بين وجه ألكساندروس الثابت، ووجه إيتوس الذي اتضحت عليه الصدمة، وقد سرت في يده ارتعاشة وهو يرفعها إلى وجه ألكساندروس:

أنت.. أنت هو حتمًا! لقد كنتَ تقف بجانب جدِّي!

ثم ازدردَ ريقه وهو يتابع كأنما وجد جواب سؤاله أخيرًا: من أنت؟ أخبرني من تكون يا هذا؟

ألكساندروس:

أنا ابن الإمبراطور السابق لثيفا، وولي عهدها آنذاك، ووالدك هو أخي الأصغر كاليجولا.

ازدادت عينا إيتوس اتساعًا، وارتخى فمه صدمةً وتفاجؤًا، ثم انفعل صارخًا:

كلا هذا كذب.. أنت تكذب بلا شك، فليس لوالدي أي إخوة، إنه وحيد جدِّي ولا ابن له سواه.

ألكساندروس:

إذن فما تظنني لأن أكون ثالثهما في صورة ملكية كبيرة زيَّنت جدار البهو لسنوات طويلة، من أنا لتبقى صورتي معلقة بأكثر من سنين عمرك، يراها الزائرون من ملوك البلدان والوزراء من كل حدبٍ وصوب؟ من تظنني ليختارني جدُّك عن يمينه بينما اختار والدك ليقف يساره؛ ثم يُبقي اللوحة شاهدًا ملكيًا طوال سنين حكمه؟ إن كان والدك قد أدرك إدانتها له فأخفاها فليس هذا بمخفٍ للحقيقة، إنني ألكساندروس ابن الملك هوميروس شئتَ تصديق هذا أم أبيت.

كان إيتوس أثناء كلام عمِّه مدهوش العينين، يهزُّ رأسه بمشاعر متخبطة متناقضة بين التكذيب والتصديق! وما إن انتهى الكلام حتى شعر كأنَّ جسده شاخ لسنواتٍ؛ فهوى إلى الأرض بضعف، أحاط رأسه المطرق إلى الأرض بيديه وهو يهزُّه بذهول، ثم رفعه نحو عمه بوجه متألم يرغب في تكذيبه، لكنه يدرك ألا سبيل لذلك، فما نطق به هذا الشيخ صدقٌ لا ريب فيه، وكل الشواهد تثبت له ذلك!

ثم أعاد وجهه إلى الأرض، وأغمض عينيه بقوةٍ كأنه يريد طرد ما صدقه وتكذيبه أيًّا كان، أو ربما أراد حينها أن يستفيق من هذا الكابوس الصادم البغيض!

لكنه لم يستفق، بل فتحهما وهو لا يزال جاثيًا على الأرض أمام قدميْ هذا الرجل الذي يزعم أنه عمه الذي نُزع منه حكم البلاد! فارتفعت من صدره شهقة مُتوجعة، ورفع عينيه إلى وجه عمه مجددًا وفي شفتيه ارتجاف صامت!

فآلم منظره قلب عمِّه، ولم يشعر بنفسه إلا وقد أسرع جالسًا أمام إيتوس مُحيطًا كتفيه بيديه ضاغطًا عليهما بإشفاق وتعزيز، ثم استغرق ناظرًا في عيني إيتوس الكسيرتين وهمس له بنبرة عطوفة:

هدِّئ من روعك يا بُني، فما أراد بك الإله إلا خيرًا، إنك خير من اصطفته ثيفا لإنقاذها من بطش أخي، ما زلتُ أتتبع أخبارك منذ صغرك، وأعلم تفاصيل ما جُبلتَ عليه من المروءة والشرف والرحمة التي ملأت كيان قلبك، ولم أزل أتحرَّقُ لليوم الذي يشتعل فيه أول فتيل أمامك؛ لأني كنت أُوقن أن ذلك كفيلٌ لأن تكون بدايتك؛ وقد حصل ما توقعت، وإلَّا ما كنتَ الآن ماثلًا بين يديَّ، هيا يا إيتوس كن شجاعًا، وتلقَّ ما ستعرفه بفارغ القوة والحزم، فلا مكان بيننا للضعفاء أبدًا، هل تفهم؟

كانت عينا إيتوس الذابلتان تترقرقان دمعًا آسيًا وهو يتمعَّن وجه ألكساندروس، ثم لم يجد بُدًّا من أن يهزَّ رأسه موافقًا دون أن تنبس شفتاه بحرف؛ كأنما قد أثقلتا تمامًا، فأخذت قلب عمه رأفة به وهو يرى الوجه اللطيف يغرق في محيط حالكٍ من الصدمات العنيفة التي ما تزال تتقاذف عليه، فشدَّه إليه وضمَّه بحنان، ويده الأخرى تمسح رأس إيتوس برفق هامسًا له:

ستكون بخيرٍ من اليوم وصاعدًا، وستكون تحت رعاية عمك الذي أحبك قبل أن يراك، وها هو يعلنها الآن أمامك أن حبه لك قد زاد؛ فلتطمئن ولتسكن، فليس لليأس مكانٌ في قلوبِ من استبصرُ فيهم الشجاعة والرغبة في إنقاذ الناس.

ثم أمسك بيديه ورفعه يوقفه معه بحنان، وأخذه لبهو الاستقبال في منزله منفردين.

الفصل الثامن

ترقُّبُ الغد

وصل أركون إلى منزلهم؛ فانتبهت والدته لصوت خيله، وقفت في لهفة وهي تقول:

هذا أركون دون شك..

ثم التفتت إلى ضيفتها وأكملت بابتسامة مشرقة:

لقد أصبح خيالًا ماهرًا منذ ازدادت صداقته بكاسكا الطيب؛ فاقتنى له هذا الخيل الأصيل، والآن يا عزيزتي سأخبره بوجودك.. سيُجنُّ فرحًا بالتأكيد.

ثم هرولت نحو الباب لا تكاد تسعها الدنيا من فرحتها بعودة وليدها.

أركون وهو يُقبل عليها مُشرعًا ذراعيه بابتهاج:

يا شمسيَ الوضاءة، يا نبع الحب، كم اشتقت لكِ يا أمي؟ ثم ضمَّها إلى صدره وقبَّل رأسها ويديها.

والدته:

أتعرف يا بني، كنتُ أتوقع مجيئك هذه الساعة؛ فالقلوب تتداعى وتنادي بعضها دومًا.

أركون وهو يضحك:

أعلمُ أن قلبك لا يغفل عني لحظةً يا أمي.

والدته:

كلا ما هذا قصدت - ثم وثغرها يتسع تبسمًا - تعال معي وستعرف، ستذهلك المفاجأة.

أركون:

مفاجأة! وما هي؟

غطَّت فمها وهي تضحك، وأردفت:

لن أسمح لفضولك بإفسادها، تعال معي وستعرف.

مضت ومضى ابنها خلفها، وفضوله يزداد مع كلِّ خطوة لمعرفة هذه المفاجأة، أو بالأصح لرؤية القلب الذي استدعاه! وما إن دخل المنزل حتى رأى آلي أمامه تقف لاستقباله باسمة الثغر، وأمُّه تشير إليها:

هذه هي المفاجأة، ألم أكن صادقة في ظنِّي؟! ها قد أتيتَ مُلبيًا نبضات قلبها المشتاقة.

أخذ وجه أركون الذي كان مُتبسمًا بتلهفٍ للمفاجئة يذوب في دهشة تامة، والدموع تحتشد في عينيه غير مصدقٍ لما يرى، بقيَ متسمّرًا مكانه كأنه يُحاول استيعاب هذا المنظر الذي لم يتوقع رؤيته حتى في أحلامه المتوجعات! ثم تحركت قدماه قليلًا وهو ينطق بصعوبة وبذهول شديد:

آ.. آلي.. هنا؟!!

وأخيرًا خفَّت قدماه ركضًا نحوها وهو يناديها بأعلى صوته، وما إن صار حذوها حتى طوقها بذراعيه ولصدره أزيزٌ من بكاء، وخفقان قلبه يعلو فرحًا، ثم رفع رأسه، وأحاط وجهها المستدير بيديه وهو يقول:

هل أنا في حلم؟ هل أنتِ آلي حقًا؟

ضحكت آلي ولمعانٌ يترقرقُ في عينيها، ثم أجابت:

بشحمها ولحمها، ما أسعدني برؤيتك يا أركون، ما ظننتُ أني سألقاك ثانية.

أركون بصوتٍ مرتعش:

ولا أنا يا آلي، ولا أنا، ما هذه المعجزة الإلهية التي خصتك بهذه المكرمة؟ أخبريني ما الذي حدث معكِ لتكتحل بكِ عيناي بعد أن يئستُ من لقائك؟!

مسحت عينيها بطرف كُمها، ثم افترت شفتاها عن بسمة لطيفة وهي تُجيب:

إنه مولاي ولي عهد البلاد، لقد منحني هذه المكرمة التي لم أكن لأحلمَ بها طوال عمري.

أركون بتعجب:

ولي العهد؟ أتسخرين مني يا آلي؟!

آلي:

كلا عزيزي ما سخرت، أنا جادة فيما أقول، ولا لوم عليكَ لتعجبك هذا فلستَ تعرفه، ولو كنتُ أنا مكانك لكذبت الخبر حتمًا، فكل الشعب يظن بهذا الأمير - الذي لم يره يومًا في حياته - كل سوء؛ وليس ذلك إلا لأنه ولي العهد المُغيب عن الشعب منذ وُلد إلى اليوم، فشُمل بمساوئ الإمبراطور؛ لأنه والده ليس أكثر!

أركون بحاجبٍ مرتفع استنكارًا:

أتريدين منَّي الآن أن أصدق أن للمتوحش كاليجولا نسلًا شريفًا ذا مروءة؟!!

آلي بهدوء وابتسامة واثقة:

ليس من شأني أن أقنعك بصدق هذه المعجزة، فلربما الأيام كفيلة بإظهار كل ذاك، من يدري؟! لعل لذلك الابن الطيب الذي كاد يُجنُّ فزعًا وألمًا حين علمَ

بحقيقة الفتيات العاملات في قصره المنيف؛ أن يُحرر هذا الشعب البائس يومًا ما من جبروت والده.

أركون بعد لحظة صمت، ثم بسمة أنبأت عمَّا يُشغل فكره المبتهج:

وكيف وصلتِ إلى هنا؟ هلَّا حدثتني بذلك؛ فإني متشوق لمعرفة كل ما يخصك يا عزيزتي.

هزَّت رأسها موافقة وقالت:

لقد منحني الأمير الإذن بزيارة أهلي متى ما أردت، وطلب مني أن أحافظ على سِرِّية الأمر؛ لِئلا يعلم الناس به؛ فتضج ضجة تصل إلى الإمبراطور وتفتضح حينها خيانة الأمير! لقد خرجتُ إلى منزلي متنكرة، وفعلتُ ذلك حين أتيتُ إليكم، وهو ما سأقوم به أيضًا حين أعود إلى المنزل، حياة ضيقة يا أركون، لكنها بالتأكيد خير من السجن في القصر نصف عقد من الزمان..

ثم أطلقت تنهيدة عميقة وتابعت: ولكيلا أورط أميرنا المسكين الذي اتخذ هذا الموقف العطوف معي.

أركون:

يخاف والده؟ يخاف والده وهو المدلل الذي لم يرَ حزنًا في حياته قط؟!

آلي:

لا أعلمُ إن كان خوفًا أو شفقة بي أن أُحرم من هذه النعمة إن عُلم بأمري.

فرَّت من صدر أركون زفرة حائرة وهو يقول:

ما أعجب ما أسمع! لم أكن أظن يومًا أن يخرج من نسل كاليجولا ذي القلب الميت ولدٌ له قلب تنبض فيه الحياة! حقًّا ما أعجب ذلك!

آلـي ببسمة عذبة:

وأنا مثلك لم أكن أتخيل ذلك، لكن لعلَّ الإله أراد بثيفا الحزينة خيرًا حين صنع هذه المعجزة.

بادلها أركون التبسم وهو يُلاطفها:

من يدري؟! ربما هو ذاك!

ثم أخذها إلى الفناء، وراحا يجوبانه بهدوء، وداخل كل منهما قلبٌ يود لو يطير من قفصه مُحلقًا بحرية نحو السماء؛ فيتسع المكان لتعبيره عن عظيم فرحته بدل مكانه الضيق في الفؤاد، ذلك الفؤاد الذي كان حينها يتراقص طربًا وسرورًا بحبيبه الذي يئس من لقائه؛ وها قد استحال ذلك اليأس إلى أملٍ بغير مقدمات! مشاعر كثيرة متداخلة بين الألم الذي كان والفرح الذي يُعايش! ومشاعر أخرى تختلف عن ذلك وتزيد بعدد الشهور التي أُبعدا فيها عن بعضهما قسرًا، فلم يعرف أحدهما بماذا يبدأ، فاستغرقا صامتين حينًا من الزمان، ذلك الصمت الذي يكون التعبير فيه أبلغ من الكلام، ويشعر من يمرُّ به بلذة للوقت ومتعةٍ لا تدانيها لذة أخرى أو استمتاع، ثم بتردد وخجل وحيرة، بدأ أركون حديثه، وما إن فعل ذلك حتى تحول الحديث الخجول الممتنع لاسترسالٍ وضحك، فقد كان طبعه دمِثًا[1] يستغرق في نفس من يتعرفه أول مرة حتى لكأنه يعرفه منذ سنوات، كانت به قدرةٌ عجيبة في تحويل الموقف الحزين إلى شيء مضحك إن أراد، والموقف الجادِّ إلى هُزال ممتع متى ما رغب، فملأ قلب آلي في هاتين الساعتين القصيرتين بسعادة وانتعاش

(١) دمِثًا: سهلًا لينًا

حتى لكأنَّه لم يحزن قط، ونسيا طول المدة التي فرقتهما عن بعضهما، بل خُيَّل إليهما أن ذلك لم يحدث، ربما كان حُلمًا قصيرًا راودهما في نومةٍ فحسِبا أنها حقيقة!

ومرَّ وقتٌ طويل قبل أن يتذكر أركون ما عاد به من البلاد الخضراء، فتركز فكره ومشاعره فجأة على هذا الأمر لا سواه، ونظر إلى آلي بجدية وهو يسألها بصوت منخفض كأنه يخشى سماع والديه له:

أخبريني يا آلي، هل تعرفين كل غرف القصر ومداخله؟

آلي بنبرة فخر:

طبعًا يا أركون، فمنذ أن أعفاني مولاي من أتعاب عمل الخادمة الشخصية، صرتُ كالعصفورة الحرة، أطير متجولة بين جنبات القصر الفاره كل الأوقات التي يخلو فيها القصر من الإمبراطور ووزيره، إنه ما يزال يُشار إليَّ منذ بدأت العمل هناك بخادمة الأمير..

ثم توردت وجنتاها سرورًا بآخر ما قالته وتابعت: ألا ترى ذلك شيئًا يدعو للفخر، إنني بسبب ذلك أعيش مكانة محترمة بين كل الخدم، والآن أنا بين أهلي وخطيبي - ثم وعيناها تنظران إلى السماء وثغرها يتلألأ تبسمًا - مِنَّته عليَّ لا أستطيع شكرها أبد الدهر، أرجو من الإله أن يحفظه من كل مكروه.

تنحنح أركون ورمقها بنظرة خافضة فهمت معناها؛ فاستدركت تضحك بحرج:

أوه عزيزي لا تُسئ فهمي أرجوك، صدقني أنت عندي مِلء الدنيا منه، ولكنها ثرثرة من رأت النجاة بعد اليأس منها!

زفر أركون، ثم تبسّم بخفة وهو يُسند كفيه خلف رأسه:

لا بأس إذن فلتثرثري كيفما شئتِ، ما دُمتِ بجانبي الآن فأنا أرضى أهل الأرض وأسعدهم يا آلي.

ثم أمال عينين ضاحكتين إلى عينيها؛ أصابتها في عمق قلبها فغمره السرور، غير أنها أشاحت وجهها تخفي الخجل الذي صبغ وجهها المستدير.

ثم استدرك:

آلي لديَّ ما أطلبه منك.

آلي:

تفضل!

أركون:

اسمعي يا حلوتي، سأقول لكِ سرًّا لم أُخبر به حتى والداي، ولكن لحاجتي الشديدة إليكِ سأُطلعك عليه؛ لأطلب منك المساعدة.

تطلعت إليه آلي بتشوق لحديثه، فتابع:

إني لم أعد من رحلة تجارة كما قلت لوالديَّ، إن أيام الغياب التي كانت هي للبلاد الخضراء وليست لغيرها.

آلي بتعجب:

البلاد الخضراء!! أجننت يا أركون لتذهب إليها؟! هل هان عليك والداك لتجازف بحياتك دون أن تلقي لهما بالًا؟! بل هل هان عليك شبابك الزاهر لتبذله في طريق الهلاك هذا؟!

أركون:

اخفضي صوتك أرجوك، ما أسررتُ لك لتفضحيني يا آلي! أعلم أن الذهاب إليها ممنوع ومجرَّم منذ تولى كاليجولا الحكم، ولكن لنا طرقنا الآمنة فلا تقلقي من ذلك أبدًا.

آلي:

ولكن لماذا اخترتها عن غيرها؟ كل البلدان من حولنا زاخرة بخيراتها، فلتطلب التجارة في أيٍّ منها.

أركون ببسمة غامضة:

لو كان المطلوب تجارة لفعلت، ولكنه غير ذلك!

ثم تطلع في وجهها وأمعن إسرارًا كأنه يخاف حتى الحجر أن يسمعه:

فأنا أخوض أمرًا عظيمًا، فلقد تشرّفتُ اليوم بملاقاة حاكم ثيفا الحقيقي؛ ألكساندروس هوميروس، الأخ الأكبر غير الشقيق لكاليجولا.

آلي وقد بلغت عيناها أقصى ذهول:

ألكساندروس؟! هل تمكنت من لقائه حقًّا يا أركون؟!

أركون:

نعم التقيته فأنا من أتباعه؛ بل أنا الآن أحد قادته الرئيسيين.

صكَّت وجهها وقالت:

فقدتَ عقلك حتمًا! لو سمعك أحدهم فاعتبر هذه الساعة هي آخر عهدك بالدنيا.

أركون:

أعلم، ولكنكِ الوحيدة التي سمعت مني هذا، فكوني مكان الثقة ولا يعلمنَّ أحدٌ منكِ ما سمعتِ.

أومأت آلـي برأسها وقد طغى على وجهها القلق والحزن معًا، ثم أردفت:

لكَ ذلك يا أركون، ولكن، لماذا تجازف بحياتك؟ إن تلك البلاد محظورة منذ أن لجأ إليها ألكساندروس، فما بالك بمن يذهب ليلتقيه شخصيًا!

ثم تطلعت إليه بوجه باكٍ وصوت متقطع:

لا أشكُّ أنك ستُعاقب بما يُعاقب به كبار الخونة، ستعذب طويلًا قبل أن يُسلخ جلدك ليُكسى به عرش الحكم!

تبسّم لها أركون، وخاطبها بنبرة حنونة وهو يمسح دمعتين تحدرت من عينيها:

لا تقلقي يا حلوتي، أعدك بألا يجدوا لـي طريقًا، فلا تجرينَّ على خدك دمعة حزن واحدة، فالحزن في قلبك.. أحزان في قلبي[1]

هزت آلـي رأسها دون أن تنطق بنعم كأن لسانها قد أثقل عن كل حرف.

أركون:

والآن.. هل ستساعدينني في مهمتي؟

نظرت إليه باستفهام، فأحاط أركون بكتفيها وهمس لها:

مهمتك سهلة بسيطة، ولكنها ستنفعنا كثيرًا.

آلـي بارتياب:

تنفعكم في ماذا؟

ثم شهقت شهقة غطتها بيدها واستدركت:

لا تقل إنك؟!

---

(١) مصطفى صادق الرافعي.

ولم تستطع الإكمال، فأجاب أركون بوجه يبتهج ثقة: أجل.

آلي بصوت متهدج:

لكن.. لكن أنا.. لكن أنا خائفة يا أركون.

أركون:

كلا يا آلي، لا داعي للخوف؛ فلن يستطيع أحد كشف أمرك أو التنبؤ بعملك، قلت لكِ إنها مهمة سهلة جدًّا وغير مثيرة لشكِّ أحد، صدقيني لو كان غير ذلك ما طلبتُ معاونتك؛ فلأن يُقطع جسدي أوصالًا وأنا حيٌّ، أو تحلُّ على ثيفا صاعقة من السماء فتحرقها عن بكرة أبيها؛ أهونُ عليَّ من أن تصيبكِ شوكة بأذى، ولكنكِ في أمان.

صمتت آلي عدة لحظات تتخبط في حيرة رهيبة، ثم أخفضت رأسها وأشاحته بحرج أوضح رفضها لطلبه!

لم يكن يخفى على أركون شيء من مشاعرها، فشدَّ قبضتيه على كتفيها وفي نبرته توسل:

أرجوك يا آلي، من أجل الأطفال الذين يموتون كل يوم من الجوع، ومن أجل الشباب المسجون في الأقفاص المعلقة دون ذنب، والأجساد التي تُحرق حية أو تقطع أطرافها دون رحمة وأمام الملأ، من أجل الفتيات اللاتي حُكم عليهن بالشقاء في قصور الظلمة، بل من أجل الأمهات اللاتي جار عليهنَّ الحكم أخيرًا؛ ليؤخذن من أزواجهن وأطفالهن قسرًا!

رفعت رأسها مستفهمة متعجبة، فهزَّ رأسه بنعم وأكمل:

كنتِ في القصر حين صدر الحكم الأخير، لقد أمر الإمبراطور بأن له ولحاشيته الحق في أخذ من يريدون؛ للقيام بأعمال الرجال ممن لا يَعُلْنَ أكثر من ثلاث رغمًا

عنهنَّ وعن أزواجهن، ولا ندري يا آلـي أيّ الأحكام الباغية ستصدر بعد هـذا، كـأني بكاليجولا لا يجد متعة إلا في تعذيب شعبه، وإذلاله لهم، وأخذ حقوقهم رغمًا عنهم!

شعرت آلـي حينها بدوار يلفُّ رأسها، وبهوان شديد يسري في جسدها من هـول الصـدمة؛ فاختـل توازنهـا وجثـت علـى الأرض، ومـا هـي إلا لحظـات حتـى همَـت مقلتاها دون أن تدرك، فقد ذُهلت عن كل شيء..

جلس أركون إليها وهو يخاطبها بقلق:

آلـي، هل أنتِ بخير؟

ولـمَّا لم ترد عليه طالعها مُتأملًا لبرهة؛ فإذا وجهها الذي يجري عليـه الـدمع غزيـرًا يخبره بشرودها التام؛ فانقبض قلبه، وأخذ يهزها كأنما يريد منها الصَّحو وهو يهتف:

آلـي، هل تسمعينني؟ آلـي ردي علي.. آلـي!!

فانتبهت له كأن عقلها عاد بغتة، أو كأنها استيقظت من سبات فجأة، ثم أطرقـت رأسها بصمت كسير..

أركون بوجه مشفق وصوت متندم:

حبيبتي، فلتنسي ما طلبته منكِ، ولتعودي لحياتك الهادئة، فما أنتِ التي يئِنُّ لها نبض ولا أبالي به!

ثم حوّطها بذراعيه هامًّا أن يضمها، لكنها انفلتت منه بسرعة؛ لتهتـف باكيـة بمـا يحرق صدرها مستهجنةً ضَعف موقفها:

بل سـأفعل كـل مـا يُطلـب منـي، لـن أبقـى مكتوفـة اليـدين أسـلم نفسـي للحـزن والبكاء، فما هما إلا ملجأ الضعفاء، ولن يرى شـعبٌ آثـر الضـعف مجـدًا أو كرامـة!

أنا معك يا أركون، أنا معك ولو كلفني ذلك حياتي.

لا يعلم أركون حينها لمَ اختلطت عليه مشاعر الفرحة بموقفها مع مشاعر الأسى عليها!

غير أنه أومأ لها وهو يمسح دموعها، ثم قبل جبينها، ومسح على رأسها بافتخار وحنان وهو يُباسمها:

إذن أهلًا بكِ معنا.

❊ ❊ ❊

وفي المساء، كان أركون وكاسكا في إحدى غرف البيت المهجور مُلثمين، ثم أخذ العدد يتزايد عليهما في توالٍ، كلٌّ من يطرق الباب يُطالب بكلمة السر التي يجيب عنها بـ:

الشمس!

ثم يدخل ويستقر مُلثمًا!

وما إن اكتمل عددهم بعاشرهم حتى هتف كاسكا:

الشمس؟

فأكمل من بجانبه:

بعد الظلام.

ثم على التوالي:

- والنهر؟

- لا يكف عن الجريان.

- والخوف؟

- أعتى عدو للحياة.

- وكل نسر؟

- يعشق السماء.

- وما الراحة؟

- إلا في الإقدام.

ولما اطمأنوا لبعضهم وأنه لا دخيل، نزعوا لُثُمهم؛ فانتبهوا لشخص جديد انضم إليهم، يجلس بجانب هادريان، فاستبق هادريان سؤالهم بأن أشار لإيتوس بجانبه وهو يقول مُعرفًا:

هذا بندار، قرر الانضمام إلينا فلترحبوا به يا صحاب.

كاسكا:

مرحبًا بك بيننا يا بندار.

أركون:

ما أسعدنا بانضمام هذا الوجه المُنعم بيننا! يبدو أن صوتنا بات مستطابًا ليلحق بنا أهلُ الترف.

فتبسم هادريان لفراسة أركون العجيبة رغم لباس إيتوس المتواضع المهترئ!

ثم تصدر كاسكا المجلس يروي ما حصل بينه وأركون وبين ألكساندروس ووزيره سولون، وأن أركون قد عُيِّن قائدًا لتابعي ألكساندروس في العاصمة بدلًا من هادريان؛ ليتفرغ الأخير لعمله في القصر، فبانشغاله قد تتوجه له الأعين اتهامًا، ثم تولى الحديث بعده أركون، فأخذ يشرح لهم الخطة الجديدة التي أُمروا بها، وخاصة ما تصدرها من أمرٍ لحركتهم الخفية؛ بأن تسلك مسلك النشر والدعوة إليها ولكن بأشد الحذر!

ولما انتهى الاجتماع، وانفضَّ الجمع، ولم يبقَ إلا الأربعة، هادريان وإيتوس وأركون وكاسكا، أبلغ هادريان أركون بأمر قائدهم الأعلى ألكساندروس بأن يأخذ بندار إلى أحياء المدينة وميدانها؛ ليُطلعه على الظلم الحاصل فيها بصمت حذر!

أركون:

أَوَلَا يعرف ابن النعمة هذا ما يجري في البلد؟!

هادريان:

كلا؛ فبندار عاش حياته في البلاد الخضراء منذ هاجر إليها والداه وهو رضيع.

أركون بريبة:

أَوَلم يكفهِ ما أدلى به القائد له من حقائق؟! هل يحتاج الأمر منه للتأكد من الواقع؟!!

هادريان مُخفيًا ارتباكه:

ما الذي دهاك يا أركون؟ أَوَتجادل القائد الأعلى؟!

أركون مستدركًا:

كلا، ما قصدت مجادلته، وإنما حيرني أمر الفتى، لكن لا بأس فله ذلك ومن الغد.

تبسّم هادريان كأنما تنفس الصعداء وهو يؤكد:

نعم من الغد.

ومن أول الاجتماع إلى آخره لم ينطق إيتوس بكلمة سوى رموزهم التي ابتدؤوها أول المجلس، ولم يبدُ على ملامحه شيءٌ من حماسة الآخرين! أما أركون فقد قرأ على ملامحه ما هو أعمق من ذلك؛ فازداد توجسًا منه!

ولما أن خرج إيتوس وهادريان من المخبأ، التفت الأول إلى قائد حرسه وفي صوته ألم:

هل عليَّ أن أرى ما قاله عمي؟ هل يجب على عينيَّ أن تشهد ما سمعته أُذناي؟!

هادريان بصوت هادئ لم يخفَ فيه عطفُه:

لا عليك يا مولاي، فأنا أثق بقوة قلبك، ورباطة جأشك، ثم عليك أن تدرك أن عمك ما أراد ذلك إلا ليزيد من رغبتك في إنقاذ الناس، فليس من رأى كمن سمع! ثم إنك من ترجوه ثيفا، فكيف لك أن تُحسن ظنها فيك وأنت لم تشهد آلامها؟

أطرق إيتوس رأسه، ثم تنهَّد بأسى وهو يقول:

لكن أتعلمُ جرائم من التي سأشهدها؟ هل تدرك عظيم مصابي في ذلك يا هادريان! ليت المشاهد غدًا تُكذب كل ما سمعت، ليتني غدًا أكتشف بدل سوء أبي كذبات عمي؛ فأرى الشعب في رغدٍ كما كنتُ أعتقد طوال عمري.

اجتاح قلب هادريان حزن شديد، فهمس مواسيًا ومحفزًا:

مولاي العزيز، أدركُ ما يعتريك، ولكن يجب عليك أن تحث فؤادك على الثبات قبل النزول إلى المدينة، إنك إن ذهبت إليها بهذا الحال لن تمسك زمام أمرك، وسيتفلت منك لا محالة فنُكشف عن بكرة أبينا، ثم ماذا؟ ثم على ثيفا السلام أبد الآبدين..

صمت برهة ثم أردف بنبرةٍ حازمة: جرِّد هواك ولا تنظر لما ستراه بعيني ابن الإمبراطور؛ فهذا أدعى لأن تتماسك، إنك إن أردت أن تبقى إنسانًا فليس أقل من أن يُنكر قلبك ظلم الضعفاء!

لم يرد إيتوس بشيء، ولم يملك إلا أن لزمه صمت ثقيل حتى انتهيا إلى القصر؛ وهو يترَقَّبُ الغد بقلب وَجِلٍ كسير.

الفصل التاسع
بينَ الشَّعب

انطلق إيتوس وهادريان متنكرين إلى المكان الذي اتفقا على اللقاء فيه مع أركون، ولمَّا وصلا رحَّب بهما الأخير، ثم أردف باستفزاز:

ستكون جولة قاسية عليكَ يا ابن النعمة!

رمقه إيتوس بنظرة مُغتاظة من طريقة تسميته له، ثم أعرض عنه.

أركون لهادريان وهو يُلقي نظرة متفحصة على إيتوس:

تنكُّرك نعرف أسبابه ومبرراته، لكن ما بالُ ابن البلاد الخضراء متنكرًا؟

هادريان بتلعثم:

إنها رغبته ولم أسأله عن سببها، فليس من شأني التدخل في شؤون الناس.

أركون بعد أن أصدر نبرة تنمُّ عن الفهم:

تقصد أنني أتدخل فيما لا يعنيني! لا بأس معك حق، وليس من عادتي حقيقة فعل ذلك - ثم وهو يحدق بإيتوس ببسمة متشككة - ولكنني أحببت أن يكون صديقي من هذه اللحظة، وأن أعرف عنه كل شيء، فهل في ذلك ضير؟!

هادريان:

كلا، لا ضير في ذلك، وما اختارك القائد الأعلى لمرافقته إلا لأنه يرغب في قربه منك، ولكن لا تُكثر عليه السؤال، أرجوك!

أركون:

لك ذلك - ثم مخاطبًا إيتوس - هيا بنا يابن النعمة؛ سنبدأ أُولى جولاتنا الآن.

رفع إيتوس حاجبًا دون الآخر بتعجب من إصرار أركون على ندائه بهذا النحو! لكنه آثر تغافله؛ فمضى عنه للأمام دون أن يرد عليه! وقبل أن يلحق به أركون أمسك هادريان بساعده وقال له:

احرص على ألا يُبدِ ما يفضحنا، إنه شاب سريع الغليان إذا رأى ما يكره.

هزَّ أركون رأسه مُجيبًا:

لا تقلق، لن أسمح له.

وانطلقا معًا نحو الميدان، كان إيتوس يتتبع أركون بجسده، بينما عيناه تجولان في وجوه الناس، وبيوتهم، وأسواقهم، وطريقة معيشتهم بفوضوية كأنه لا يريد فوات شيء منها، أو كأنه غريب حقًّا عن البلاد؛ فخفَّف ذلك بعضًا من شكوك أركون الذي كان يرقبُ كل غمضة عين منه، ووصلا إلى الميدان الذي كان يعجُّ بالناس رجالًا ونساءً.

إيتوس وهو يتلفت حوله:

أهم هكذا مع كل تنفيذٍ لعقوبة؟

أركون:

نعم

إيتوس:

ما أغرب الشعب! كيف يجد لذلك رغبة؟!

أركون:

ربما يشعرون أنها الطريقة الوحيدة لمواساة المسكين المحكوم عليه، على الأقل يرى في أعين الناس استنكارًا وحزنًا عليه؛ فيعلم أنه لم يخطئ، ويموت حينئذٍ رضِيًّا!

لم يعلم إيتوس إن كان أركون جادًّا فيما قال، أم هو ساخطٌ مُتهكم؛ فقد كانت ملامحه جامدة لا تعابير فيها، ونبرة صوته جافة لا مشاعر تحويها، كيف يستطيع ذلك في مثل هذا الموقف الذي يُوقد في الصدر نار الغضب؛ فتنفلت المشاعر حينئذٍ من الإنسان دون إدراك منه؟! فانتابه شعور أنه فتى غير عادي، وراح يحدث نفسه: (ألهذا اختاره عمي للقيادة بالرغم من حداثة التحاقه به؟!)

ثم سمع جلبة قادمة من أحد المداخل الأربعة التي تحيط بالميدان، فلما أبصر مكانها، رأى أحصنة تجر عربات يقف فوقها عدد من الجنود مدججين بالسلاح، كأنهم التماثيل في انتصابهم وتثبيت السيوف بأيديهم، كانت أربعَ عربات على كل منها ثلاثة من المجرمين! أما العربة الأولى فزادت بقائد الجنود يقف في مقدمتها بتغطرس وغرور كأنه هو الإمبراطور!

وما إن توقفت عرباتهم قرب المنصة حتى انتشر بعض الجنود حولها، وتولى البقية قيد المجرمين الاثني عشر إلى أعلى المنصة خلف القائد، فصارت الناس تتهامس:

كيف سيُعاقبون؟ إن الأقفاص أربعة فقط وهم اثنا عشر، هل سيُعصرُ كل ثلاثة في قفص؟ أم سنشهد تنوعًا للعقوبات في وقت واحد وبشكل غير مسبوق؟

ولكنَّ القائد لم يعطِ للناس فرصة أكثر للتخمين، فأخرج الصحيفة وقرأ المقدمة المكررة في كل مرة حتى وصل إلى فقرة التنفيذ، فأخبر الناس الخبر الذي

ينتظرونه؛ إذ إن الحبس في الأقفاص شمل ثلاثة فقط لعظيم جُرمهم؛ حيث قاوم كل منهم رجال الإمبراطور وهم يقومون بواجباتهم الوطنية في جمع مستحقات الدولة من ممتلكات المواطنين! أما التسعة الباقون فذنبهم أخف، ولكن تهديدهم لأمن الشعب اقتضى إنزال العقوبة بهم توطيدًا للأمن، فاستحق كل منهم عقوبة الإحراق حيًّا، ثم تقديم رماده لأهله تجاوزًا من الإمبراطور عن بقية زلاته!

وابتدأ مشهد العقاب، وسُحب الثلاثة نحو الأقفاص، ثم حُشروا فيها لتعلوا بهم حتى استقروا مُعلقين بين السماء والأرض، كانت وجوههم جافة كأن المنيَّة عاجلتهم منذ اصطكَّت عليهم أبواب الأقفاص، ثم أُدخل التسعة في سياج محكم، وأُسكب عليهم الوقود، وما إن لامس أجسادهم ووجوههم حتى علا الصراخ، وتخبطت الأيدي وهي تحاول مسح الوقود تارة عن الوجه، ثم تنتقل بسرعة لتمسحه عن الذراعين، ثم تنتقل في طرفة عين إلى البطن والفخذين، وما تلبث أن تعود مرتفعة نحو الوجه والشعر كأن النار قد بدأت بالتهامهم قبل أن تُشعل فيهم!

وما هي إلا لحظات حتى ارتقى المنصة أحد الجنود بعصا طويلة في نهايتها شعلة، واقترب من السياج ليُشعل الوقود، ولكن إشارة من القائد الذي كاد وجهه الدميم يتشقق من فرط انتشائه بالمشهد كفيلة بأن تُوقف الجندي مكانه؛ فرفع العصا إلى الأعلى كي لا تُشعِل الوقود!

وأخذ القائد يتأمل المشهد مُكتِّفَ الذراعين، تهتزُّ كرشه من شدة الضحك كأنه أمام مشهد كوميدي يُمثل بإتقان بارع!

كلُّ ذلك وإيتوس يرقبُ ما أمامه بحدقتين تكادان تخرجان من بين أجفانه فزعًا وذهولًا، قد سرت في سائر جسده انتفاضة غاضبة، وشفتاه زرقاوان من شدة الغيظ!

همس إليه أركون بنبرة مقهورة، وعيناه للأمام:

انظر إلى الخبيث، يتعمد تأخير إشعال النار؛ ليتلذذ بتعذيبهم أكثر، ما أحقره!

فتسللت إلى أذنيه تمتمة إيتوس بصوت حانق:

بوروس.. أيها المتوحش.. أيها المتوحش!

وما إن التفت إليه أركون متعجبًا، حتى انتبه لما اعترى إيتوس من غضب شديد يوشك أن ينفجر! فارتعد قلبه، وأمسك بساعد إيتوس ضاغطًا وهازًّا عليه وهو يهمس في أذنه محذرًا:

اهدأ بندار.. اهدأ، إياك أن تُبدي أية حماقة!!

فرمقه إيتوس بعينين كأنما هما جمرتان قد توقدتا غضبًا وهو يقول بصوت مسموع:

أأهدأ وأنا أرى هذا المتوحش يفعل كل هذا؟!

التفت الناس إلى إيتوس بدهشة، ففزع أركون وأخذ يجره إليه وهو يقول:

هيا لنخرج من هنا.

لم يتحرك إيتوس، بل أعاد نظره إلى القائد الذي رفع يده مؤشرًا للجندي أن يُشعل النار في الأجساد، فصرخ إيتوس بأعلى صوته:

بوروووووووس أيها الحقيييييير!

اخترق صراخه الميدان الصامت، فانتبه بوروس لهذا النيل الفاضح من مقامه، والذي كان مُتزامنًا مع صرخات المعذبين المشتعلة أجسادهم بنار هائلة تلتهمهم دون رحمة، فلم يستطع تمييز جهته، وأخذ يتلفت حوله كالثور الهائج وهو يصرخ في جنوده:

هل سمعتم هذا الصوت؟ إنه تمرد لا سابق له! اقبضوا عليه، اقبضوا عليه.

كان أركون وقتها يركض مُخترقًا جموع الناس وهو يجر إيتوس خلفه بكل قوة حتى وصلا إلى نهاية الميدان، وما إن استقرا في أحد الأزقة البعيدة المغمورة حتى صاح في وجهه:

ما هذا يا بندار؟ أهذا هو اتفاقنا؟ لقد كدَّت تُودي بنا بغبائك!

إيتوس بغضب:

كان يستحق أكثر من ذلك.

أركون:

يستحق ماذا؟ ما الذي كان سيجنيه صراخك الأخرق أكثر من أن يهدم البنيان الذي ما زال ألكساندروس يبنيه منذ عشرين عامًا! ألم نتعهد له على الكتمان والعمل بحذر؟ إن لم تكن أهلًا لذلك فاتركنا فورًا واكفنا تبعات طيشك.

إيتوس باحتقان:

لستُ طائشًا، ولكني لم أستطع أن أمنع نفسي وأنا أشاهد وجه بوروس الحقيقي.

أركون:

وهل الطيش إلا ذاك؟! لم يكن هادريان مبالغًا حين أوصاني عدة مرات أن أنتبه لتصرفاتك، يبدو أنه يعرف كنهها جيدًا.

فشعر إيتوس بالحرج حين ذكر له هادريان، واستقرت أمامه تلك اللحظة صورة عمه ألكساندروس وهو يشدد عليه بضبط النفس، كيف له أن ينسى الوصية، ومن أول موقف؟! فغمره الصمت، وأشاح بوجهه عن أركون، فاستدرك الأخير مُتفرسًا:

بالمناسبة، أنت تعرف اسم القائد بوروس في حين يجهله كثير من أهل ثيفا؛ حيث لا يشار إليه إلا بـ (قائد الجيش)، فكيف تعرفه ولست إلا ضيفًا غريبًا جئتنا من البلاد الخضراء؟!

زفر إيتوس متضايقًا، فأدرك أركون ذلك وأكمل:

حسنًا لا بأس، لستَ مُلزمًا بالإجابة، ولكني أظن أن الأيام القادمة ستجيب عن تساؤلاتي.

ثم ساد الصمت بينهما لدقائق ليست بالقصيرة، وعاد إيتوس بعدها يسأل بصوت أسيف:

هل يُقاد للمنصة كل يومٍ مثل هذا العدد؟

أركون:

لم يكن كذلك من قبل، كان العدد لا يتجاوز الاثنين أو الثلاثة في الأسبوع كله، ثم أخذ يتزايد في الفترة الأخيرة، حتى بلغ أشده بداية الشهر.

إيتوس:

وما السبب برأيك!

أركون:

أظنه عِلْمُ الإمبراطور بأمرنا.

إيتوس متعجبًا:

أوَ قد وصل خبركم إليه؟ ألستم حذرين متكتمين كما تدَّعون؟!

أركون:

بلى نحن كذلك، ولكننا يا بندار ما عدنا عشرة أو عشرين ليبقى كتمان أمرنا

سهلًا كما كان، بل صار لألكساندروس مئات التابعين من كل مدينة، فكيف لهذا العدد الهائل أن يخفى أمره؟

ثم تبسّم ثغره وهو يُكمل مُطمئنًا:

لكن لا داعي للقلق، فما يصل إليه من أخبارنا ليس بالأمر المُعين له على الوصول إلى أركاننا، هي مجرد أخبار تثير في حياته الرعب والخوف؛ أكثر من أن تُحدث ما نخشاه، وهذا يدعو للسعادة على كل حال.

ثم ضحك، أما إيتوس فسكت وأطرق عينيه الحزينتين إلى الأرض، ظنَّ أركون أنها من حزنه على الشعب فهتف:

كفى يابن النعمة، لا داعي لكلِّ هذا الحزن، ألست من أتباع ألكساندروس الذين يثق بهم كثيرًا؟! إذن فلتتحلَّ بالشجاعة، ولتُثبت له أنك بعشرة فرسانٍ قوةً وصلابة.

صمت إيتوس لحظة، ثم قال:

هلَّا أخذتني الآن لنكمل ما بدأنا.

أركون بحزم:

ليس قبل أن تعدني بضبط نفسك هذه المرة.

إيتوس:

أعدك.

أركون مستمتعًا باستفزازه:

قُلها مرتين أُخريين.

وسَّع إيتوس عينيه تعجبًا:

أراكَ تتعمد إذلالي!

أركون وهو يُكَتِّف ذراعيه:

بل أُروضك على السمع والطاعة لقائدك، فإني لا أخالك إلا ابن نعمة ما عاش تابعًا قط!

أذهلته فراسته! فاستجمع قواه لكبتِ ذهوله أن يظهر، وتمتم مُتغابيًا:

أراك تهذي كثيرًا بما لا أفهم.

ثم أكمل مُرغمًا:

أعدك أيها القائد، أعدك.

تبسّم أركون، وهزَّ رأسه راضيًا، ثم أخذ إيتوس معه للتجول في المدينة.

لم تكن جولة محمودة العواقب، مشاهد الظلم والاضطهاد التي لا يكاد يخلو منها ممرٌ بين البيوت، أو ردهة في السوق، والوجوه التي تكتنز الكثير من الحنق والألم، والأجساد التي التصق جلدها بالعظم، كأن اللقمتين والثلاث فقط هي قوتهم سائر اليوم كما حدثه أركون سابقًا، وبات ذلك سمة في كل البيوت!

ثم أخذ أركون يسأل من يلقاه من معارف الحي أو السوق عن الحال، ليس لجهله؛ فهو يعلم مصيبة كل شخص، ولكن لأنه جزء مهم من مسؤوليته المخولة له من القائد الأعلى تجاه ابن البلاد الخضراء! فإن كانت فكرة انتظار انبلاج أحد المشاهد أمامهما لا يمكن التنبؤ بوقتها، فإن السؤال عن الحال وحسب؛ كفيل بإدراك هذا التابع الجديد الحقيقة بتفاصيلها بأسرع وقت، واشتدَّ حزن إيتوس لبؤس المعيشة التي انعكست في الجلود المتصبغة، والأكفِّ المتشققة، والأجفان الـمُحلقة بسواد السهاد؛ لكثرة البكاء جراء الاكتواء بنار الأحكام، أو ربما بسبب

الرعب والخوف من غدٍ مجهول لمن لا يزال محظوظًا فلم يصبه منها شيء، لكن لا يلبث هذا المسؤول أن يصرح لهما أنه يكره الغد، وينقم على مُضي الأيام، كأنما يتمنى إيقاف الزمن عنده فلا يكون ما اسمه الغد! لأنه إن كان يومه قد سلم من طلب ابنه للعمل في مصانع الحجارة أو تحت المناجم؛ ليغيب خلفها سنوات طويلة من عمره مع جماعات الشباب الصغار قبل أن يعود لأهله؛ إن كان حظه جيدًا ولم يمُت من مشقة العمل التي لا يُطيقها رجل، فضلًا عن شاب خط عليه الشارب منذ أيام، أو ربما لأخذ ابنته بالقوة لتغيب عنه وهي تقاسي الآلام، أو لإعلامه أن منزله المهترئ قد اختير موقعه لعمل يخص أي منشأة من منشآت الدولة ولو حظيرة لبعض حيواناتها؛ فعليه حينئذٍ أن يُلملم أثاثه وأهله دون جدال ويرحل، إلى أين يرحل؟ (ليست مسؤوليتنا، فلتذهب إلى جار يُؤويك، أو قريب يتفضل عليك، أو إلى أسفل دركات الأرض! لا يهم، المهم أن تنفّذ الأمر قبل أن يُرى في تأخرك عصيانًا يقتضي العقاب لك ولأهل بيتك)؛ إن كان يومه سلم من أمثال هذا، فما الذي يضمن له عدم حصوله في الغد؟ لذلك هو يُخبر ويكرر أنه لا يريد للغد أن يأتي..

وبعد ساعتين، كان للموقف العصيب مردوده على جسد إيتوس المحموم، وعرقه المتصبِّب، كأنه عارك مخلوقًا شرسًا زمنًا طويلًا قبل أن يتمكن من الفرار والاختباء منه، شعر أنه قضى في جولته عدة أيام، ربما شهرًا، أو ربما عامًا، لا يعلم بالتحديد سوى أنها فترة طويلة خلَّفت عليه إنهاكًا شديدًا حتى أوشك على الإغماء.

أحس أركون بيدٍ تُمسك طرف كمِّه وتشدُّه بضعف، التفت؛ فإذا بإيتوس بعينين كسيرتين تنظران بفوضوية لِلا شيء، وهو يتمتم بصعوبة:

سأسقط حتمًا، أرجوك فلنتوقف، يكفيني ما رأيت، يكفيني ما رأيت.. يكفي أيها القائد.

وصل أركون وإيتوس إلى المخبأ السري قبل الموعد؛ فلم يكن هادريان قد جاء لاصطحاب (بندار) بعد، جلس أركون لانتظاره في الردهة التالية للباب، أما إيتوس فاستأذنه للدخول إلى إحدى الغرف بحجة أنه يريد أن يقضي وقت الانتظار في النوم ليستريح، دخل وأغلق الباب خلفه، مرت عدة دقائق، ثم علا صوت بكائه حتى بلغ أذني أركون، لم يكن بكاءً مكتومًا كبكاء الرجال، بل كان نحيبًا مرتفعًا، بقي أركون محله متعجبًا متجمدًا لا يتحرك رغم رغبته في معرفة سر هذا البكاء الغريب! من شخص علم بتفاصيل الأمور وأكثر قبل أن يراها!

هل كان يُكذب حديث ألكساندروس فصُدم بالحقيقة! أم أنه مرهف الإحساس إلى هذا الحد؟! حدث نفسه:

إن كان كذلك فليس في قبول القائد الأعلى به إلا ضربٌ من العبث، لكن يا ترى هل هو حقًّا ضعيف؟ فما بال القوة التي تبدو على جسده، والتي لا نراها إلا على أجسادِ أعتى الفرسان! حتمًا لم تكن رياضته في قطف الأزهار، أو تطريز الثياب، إذن فما سبب هذا البكاء الغريب؟

لم يُمهله الفتى للتخبط أكثر، فصوته بدا مسموعًا بكلمات لم يتبينها أركون، نهض من مكانه هذه المرة علَّه يعرف ما يصيح به الفتى، وما إن اقترب من الباب حتى اتضحت له الكلمات.

كان إيتوس حينها مُمسكًا رأسه، يقطع الغرفة بعشوائية وهو يصرخ بحرقة المذهول:

وارحمتاه لك يا إيتوس، وارحمتاه لك أيها الابن الغافل في رغد العيش وأطيبه، والشعب يُسقى العلقم وينهكه الظلم! يا لبؤسي وعذابي! لماذا كُتب لي العيش إلى هذا اليوم؟! ألا ليتني متُّ يوم عرفتُ استيلا فيكون كل عمري جميلًا بريئًا مما اقترفته يدُ الظالم، كلا، ما أظن هذا بشافعٍ لي.. بل ليتني متُّ قبل ذلك بسنين وكنتُ نسيًا منسيًّا!

ثم علت نبرته، وازداد تهدُّج صوته على نحو تحتار له القلوب وتتفتتُ لهوله الأكباد:

ليت صواعق السماء ترسلُ عليَّ إحداها فأرتاح! ليت براكين الأرض ونيران الدنيا تجتمع على جسدي الآن فتُحيله إلى رمادٍ تذروه الرياح! أين أنتِ يا وحوش الأرض، وأفاعي الجحيم؟! هلمِّي إليَّ ومزقي جسدي أشلاءً، ثم انثريها في كل بقعة من الأرض؛ فلا أعرف نفسي ولا يعرف جسدي بعضه، ما أتعسك يا إيتوس! وما أشقى عمرك حين بلغت هذا اليوم! يا ليت أمي أصرَّت على الموت حين أتاها أن يأخذني معها؛ فلم أعرف الدنيا ولم أرَ بؤس ثيفا.

ثم جثا على الأرض، وعلا بكاؤه أكثر من ذي قبل؛ كأنه نسي العالم من حوله، بل وكأنه نسي أن قائده يشاركه نفس المخبأ!!

كان أركون مُتسمرًا في مكانه، شاحب الوجه من هول ما سمع، لا يعلم ما الذي اعترى هذا الشاب، ومن يكون إيتوس الذي يرثي له، ولمَ كل هذه الغرابة في الندب والحسرة! أهو ضربٌ من الجنون؟ أم هي ذكرى قاسية أوقدتها مشاهد اليوم؛ فتجدد عذابه بهذا الشكل؟!

اضطرب أركون فصار يمضي عن الباب ثم يعود إليه في تتابع كأنه لا يعلم ما يصنع، تمتم:

ألستُ أنا القائد وهذا الفتى أحد أتباعي؟! ما بالي أتركه في وضعه دون أن أدخل لمواساته والتخفيف عنه، أو لدفع الجنون الذي كأنه يسعى للفتك به! سأدخل الآن.

وضع يده على المقبض لفتحه؛ فراودته فكرة أن يُربكه وضع الشاب فيقف محله كالأبله لا يعي ما يجب عمله، أنزل يده عن المقبض، وعاد للذهاب والمجيء بحيرة واضطراب متوازنين مع أسفه على هذا الشاب، بقي على حاله زمنًا قبل أن يقرر العودة لمجلسه الأول حتى يأتي هادريان؛ فينظر وضع الفتى، أخذ يغمغم:

إنه يعرفه جيدًا، وبالتأكيد يعرف ما اعتراه، إن بدا لي ضرب من ضروب الضعف؛ اعترضتُ على انضمامه إلينا دون هَوادة.

زفر بعمق، ثم أتم وهو ينظر إلى الأعلى:

أسرع يا هادريان، أسرع، فما عدتُ أحتمل ما أسمع وأرى!

وما هو إلا وقت يسير حتى أقبل هادريان.

- أين بندار يا أركون؟ لا أراه معك!

- في تلك الغرفة، زعم أنه يرغب في النوم، ولكن ما إن أغلق على نفسه الباب حتى دخل في نوبة بكاء كأنه طفل شريد، وسمعته يهذي بما لم أفهمه!

ثم بنبرةٍ حادة ونظرة صارمة: إن كان مجنونًا يا هادريان، أو فتى مهزوز القلب، فلا حاجة لي به؛ فيدان مرتعشتان كهذه لن تقوى على البناء.

لم يرد عليه هادريان، بيدَ أن عدم الاستغراب اتضح على وجهه ممزوجًا بمشاعر فاضحة من الحزن، ثم توجه إلى الغرفة متجاوزًا أركون، وما إن فتح بابها حتى وجد إيتوس أمامه في حالة يُرثى لها.

خطا نحوه بهدوء، ثم جلس أمامه وأمسك كتفيه، وقال بصوت خافت:

سيدي إيتوس.

رفع إيتوس إليه وجهه، وعيناه تفيضان بالدموع دون أن يرد، فغمر قلب هادريان شفقة كبيرة عليه وهو يراه يغرق في ظلمات الواقع التي ما تزال تهوي به في قاعها دون رحمة، وسَّع ذراعيه وأحاطه بهما، وراح يحاول تهدئته والتخفيف عنه؛ إلا أن نحيب الأمير ازداد، مرّت دقائق طويلة قبل أن يتمكن الهدوء من قلبه بعض الشيء، همس له هادريان بالعودة إلى القصر، طالعه إيتوس بهوان، وأومأ بالموافقة، وقف هادريان ومدَّ يديه نحوه، أمسك بهما إيتوس؛ فرفعه هادريان بقوة كأنما يريد انتشاله من تلك الظلمات إلى أفق الأمل، أمل ثيفا الثكلى، فيُصيِّره الشمس التي ما تزال تتحرى إشراقها عليها منذ عشرين عامًا.

❊ ❊ ❊

لم تمضِ ساعة بعد ذلك حتى كان إيتوس جالسًا على سريره في غرفته بالقصر، ضامًّا يديه إلى بعضهما فوق فخذيه، وبجانبه هادريان، كان إيتوس أهدأ من ذي قبل، غير أنه لم يتكلم، ولازمه صمت كسيف، فلم يستطع هادريان التحمل أكثر؛ فأمسك بيديه، ونظر في عينيه طويلًا مُتمعنًا كأنما يستجمع قوة نبرته، ثم قال أخيرًا:

أتفَهَّمُ كل ما اعتراك يا مولاي؛ فأنت ابنه.. ابنه الذي لم يكن يعلم عن والده إلا أنه طيب الحُكم، عَدْل الرئاسة، ثم خُذل! لكن أرجوك يا مولاي، تماسك، تماسك، واشدد على قلبك فلا يضعفنَّ، إنها مسألة وقت، وسينكشف عنك ما أغمَّك؛ فما الحياة إلا اعتياد، الحلو في بدايته حلو، ثم ما يلبث أن يُعتاد فيصير كغيره، والمرُّ كذلك ما هي إلا لحظات تطول أو تقصر، ثم يصيرُ أمرًا مستساغًا،

اهدأ وحسب، واذكر ما بعد ذلك؛ فما بعده إلا أن تضحك الوجوه التي عاينت انكسارها وعجزها هذا اليوم حتمًا إن عزمتَ أمرك، وأمضيتَ رغبتك في إغاثة أصحابها.

ثم تابع وهو يشد على يديه بقوة أكبر:

ونحن جميعًا معك، من القائد الأعلى ألكساندروس إلى أصغر تابع، لن نخذلك ولن نُسْلِمك، نحن منك يا إيتوس وأنت سيدنا.

تنهد إيتوس بعمق قبل أن تخطَّ ابتسامة ذابلة على شفتيه، ثم رفع وجهه إلى هادريان، وأومأ بالموافقة.

وقف بعدها هادريان، وانحنى لسيده إجلالًا، ثم غادر الغرفة، وما إن أغلق بابها حتى اضطجع إيتوس على فراشه ببُطء؛ كأنَّ في عظامه آلامًا!

رفع الوسادة وغطى بها وجهه المتعب، ولم تمضِ لحظات حتى أخذ جسده يهتزُّ بقوة وهو يشد الوسادة على وجهه، كأنه كره أن يُسمع نحيبه حتى من الهواء!

الفصل العاشر..
الحَنين

هناك في التل، تلِّ الألوان كما يسميه غريدا الحب، تعيش استيلا أيامًا صعبة قلقة على إيتوس، فهي لم تلتقه منذ أربعة أشهر، وقد أخبرها في آخر رسالة له أنه سيغيب لثلاثة أيام، ثم سيعود يحمله إليها الشوق والغرام.

أين هو الآن؟ ما الذي أصابه؟!

ما إن يدور هذا السؤال في خاطرها حتى ينقبض قلبها خوفًا عليه، فتعيد الرسالة إلى مكانها تحت وسادتها، وتنهض من سريرها بسرعة منهمكة في أعمال المنزل علَّها تطرد هذا الخاطر المشؤوم عن مخيلتها، وما إن تباشر العمل حتى تتلقفها ذكرى أخرى أشد قسوة، تهيج في قلبها لوعة الاشتياق العظيم لرفيق الطفولة، وأول الشباب؛ أخيها كريستيان.

تتمتم:

كم كنتَ نعم الأخِ والصديق، ليت والدينا نأيا بنفسيهما عن المدينة وسكنا في هذا التلِّ قبل أن تؤخذَ منا؛ فنُحمى حينئذٍ معًا، ألم يُفكرا في ذلك سابقًا حتى فقدناك يا كريستيان؟ يُعيد عليَّ والداي دومًا أن أنساك؛ فلا أمل بعودة من يغيب تحت المناجم يستخرج للإمبراطور وابنه كنوز الأرض؛ لتضيف لثرائهما الباذخ ثراءً، ولا تزيد من الشباب الكادح تحتها إلا ضعفًا يقرب أرواحهم الصغيرة إلى المَوت، ألا ما أتعسَ حظك يا كريستيان أن وقع عليك الاختيار؛ فغبت عنا دون أمل للعودة.

ثم تستدرك بأسى:

هل قلتُ دون أمل؟ كلا، بل في قلبي أملٌ أن ألقاك، ربما بعد خمسين أو أربعين عامًا على أقل تقدير كما يقولون، سيكون عمري وقتها قد شارف على الستين وأنت في السبعين، وقد يكون والدانا متوفيين، لكن وعلى مرارة هذا الأمل وقسوته؛ سأظل أتمسك به.. يقولون إن التمسك بالأمل يجعلك تعيشه حقًّا؛ إذن فما الضير أن أتمسك بأمل عودتك كل يوم؟! أجل سأبقى أنتظر عودتك لنلتقي حين نشيخ.

ثم أسرعت في تنظيف الدار؛ لتخرج من هذا الطائف الكئيب الذي يلازمها كلما خلا البيت من غيرها، فالوالدان في المدينة ينزلان نحوها كل صباح، ولا يعودان إلا قرب الظهيرة، وقد يتأخران في العودة إلى المساء؛ فتعيش وحدة قاتلة تُمنِّي نفسها دائمًا بالخلاص منها يومًا ما.

حملت الدلو، وخرجت إلى البئر، ما إن مشت بضعة أمتار حتى أطلت عليها قمة التلِّ المكسو ببساط الأزهار البديع، فرأت خيال صاحب الرسالة يقف هناك في الأعلى، فتفجر الحنين في صدرها، وأشاحت وجهها مباشرة لتكمل مسيرها نحو البئر علها تخفف عن قلبها وجع الحنين، ولكن سرعان ما سألت نفسها بقلب كسير:

هل قضت عليَّ الأقدار أن أعيش على طيف الذكريات؟ ليتها لم تكن، وليت ذاكرتي لا تحمل في طياتها إلا اليوم!

عادت إلى البيت وأفرغت الدلو في القدر الكبير استعدادًا لطهي الحساء؛ فقد يصل والداها في أيَّ لحظة، وسيكونان جائعين حينها من طول العمل، أشعلت النار

تحت القدر، ثم شرعت تقطع الخضروات قبل أن تضعها في القدر، وأضافت إليه ما يحتاج، ثم تركته ليبدأ بالغليان، آخذًا طريقه إلى النضوج.

اتجهت بعد ذلك نحو خزانتها، وأخرجت نايها الذهبي، تأملته مليًّا وهي تقلبه بين أصابعها بهدوء، لا تعلم لمَ ساقتها قدماها نحوه بعد أن هجرته طيلة الأشهر التي غاب فيها إيتوس، ربما كانت تشعر أنه أصبح شيئًا يخصه، وليس من الذوق استعمال ما يخص الآخرين دون إذنهم!

تُغمغم:

ما أصعب أن يربط المرء محبوباته بإنسان؛ لتستحيل حين الفراق إلى ذاكرة من النسيان! أحقًّا كنتُ أستعمل النَّاي قبل أن أعرف إيتوس؟ ولماذا أصلًا كنت أستعمله؟!

زفرت بحسرة، ثم عززت لنفسها أنه شيء يخصها هي، وكل ما في الأمر أن إيتوس أضفى عليه جمالًا؛ فأحبت العزف أكثر، رفعت رأسها إلى الأعلى وفي عينيها الأسى:

أين أنت يا إيتوس؟ أهان عليك الفراق؛ لتجافيني كل هذه المدة؟!

قاومت نفسها وحملت النَّاي، ثم خرجت إلى التل كأنها عزمت أن تعزف عليه؛ لتستحضر ذكراه بقوة، فتعيش إحدى اللحظات الجميلة معه، ويحدوها الأمل للُقياه (ألم يقولوا إن التمسك بالأمل يجعلك تعيشه كحقيقة! إذن سأتمسك بأمل عودته إليَّ هو الآخر).

مضت نحو التل، وما إن استقرت أعلاه حتى أخذت عيناها تجولان في المكان، وتمعنان في كل بقعة، وصوت بداخلها يتحدث:

(هناك كنا نجلس دائمًا إن اشتدت الشمس؛ حيث ظل الشجرة خلفنا تؤوينا معًا، وتلك البقعة؛ لطالما طفقنا نحكي فوقها حكايانا، وهناك، هناك؛ حيث زهرة الياسمين التي يحبها تنبت هناك بكثرة، تغرينا بالمكوث عندها، ونصنع منها العقود البهيجة).

ثم ضحكت بخفة وهي تقول:

كان لا يجيد صنع العقود، ثم لا أجدُ إلا أن أمتدحها مجاملة له، هل سيسامحني إن علم أني كنت أخدعه؟ لكني لم أكن أقصد إلا تطييب خاطره على محاولاته.

تطلعت إلى اليمين، فرأت الشجرة التي أطل عليها من خلفها أول مرة وهو يُصفق إعجابًا بعزفها، تأملت تلك الناحية طويلًا حتى ارتفعت من صدرها تنهيدة عميقة أيقظتها، جلست على الأرض، وبقيت لحظات في شرود، ثم أخذت تتحدث كأنه يسمعها:

لمَ ظهرتَ لي في حياتي؟ ألم يكن الأجدر بك حين مررت ذلك اليوم من هنا أن تمرَّ مرور الكرام، فلم تحدثني ولم أحدثك، لمَ عرفتني عليك، وجذبتني نحوك بقوة؛ لأعلق في حبك، ثم تختفي؟! هل تعاقبني على أمرٍ اقترفته لم أدرِ ما هو! أم أن مكروهًا أصابك فلم تقدر على العودة؟! إن كان قد أصابك سوءٌ فليته حلَّ بي بدلًا عنك، فأنا مُعتادة على الألم منذ فارقني أخي؛ فقد أكلَم رحيله شغاف فؤادي، ولا ضير لو زاد الألم عليَّ جرعاته، ولكنَّي ما أظن أن وجهك اللطيف ذاك قد جرت عليه لمسة ألم واحدة، ليت مُصابك استأذنني قبل أن يزورك، كنتُ سأمنعه حتمًا، أو أفديك بنفسي ليعفيك، ولكن ما بيدي تجاه الأقدار حيلة.

ثم ضمّت قدميها، وأرخت وجهها بإنهاك فوق ركبتيها، وبقيت صامتة لعدة لحظات، ثم أخذت تُتمتم وفي صوتها ارتعاش وتقطع:

ليت الذاكرة في عقولنا تُجدد، بل ليت تلك الزاوية العميقة منها، والتي يسكنها الفقد تُطمس؛ فلا يعد له مكان، آآه ما أقسى الفقد! كأني به مخلوق شرس ينهش قلوبنا دون رحمة كلما أفلت من عِقاله، ليت العقال يوثق جيدًا فلا يتفلت علينا ثانية، بل ليت الزاوية تُمحى؛ فلا المخلوق الشرس يرقبنا منها يتهددنا، ولا مكان يؤويه أصلًا.. أجل.. ليت ذاكرة الفقد تمحى وتطمس.

ثم غلبتها الغصة فزادتها عذابًا وهي تردف:

على كلٍّ لن أسامحك على غيابك الطويل، لن أسامحك أن علقتني بك، ثم رحلت، مهما كان السبب فلن أسامحك.. إيتوس.. إيتوس.. أين أنت الآن؟

ثم تحدرت دمعتان حارَّتان لفحت وجنتيها، وانخرطت باكية.

* * *

في القصر كانت الأمور على غير ما يرام؛ فالإمبراطور هائج غضبان من الأخبار التي تتوالى عليه بوجود انتفاضة خفية تتسلل في مدن ثيفا وقراها.

شيشرون:

إلى الآن لا نعلم من قائدها ومن ينتمي إليها حقًّا؟! كلُّ ما نعلمه أنها موجودة، والدلائل تشير إلى ذلك.

كاليجولا بغضب:

اقتلوا كل من يُشكُّ فيه، بل عذبوه.. عذبوه قبل أن تقتلوه.

شيشرون:

نحن ننفذ أمرك هذا منذ أصدرته قبل خمسة أشهر، لكن اسمح لي يا سيدي؛ فلم يُجدِ ذلك نفعًا! صرنا نقتل بالشكِّ فقط، فكيف سنصل بالشكِّ إلى اليقين!

كاليجولا مُوسعًا عينيه الحمراوين:

ما الذي تقصده يا شيشرون؟!

شيشرون:

اسمح لي يا مولاي، علينا بالهدوء وضبط النفس، فالغضب الجامح قد يضر أكثر من أن يفيد، أتمنى لو نعتمد زرع الجواسيس بين عامة الشعب، وتخفيف أحكام القتل عما مضى؛ فإنه إن عمَّ الهدوء أرجاء البلاد، وعملنا بالخفاء كما هم يعملون، وصلنا إليهم حتمًا، أما إن استمر عقابنا الصارم هذا؛ فقد نقتل المظلوم، وندع الظالم يعيث في أرضكم فسادًا.

فزَّ كاليجولا واقفًا، ومضى نحو شيشرون يزبد ويرعد:

أي ضبط للنفس تدعو إليه؟! بل أي حماقة تتفوه بها يا شيشرون؟! ما عهدتك أخرق هكذا! كم سيستغرق زرع الجواسيس، وكم سيأخذ منا العمل البطيء في اجتثاث هذا التمرد؟ ما أخالنا إلا وقد وصل العدو إلى عُقر دارنا مُسلطًا علينا سيفه، ونحن لا زلنا نعمل بهدوء!!

أطرق شيشرون رأسه، واجتاحه الحرج؛ فصمت.

كاليجولا:

لن نسمح لهم، لن نسمح لهم.

شيشرون:

وما الذي سنفعله إذن؟

علا صراخ كاليجولا وأطلق سبابته متوعدًا:

سنستمر على ما نحن عليه، سنقتل كل من يُظهر الولاء لهذا التمرد ولو بنظرة، بل سنُقتِّل معهم أبناءهم، ونستحيي نساءهم، سنُسقطهم رأسًا رأسًا حتى نصل إلى كبيرهم؛ وإنَّا فوقهم قاهرون![1].

انحنى له شيشرون وهو يردد:

أمرك مولاي.

ثم خرج لا يلوي على شيء، ولا يركن لشيء، يشعر لأول مرة أنه ضائع، لا يدري أرأيه أحسن أم رأي كاليجولا؟! لو كان يثق بصحة رأيه لأقنعه به بطريقته، ولكنه يخاف أن يكون رأي حاكمه أصوب؛ فما إن يُزيحه عنه حتى يهلكا معًا!

أخذ يُتمتم:

ما رأيتني أتخبط هكذا من قبل! أما كان رأيي نافذًا دومًا! ما بالي اليوم أراه يضحك لي ثم يُكشر! يلمع أمام عينيَّ ثم يحترق!!

مرر يده على جبهته يمسح العرق المتصبب منها بغزارة وهو يشعر بكُره موقفه؛ لطالما تمنى الفرصة السانحة لزوال كاليجولا ليحلَّ محله، ثم يجد نفسه الآن مُرغمًا على إنقاذه!

أردف:

أما لاحت هذه الفرصة التي انتظرتها عقدين من الزمن إلا على يد الشعب البغيض! ليتها حانت في ظروف تُكَلل بها سعادتي، ما أشك أن يُقدم الشعب قتلي

---

(١) مقولة فرعون موسى؛ فالطغاة يشبهون بعضهم وإن اختلف بهم الزمان!

على قتل كاليجولا وهو يعلم أني أكثر منه أمرًا ونهيًا فيهم منذ أن صار حاكمهم! لا أعلمُ هل ستتسلل رائحة عفوٍ عني إلى قلوبهم إن تمكنوا؟ هل سيدركون أني أعزل لا أقوى على شيء؛ فيشملني عطفهم؟ أليس همُ شعب ثيفا الذي عُرف بطيبته؟

ابتسم كأنه استراح لهذا الخاطر، ثم مضى قليلًا يُعيده ويُكرره في رأسه، وفجأة؛ اكفهرَّ وجهه، وضرب الأرض بقدمه بقوة وهو يزمجر:

هذا محالٌ وقد قتلت منهم الآلاف، وسلبت منهم الأهل والمتاع، ما أخالني إلا فريسة مجنونة تحاول استجداء العطف من مفترسها، كلا لن أقف هذا الموقف أبدًا؛ إني لأنا العزيز الكريم! الويل للشعب، الويل للشعب، واللعنة على من يستدعي كرم العيش بعد أن أَلِفَ الذلة!

ثم مضى نحو قصره، والأرض على سعتها تكاد تطوقه وتخنقه من شدة همِّه، واضطراب فؤاده.

❊ ❊ ❊

في اليوم التالي، وبعد أن عاد إيتوس من أحد أسفاره الخفيَّة نحو عمه، ذهب إلى حديقة القصر؛ إذ كان يجلس فيها والده وشيشرون وقائد الجيش وقائد حرس القصر يتحادثون في مستجدات الأمر، ما إن رآه والده حتى انبسط وجهه بابتسامة شاحبة متعبة، فغمر قلب إيتوس شفقة عليه لم يُبدِها له، ثم قبَّل يده، وجلس بجانبه.

كاليجولا:

لقد كثر غيابك يا بني، وأنا أحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى!

إيتوس:

إنها رياضة الصيد يا أبي، تأخذ مني الوقت الكثير، وكذلك السفر لاقتناء حاجياتها.

شيشرون ببسمة خبيثة:

لكنك تحب الصيد منذ بلغتَ السابعة، وما كنتَ تغيب الأيام سفرًا لأدواته!

فما الذي تغير يا مولاي ولي عهد البلاد؟!

اصطبغ وجه إيتوس بحمرة حنقٍ وهو يتمعن ابتسامة شيشرون، ثم أعرض عنه دون أن يجيب.

كاليجولا باستعطاف:

شيشرون معه حقٌّ يا حبيبي، فما كنتَ تغيب عني وتتركني وأنا في حاجتك!

صمت إيتوس لحظة، ثم قرَّر أن يُجابه عدوه بالخفاء كما فعل؛ فأجاب:

وهل يجب عليَّ أن أبقى جامد الفكر، خامل الإرادة، حتى أموت؟ أليس من حقي أن أفيق يومًا؛ فأسعى لمجدي كإنسان حرٍّ شامخ الهدف؟!

فتغير وجه شيشرون، واختفت ابتسامته!

كاليجولا وقد استطاب كلام ابنه:

بلى، يا بني.

إيتوس مُمعنًا الوصف وقد أدرك فهم شيشرون له:

إذن فأخبر صاحبك أنه لا يخبو من نظنه أعمى وقد أوتي نور البصيرة؛ فرأى الأنوار والشموخ الذي وهبه الإله في داخله، واستلطف أمامه الحياة الكريمة التي

خُلقت له، وجُعلت حقًّا له لا سلطة لأحد أن يسلبها منه، حينها حتمًا سيُحلق عاليًا كالنسر لا يهاب طاغيًا مستبدًا.

ثم أردف سائلًا:

أليس معنى اسمي الذي اخترته لي هو النسر؟

والده باسمًا رغم عدم فهمه ما وُصف:

بلى بلى، إيتوس هو النسر.

فنظر إيتوس إلى شيشرون، وفرَّج بين شفتيه ببسمة غامضة وهو يقول:

إذن هو ذاك..

ثم نهض، وراح يخاطب والده:

ومن اليوم وصاعدًا، ستجدني بجانبك لا أغيب عنك لحظة واحدة، وستطيب أمور ثيفا كلها يا أبي؛ فقرَّ عينًا بذلك.

ثم مضى، سالكًا طريقه نحو هادريان ليخبره الخبر، كان يضحك وهو يقول:

لو رأيت وجهه المجعد كيف ازدادت شيخوخته مئة سنة أخرى لـمَّا سمعَ ما قلت.

هادريان بتعجب:

كيف قلت ذلك وأنت تعلم فهمه الحاذق؟! أما تخشى أن يفضح أمرنا لوالدك بعد أن أيقن توجهك!

إيتوس بثقة:

أبدًا لن يفعل، فهو يعلمُ أن أبي لن يكتفي باتهامه لي، بل سيسألني عن صدق تهمته، وهو يعلمُ أيضًا أني سأجيب بالنكران؛ فيحل عليه غضب حاكمه إلى الأبد.

هادريان بقلق:

هل أنت متأكد من هذا؟ ألا تخشى مكره؟!

إيتوس:

متأكدٌ.. ولا داعي للقلق، إن شيشرون يُدرك حبَّ والدي لي، وهو السبب ذاته الذي ما استطاع به أن يجبرني على سفاسف العيش التي ما ترك حيلة لإيقاعي بها، اطمئن يا هادريان، ودعني أستمتع بهذه اللحظة التي يعيش فيها الآن شيشرون بين نارين، حقيقتي التي أدركها وتشكل له الخطر، وعجزه عن إيقافي.

هادريان:

ولكنني أخشى عليك خبثه.

إيتوس:

تقصد تفكيره باغتيالي؟ كلا لا تخش ذلك؛ فلن أبرح القصر حتى يأذن لي عمي، فمهمتي هذه الفترة دراسة القصر، ولن يستطيع شيشرون التفكير بالتخلص مني وأنا فيه، أو حتى في رحلات صيدي! فهو يدرك علم والدي أن لا أحد أعاديه سواه، ولن يتوانى حينئذٍ عن اتهامه إن غدر بي يا هادريان!

ثم نهض وهو يقول:

لنمضِ الآن إلى تلِّنا.

هادريان بتفاجؤ:

أوَعزمت؟ هلَّا فكرت في قرارك قبل أن تُمضيه!

إيتوس:

قد فكرت فيه مليًّا وانتهيت، وسوف أخبرها.

هادريان باستسلام:

لكَ ذلك يا مولاي.

ثم انطلقا نحو التل.

وقفا بفرسيهما خلف الأشجار العالية، ثم نظر إيتوس إلى قائد حرسه وخاطبه:

هذه المرة ستأتي معي.

هادريان بتلعثم:

آتي معك! أرجوك، أرجوك أعفني من ذلك يا مولاي.

إيتوس بإصرار:

أبدًا، لكنك ستأتي بصفتك صديق البحار من البلاد الخضراء، وإلا فما ظنُّك حين أرسلتك البارحة لاقتناء لباس آخر من سوق المدينة؟! لقد أردته لك يا هادريان.

زفر هادريان باستسلام وهو يجيب:

أمرك مولاي.

أوثقا رباط خيليهما عند إحدى الأشجار في عمق الغابة قبل أن يُبدلا زيهما بزي العامة، ثم انطلقا إلى وجهتهما، لم تمضِ بهما أقدامهما بضع خطوات حتى تهادى لسمعهما عزفُ النَّاي، فتوقفا مكانهما منصتين.

إيتوس:

كأنه اليوم أشد حزنًا عمَّا كان!

طالعه هادريان:

ربما خُيِّل لك ذلك يا مولاي لطول الفراق.

لم يرد إيتوس، بل أخذته قدماه نحوها يتبعه قائد حرسه الشخصي، وقف إيتوس مكانه الأول ينظر إليها وهي لا تراه، يتأملها وهي حانية على نايها لا تشعر به، بقيَ هكذا للحظات تتلألأ شفتاه بابتسامة المشتاق، ثم همس:

ما يزال وجهها أبيض وضاء كما عهدته؛ كأن البدر يشاطره نوره، ووجنتاها ما تزالان بلون الورد، تصرخان حُمرةً وجمالًا، ثم تنهد: ما أبهاها!

ثم وهو يرفع عينيه إلى شعرها الذهبي، ويتحدر معه على ظهرها، وعيناه تتسعان إعجابًا حتى استقرتا مع شعرها على الأرض: كأنه ازداد طولًا!

عادت العينان إلى وجهها فضحكتا؛ وهمس يلذعه الغرام:

انظر، ما أوسع مُقلتيها حتى وهما مغمضتان، كأنهما صفيحتان مصقولتان، فاتنتان تسلباننني لُبِّي كلما نظرت إليهما،

ثم أغمض عينيه باسترخاء وتابع: أشعر بأهدابهما تلامس وجهي برقة؛ أشعر بذلك كلما رفَّتا.

نظر إليه هادريان بدهشة، ثم غالب ضحكته.

ازداد شعور الالتياع في قلب الفتى حتى كاد يُحرقه، يتمنى أن يُسرع إليها الخطا صارخًا:

تبًّا للبُعد، تبًّا للانتفاضة، تبًّا لعمي وتبًّا لكل الشعب الذي أبعدني عنك، ثم يجذبها نحو صدره فيضمها؛ ليغمره الأمان بقربها، ويظل يحتضنها مئة عام لا يرسلها ولا يسمح لها بالذهاب حتى يشبع منها «هل ستكفيني المئة عام؟!» أغمض عينيه بقوة، وقد تورد وجهه وخفق قلبه كأنه عاش الخاطر واقعًا، فأخذ يهزُّ رأسه كأنه يريد نفض الخاطر الذي ما زال ينكر على والده أشباهه! وراح يجدد

على نفسه العهد ألا ينقض مسلكه حتى يتملكها، ثم رفع جفنيه عن عينيه البُنيتين يرقبها؛ فازداد خفقان قلبه؛ حتى كادت أُذنا هادريان أن تسمعا صوت دقاته، وضع يده على صدره كأنما يُهدِّيه، ثم تبسّم وشعر بالغبطة أن هذه الأنثى الخلابة هي حبيبته.

انتهت من معزوفتها الأخيرة، فرفعت عن الثقب شفتيها، وعن العينين جفنيها، تنظر بهما إلى الأمام كأنهما ناعستان من شدة أحزانها، فتهادى لأذنيها صوت تصفيق!

أغمضت عينيها بغيظ، وتمتمت بألم:

يا إلهي.. هل أُفلت العِقال من جديد؛ لتنهشني تلك الذكريات القاسية مرة ثانية؟!

ثم انتبهت لحقيقة الصوت! ففزَّ له قلبها، ودُهشت عيناها وهي تنهض، كانت تنظر إلى المكان نفسه، ها هو يقف أمامها بهيبته وجمال ابتسامته مصفقًا لها بإعجاب، تخبَّط خاطرها:

هل أنا في حلم؟ أهذا إيتوس حقًّا! أم هو الخيال الذي أراه في المكان كل يوم؟!

لم يدعها تتخبط أكثر؛ فأسرع الخُطا نحوها وهو يهتف بأعلى صوته فرحًا:

استيلا.. يا نجمتي المتألقة.

فتقوست شفتاها وارتجفتا، وضبب الدمع رؤيتها؛ ثم تساقطَ مُوسعًا لعينيها رؤيته من جديد وهو يقترب منها، فأيقنت أن ما تراه هذه المرة حقيقة لا خيالًا، فخفَّت قدماها هي الأخرى نحوه، وشاهدها تقبل إليه مسرعة وهي تلهج باسمه فابتهج، ارتمت في حضنه فارتبك! لم يدرِ لمَ ارتبك؟! أمن طول مدة الفراق؟! أم

أنه تفاجأ بفعلتها؟! ولـم تمضِ برهـة حتـى استنشـقت روحـه عطرهـا فغـاب عقلـه، وغابت معه عهوده ومواثيقه مرسلًا يديـه خلفهـا يعانقهـا باشـتياق، ثـم رفـع إحـدى يديه إلى شعرها يمررها بين خصلاته الذهبية وهو يهمس بحنان:

اشتقتُ إليك يا حلوتي، ولم أتحمل البعد عنك، كدتُ أموت لو أنني زدتُ يومًا واحدًا بعيدًا عن مرآك.

رفعت وجهها نحوه وصوبت إليه النظر وهي تصرخ بصوتٍ باكٍ:

تكذب.. أنت تكذب يا إيتوس.

وسَّـع عينيـه تعجبًـا، وأخـذت تضـربه علـى صـدره بقبضـة يـديها وهـي تبكـي وتشهق:

ما الذي يمنعك مني لتجافيني كل هذه المدة؟! لا أراك مصابًا، ولـم تصـل إلـيَّ جثـة لأصـدقك، لا أشـك الآن أنـك كنـت مـع إحـداهن، أهـي أجمـل منـي لتنسـاني هكذا! أم هو لعبُ شبابك الخائن؟! ما أحقرك! ما أحقرك لتفعل هذا معي! إن جئتَ الآن لتعلقني بك ثانيةً ثم تذهب من جديد؛ فلا حاجة لي بك.. قد اعتدتُ غيابك؛ فلا توقظ الألم في فؤادي ثانيةً ثم ترحل، هل تفهم؟

ثم وهي تُغمض عينيها وصوتها يعلو: لا توقظه ثانيةً ثم ترحل يا إيتوس!

تأملها برهة مندهشًا، ثم تبسّـم، استغربت بسـمته؛ فتوقفـت عـن الضـرب وهـي تشهق بتتابع، همس بنبرة عذبة يُلاطفها:

وهل في الدنيا نجمة غيرك لأستبدلها بكِ؟ في السماء نعم، ولكن في الأرض هي واحـدة تـدعى اسـتيلا، إن رأيتنـى يومًـا أملـكُ جنـاحين يحلقـان بـى نحـو السـماء فاتهميني، أمَّا وأنا لست كذلك؛ فلا تذهبي ببالك بعيدًا! صدقيني يا حبيبتي ما غبتُ

إلا مجبراً، وستنبيك الأيام صدق كلامي، أقسم لك يا استيلا، أقسم لك.

ولما أدرك هدوءها هتف مبتهجًا:

ما ظننتكِ تحبينني إلى هذا الحد! أنتِ حقًّا مجنونة بي دون ريب، لمَ كنتِ تخفين هذا عني؟ أكنتِ تكابرين أيتها المخادعة؟

اضطربت لقوله، وأشاحت بوجهها وهي ترد بصوت متقطع من أثر البكاء:

ما الذي.. تهذي به.. أنا.. أنا لا أفهمك.

ضحك، ثم أجاب:

بل تفهمين كل حرفٍ نطقته.

ثم نظر إلى يديها وتابع:

ثم ما بالك توقفتِ عن ضربي الآن؟ لو تعلمين كم استطبتها كأنها جرعة حياة، تلك التي تتغلغل مع رشفة الماء للظمآن حين أدرك قربه من شفتيه؛ بعد أن كاد يهلك.

وراح يتحسس حزامه وجيب بنطاله بيديه قبل أن يلتفت إلى هادريان وهو يقول:

أووه.. نسيتُ خنجري معك؛ فأعطنيه.

أعطاه هادريان وعلى ملامحه الحيرة! وما إن استلمه إيتوس حتى مدَّ به لاستيلا التي لم تكن بأقل حيرة من هادريان وهو يقول:

هاكِ خنجري فاطعني به صدري، إنكِ بذلك تُثبتين شدة حبك لي وقربك مني؛ فامنحيني هذا الشعور، وأنا أعاهدك أني سأوصي بالعفو عنكِ؛ لأنني شهيد حبك.

لم تطل دهشتها حتى اجتاحتها ضحكة لا تعلم من أين خرجت، باغتتها بقوة

فظهرت قبل أن تداريها بأصابعها، ولم يكن هادريان بأحسن منها حالًا، فهمس لأميره:

لقد أصابك جنون الحب دون شك!

لم يسمعه إيتوس، أو ربما ذُهل عنه، وعن كل صوت، وعن كل موجود سواها، كان يتأمل وجهها الضاحك مُخالطًا أثر البكاء الباقي عليه، فمدَّ يديه وأحاط بوجهها الصغير، ثم همس ببشاشة وبنبرة لا تُخفي هيامه:

نسيتُ أن أقول لكِ، جميلةٌ أنتِ حتى عندما تبكين[1].

اصطبغ وجهها بحمرة قانية، فأمالت عينيها، وأدرك هو الموقف فأنزل يديه بحرج حين تذكر وجود هادريان بجانبه تمامًا، حكَّ مؤخرة رأسه وهو يتظاهر بالضحك.

دسَّ هادريان يديه في جيبيه وهو ينظر بعيدًا بوجه يُخفي وراءه ضحكته المكتومة، ويقول:

لهذا ما وددتُ صحبتك، لكن أستطيع العودة الآن، واقضيا بقية اليوم معًا، ستجدني أنتظرك في مكاننا المعهود.

إيتوس مُستبقًا:

كلا، فلم يبدأ دورك بعد.

ثم نظر إلى استيلا وهو يشير بيده نحو هادريان:

---

(١) بعض النساء وجوههن جميلةٌ وتصير أجمل عندما يبكين

«نزار قباني»

هذا صديقي الوفيِّ الذي علّمني ركوب البحار، إنه لا يدانيه في مهارته حتى أقدم البحارة.

استيلا ببسمة رقيقة:

حقًّا؟ هذا مدهش!

إيتوس وقد ازدادت حماسته لما رأى تبسم ثغرها:

أجل، فلقد قتل يومًا مخلوقًا بحريًّا لم يُرَ مثله قط، له ألف ذراع، وخمسمئة زعنفة، وفي مقدمة جسده خمسة رؤوس، كلُّ واحدٍ منها يزن سفينة كاملة، قتله لوحده ودون عونٍ من أحد، ثم أشار بكلتا يديه نحو صاحبه هاتفًا بصوتٍ ضخَّمه:

هذا هو هادريان سيد البحار.

كان هادريان يتابع المشهد بفمٍ متدلٍّ من شدة الدهشة، ولما أدرك انتهاء المشهد ابتلع ريقه، ورفع يده إلى صدره يتصنع الثقة ويُساير أميره في ورطته:

أجل، هو ذا أنا سيد البحار، وأشدهم فتكًا بوحوشه!

لم تكن استيلا بعد استطاعت أن تتخيل حجم ذلك المخلوق «ألف ذراع، وخمسمئة زعنفة، وخمسة رؤوس، كل واحد منها يزن سفينة! أهو بحجم جزيرة كاملة؟! أم أنه أكبر من ذلك بكثير؟!»

ولما أيقنت طول الوقت الذي سيسعها لتخيله كاملًا؛ ردت بضحكة مزيفة مضطربة:

أهلًا بك، أهلًا بك سيد هادريان!

رمق هادريان إيتوس بنظرة مقتضبة محبطة مما ساقهما إليه حماسه الأخرق، فهمها إيتوس؛ فهمس له يتباسم بغباء:

نسيتُ أن أغلق فمي هذه المرة

ثم في تدارك لموقفه الحرج، سأل استيلا مُغيرًا دفَّة الحديث:

هل والداك هنا؟

استيلا:

الآن لا، لكن سيصلان قريبًا بالتأكيد.

إيتوس:

إذن سننتظرهما في المنزل، ما رأيك؟

استيلا بارتباك:

أ.. أجل.. لا بأس.

لم يمضِ بعض الوقت حتى حضرَ والداها، عرفتهما لإيتوس، وعرفته لهما مع صديقه، إلا أنها تجنبت ذكر مناقبهما البحرية نزولًا عند رغبتهما للحفاظ على تواضعهما كما قالا!

لم يخفَ على أيٍّ من إيتوس وهادريان بهجة والديّ استيلا بإيتوس، كانا ينظران إليه بوافر من الإعجاب والرضى! وأخيرًا بدأ هادريان حديثه برغبة صديقه في خطبة استيلا، والبقاء على ذلك فترة وجوده في ثيفا، ثم الزواج بها حين يعزم السفر إلى بلاده.

ازدادت بهجة الوالدين بالخبر، وأبديا الترحيب به على غير توقع الشابين! ثم هتفت الوالدة مُعللة لما قرأت الدهشة على وجهيهما:

ما رأيتُ وجهها يشرق باسمًا منذ رُحِّل أخوها عنا حتى تعرفت عليك يا إيتوس، وما كانت للسعادة أن تخالط روحها التي ذبلت بعد فقد أخيها لولا

وجودك بجانبها، ما زلتُ أتطلع إليكما كل يوم وأنتما لا تشعران بي، بل كنتُ أقترب بعض المرات منكما دون أن تدركا قربى، كنتُ أريد الاطمئنان على ابنتى حين ارتبطت بك؛ فكان ذلك لي، فما رأيتُ ألطف منك مجالسة، ولا أنقى ارتباطًا منك بها رغم الحب الذي كان يصرخ في وجهك؛ فيفضح ما في جوفك بشدة، الآن تطلبان رأيي!! ما أخالني إلا معتوهة العقل إن رددته، فأي والدة لا تفرح بزواج ابنتها من فتى نبيلٍ كهذا، ثم يرحل بها إلى بلاد الأمان! أنا موافقة بالتأكيد.

ثم التفتت إلىً زوجها الهادئ وهي تقول بلهفة:

وأنت يا عزيزي، هل توافق؟

تبسم وهو يرد:

لا أبالغ إن قلتُ لكِ إني كنت أنتظر قدومه طالبًا يدَ ابنتي، أنا رجل وأعرف طبائع الرجال، وعرفت أيهم إيتوس؛ فأيقنت حدوث هذا اليوم دون ريب.

ثم نظر إلى إيتوس وهو يومئ برأسه مسرورًا: وأنا أيضًا موافق.

ثم تطلع إلى ابنته وأكمل:

ولكن أيًّا ما يكن الأمر؛ فلن تتم الخطبة حتى تخبرنا استيلا بقبولها، هل أنتِ موافقة على خطبة هذا الفتى النبيل لكِ يا ابنتي العزيزة؟

قبضت يديها بشدة فلم يخفَ ارتباكها، وتورد وجهها الصغير، وعلا ثغرها القرمزي بسمة خجولة رقيقة، ثم ردت بهمس أكثر منه للجهر:

نعم.. أنا.. موافقة.

فلم تسع الأرض إيتوس فرحًا حين تمت له هذه الخطبة التي طالما استحالها عليه عقله.

الفصل الحادى عشر
قَبو التَّعذيب

مضى شهرٌ على خطبة إيتوس لاستيلا، ظلَّ يتعهدها خلاله بزيارات متقطعة ليطمئنَّ عليها، أمَّا في القصر، فكان يعمل على قدمٍ وساق، يُرسل إلى عمّه الخطابات المتتابعة عن مستجدات القصر مفصلةً مبينةً، ويخبره بالجنود الذين كسب ولائهم..

كان دوره كبيرًا يبهج ألكساندروس الذي يُردِّد على وزيره سولون دائمًا:

بأيهما أفرح: بانضمام أركون، أم بانتساب إيتوس إلينا؟ فأركون يُقدم عملًا لا مثيل له في أرجاء البلاد.. وإيتوس يُفيدنا من عمق القصر بشكلٍ لم نتخيله يومًا.. ألا ما أسعدني بهما! ما أظنهما إلا دعوةً دعوتها قبل عقدين من الزمن؛ وها قد أُجيبت لي..

في صباح باكر، خرج إيتوس من غرفته إلى بهو الاستحمام الخاص به، وما إن اقترب من الباب حتى رأى آلي تخرج منه، وتُغلقه خلفها، رأته مُقبلًا فانحنت تُحيِّيه، تبسّم لها وهو يسألها:

كيف حالكِ يا آلي؟

أجابت:

أنا بخير منذ مددتني بعطفك يا مولاي.

إيتوس:

ارفعي رأسك؛ فلا داعي لكل هذا الانحناء - ثم زفر - ألا يمكن أن تُعامليني كصديق؟! ما أبأس أن تكونَ إنسانًا لا يُعامل إلا بهذه الرسمية المقيتة! هل تصدقين؟! أتمنى أن يصدر مرسومٌ ملكيٌّ يأمر أن يُعامِل كل شخص في القصر إيتوس كصديق.

ثم رفع رأسه وأسبل جفنيه كالذي يحلم وأتمَّ: أتمنى ذلك حقًّا..

اجتاحتها ضحكة؛ فغطتها بيدها، نظر إليها؛ فأدرك غباء ما قاله وضحك، ثم عاد يتأملها قليلًا كأنه لاحظَ شيئًا! وراح يتلفَّت حوله سريعًا قبل أن يقترب منها ويهمس:

ما زلتِ على ما اتفقنا عليه، أليس كذلك؟

تورَّدت وجنتاها لقربه، وأجابت:

أجل يا مولاي.

إيتوس:

وما يزالُ سرًّا لا يعلم به إلا من كلفتهما بإيصالك إلى منزلك، ثم إرجاعك إلى القصر!

آلي:

هو كذلك يا مولاي.

أطلق تنهيدةَ راحةٍ لِما سمع، ثم تبسَّم، وأحاط كتفيها بكفيه وأسرَّ لها:

لذلك أرى السعادة في عينيك على غير ما كان..

آلي وقد أشرق وجهها ببسمة امتنانٍ عريضة:

ولمَ لا يكون كذلك؟ وأنا أعمل في هذا القصر الجميل عملًا مُريحًا لا يشقى معه جسدي، ثم أعود إلى أهلي كل شهر فتسعد بذلك روحي، أحملُ لهم هداياك

وأُعطياتك؛ فتسعد أنفسهم كذلك.. لـمَ لا أصبح سعيدة بعد كل هذا الكرم من مولانا الطيب؟!

ابتهج لكلماتها؛ فأضاء وجهه وتابع:

كم أنا سعيد لأجلك، أنتِ فتاة لطيفة، تستحقين حياة كريمة، بل كل شعب ثيفا يستحق هذه الحياة الكريمة.

خفق قلبها، فأحنت رأسها وهي تقول:

بل هو كرمك يا مولاي، وإلا فلم نصنع ما يستحق ذلك.

ضحك بخفة، ثم استدرك:

عزيزتي آلي، إن من يستكثر على مجتمعه رغبتهم في حياة يرفرف فيها العدل والكرامة، إنما هو آفة ابتلي بها ذلك المجتمع! فإياكِ أن تكونِي كذلك!!

ارتبكت، وشعرت أن تملُّقها هذا لا يتناسب إلا مع ذوي القلوب المتجبرة.. فما بالها انتهجته مع ذي القلب الحنون! ثم أومأت برأسها قائلة:

صحيح يا مولاي، أعدكَ ألا تسمعها مني مرة أخرى.

هزَّ رأسه باسمًا، ثم مضى نحو البهو، وأغلق الباب دونه..

مضت هي في طريقها، وكلماته ما تزال تتردد في عقلها كتردد الصدى (إن من يستكثر على مجتمعه رغبتهم في حياة يرفرف فيها العدل والكرامة، إنما هو آفة ابتلي بها ذلك المجتمع)، تُحدِّث نفسها:

ما الذي يقصده؟ هل قرر أن يُغيث الشعب كما أغاثني؟! - ثم استدركت - ولكن كيف وصلته أخبار الشعب البائس وهو الغارق في دنيا النعم؟! هل هناك من يجرؤ على مخالفة أمر الإمبراطور فيوصل أنباء البلاد لابنه؟!

صمتت قليلًا وفي عقلها مائةُ سؤال وتخبط.. أردفت:

ربما هي فراسته ونباهته؛ أجل، فالسيد إيتوس ذكيٌّ جدًّا، ولعله حين قرأ الأسى في وجوه الخدم وصل إلى هذا الاعتقاد..

ثم أضاء وجهها المستدير وهي تُغمغم بفرح:

سيكون هذا الخبر مما أوصله إلى أركون، بل سيكون أفضل ما وصله على الإطلاق دون شك!

كان إيتوس حينها يتجوَّل في البهو، اقترب من حافة الحوض؛ فانعكست صورته على مياهه.. لا يعلم لمَ استحالت الصورة حينها لصورة الشباب المعلقين في أقفاص المجرمين؟! فارتجَّ قلبه، ومضى عن حوض الماء شارد الفكر، وما تزال دقات قلبه تلهث وتتسارع بقوة في جوفه حتى وصل إلى الأشجار، لا يعلم أيضًا لمَ تحولت صورتها هي الأخرى إلى صور الرجال البؤساء؟! هل ذكَّره لحاؤها الملتصق بساقها بجلودهم المتشققة التي تبدي عظامهم من ورائها؟! أعرض عنها بسرعة كأنما يريد محو تلك الصورة المؤلمة..

مضى قليلًا حتى استقرَّ عند أحد الأعمدة المطعمة بأحجار الفيروز الخلابة، تأمّلها قليلًا، ثم جلس مُسندًا ظهره إلى ذلك العمود.. ومن فوقه طيور كثيرة تُغرد بانتشاء مُحدثةً نغماتٍ عذبةً وجميلة.. لا يعلم لمَ لمْ تعد زقزقاتها تؤثر فيه طربًا، ولا ينعش عينيه لعبها وقفزها بين أغصان أشجار البهو وأقواسه؟!

شعر أنه قد ذُهل عن كل جمال.. وأن عقله لا يكون في رأسه كلّما خلا بنفسه في البهو ليستطيبَ سمعه أو لتتلذذُ عينه! كان عقله كل مرة يطير نحو الميدان، نحو الأزقة بين البيوت، ومحلات السوق.. يحمل ذلك العقل العينين معه؛ لتتأمل الألم

المكبوت في وجوه النساء والأطفال والعجائز، ثم تنتقل إلى وجوه المعاقبين على المنصة، ثم تعود إلى السوق تتفحص ملامح القهر الباكي في وجوه الرجال.. أما أذناه فلا تكاد تسمع غير صرخات المعذبين المحترقة أجسادهم، وبكاء الأطفال الجوعى، وشكاوى الرجال من الغدِ المجهول؛ كأنَّما هو وحش يتربَّصُ بهم، لا يأمنون غدره وانقضاضه عليهم في أيِّ لحظة!

- ألا ما أتعس ثيفا!

قالها بزفرة مُتوجعة، ثم نهض وجوفه يحترق، مضى نحو الحوض، خلع ثيابه، ثم غاص.. بدأ يغسل شعره، ويدعك جسده.. لم تمضِ دقائق حتى خرج من الحوض ولَبِس ملابسه، ثم غادر البهو سريعًا..

كان فيما مضى يُمضي في الاستحمام الساعة والساعتين؛ كأنها جولة في استجمام الروح، وتدليل الجسد.. لكن منذ أن نزل العاصمة، لم يعد يجد في البهو إلا أطيافًا لأشباحٍ على صورة الشعب المكلوم تُحدث في قلبه فزعًا وألمًا، وفي جسده رعدة، فيستعجل الخروج منه!

خرج إلى ساحة القصر متجولًا بين أرجائه الواسعة، استقبلته النافورة التي يُبغضها.. اقترب منها، لأول مرة ينتبه إلى إتقان صنعها، همس بإعجاب:

ما أعظم عقل الإنسان!

ثم جذبه بريق الجواهر التي زُيِّنت بها، والأحجار الكريمة التي طُعم بها حوض النافورة وأكواب الخادمات.. تبسّم لها وهو يُتمتم:

ألا ما أجمل ما وهبه الإله لأرض الإنسان!

ثم جال بخاطره:

لو يتعلمُ منها هذا الإنسان؛ فيمنح بني جنسه ما تمنحه له هذه الأشياء من البهجة والراحة وإسعاد الخاطر، إنها لأكثر ذكاءً وأرهف إحساسًا منه رغم أنها جامدة لا عقل لها، فكيف لو كانت تعقل؟!

ثم تهكّم:

ربما لو كانت تعقل، لفرضت علينا مُقابلًا على ما تمنحه لنا..

صمت قليلًا، وراح يُمرر يده على بعضها يتأملها بإعجاب شديد وهي تلمع في عينيه؛ كأنما ضوء الشمس قد اُختزِل في داخلها.. ضاقت عيناه ببسمة حزينة وهو يقول مُماشيًا آخر خاطرة:

على الأقل عندما نُعطيها مقابلًا فإنها تمنحنا جمالها وبهجتها، أما الإنسان، فإنه يأخذ حقوق أخيه دون مقابل! ألا ما أظلم الإنسان لبني جنسه حين يطغى ويتجبر!!

ثم مضت به جولته حتى وصل إلى نهاية القصر.. فلمح والده وشيشرون مع بعض الحرس يدخلون إلى بناية تلتصق بمؤخرة القصر، يُقال له كلما سأل عنها إنها مخزن لبعض أثاثه القديم.. لكن.. هل هي من الأهمية بمكان ليزورها والده الحاكم تاركًا شؤون البلاد وانتفاضة شعبها التي أقضَّت مضجعه وأشغلت فكره؟!

شعر إيتوس بفضول جامح لمعرفة الأمر.. فانتظر حتى دخلوا جميعًا؛ لتُغلق دونهم بوابة ضخمة من الحديد المُضاعف! وعلى جهتها الخارجية حارس ضخم الجثة كأنه عشرة رجال في جسد واحد!

تساءل بارتياب:

بوابة أغلظ من بوابة القصر نفسه! وحارس توازي ضخامة جسده حراس البوابات جميعًا! ما الذي يوجد داخل هذه البناية؟!

فأخذته قدماه نحو المبنى، وما إن رآه الحارس حتى نتأت حدقتاه دهشة وفزعًا..

إيتوس:

ما اسمك يا هذا؟

الحارس بارتباك وتلعثم:

ا... اسمي... أسخيلوس، يا مولاي!

هزَّ إيتوس رأسه، ثم بنبرة صارمة:

افتح لي البوابة يا أسخيلوس.

أسخيلوس بارتباك مُتزايد:

ووولمَ.. يا مولاي؟؟

إيتوس:

ليس هذا من شأنك.. افتحه حالًا.

أسخيلوس:

لكن.. هذا ممنوع يا سيدي.

رفع إيتوس حاجبيه استنكارًا:

تمنعني؟!

ثم صرخ:

قلتُ افتحه حالًا، وإلا ندمتَ على تطاولكَ أيها الأحمق!

رفع أسخيلوس يديه أسفل ذقنه في توسل واضح وهو يردد:

أرجوك أعفني من هذا يا مولاي.. أرجوك أعفني يا مولاي.

إيتوس:

وما الضير إن فتحته لى؟!

صمت أسخيلوس، في حين بدأ وجهه يشحب ويمتقع.

تنهد إيتوس بشيء من الضجر والشفقة معًا، ثم أجاب عنه:

ستفقدُ حياتك.. وسيحلُّ على أهلك عذابٌ عظيم بسبب عصيانك، أليس كذلك؟!

صمت أسخيلوس لحظات في دهشة.. ثم أومأ بنعم!

أخرج إيتوس سيفه من غِمده وهو يقول:

لا بأس..

ثم ضرب الحارس على كتفه ضربة تدفقت منها دماؤه؛ فسقط على الأرض لا يُدرك ما يحصل وهو يلهج:

مولاي أرجوك لا تقتلني.. أرجوك سامحني ولا تقتلني!

مسح إيتوس الدم من سيفه، ثم أعاده إلى غِمده وهو يقول:

لا تقلق، لست قاتلك، لكنك ستُخبر والدي أنكَ حاولت ثنيي بقوة، وأني تمنَّعت! فلم يكن بيدك إلا أن تتركني أو تقتلني؛ فآثرت الأولى رغم جراحك التي أصبتُكَ بها!

نظر أسخيلوس إلى أميره مشدوهًا، ثم ندت من بين شفتيه بسمة مرتجفة من أثر الوجع تنمُّ عن إعجابه!

ونهض يفتح البوابة بصعوبة، دخل إيتوس، ثم أغلقها الحارس، ليعود بعدها مستلقيًا على الأرض رافعًا صوت أنينه!

حلمُ إيتوس

كان المبنى الذي دخله إيتوس عبارة عن ردهة طويلة يعقبها انحناء، وعلى يمين الردهة ويسارها غرف كثيرة.. دخل الأقرب منها؛ فوجدها مكتبة كبيرة، تحوي رفوفًا كثيرة، وفي آخرها منضدة عريضة خلفها كرسي عالي الظهر كأنه كرسي الحكم في جماله.. راح يتأمل تلك الرفوف والتي قد حوت صنوفًا لا حصر لها من الكتب..

تساءل بتعجب:

ما كنتُ أعلم أن والدي يحب القراءة هكذا! إني لم أرهُ يوما يقرأ شيئًا أمامي.. أكان يحاول إخفاء ذلك عني؟ ولكن لماذا؟!

ثم تغلغل داخل المكتبة حتى وقف أمام المنضدة؛ فراعه منظر التراب فوقها، انتبه بعدها إلى أن المكتبة كلها برفوفها، وكتبها، وزواياها، وأرضيتها، مغطاة بكميات هائلة من التراب، كأن العدد الكثير للكتب وترتيبها الجميل حجباه عن حقيقة أنها غرفة مهجورة منذ عقود!!

عاد إلى المنضدة يتفقدها؛ فلمح ارتفاعًا من التراب فوقها، تمعَّنه؛ فإذا به يخفي كتابًا تحته، أخذ الكتاب ونفض عنه التراب، قرأ عنوانه (ينابيع الإنسان)، قلَّب صفحاته التي قد صفرها الزمن؛ ليتصفحها بسرعة، طالع بعض فصوله، فرأى أنه يتكلم عن الخصال التي تُضفي على الإنسان شعور السعادة والرضى، جذبه أحد الفصول المعنون بـ (عندما يكون الرفق أعظم خصال قلبك)، حدَّث نفسه:

الرفق! وأين هذا الرفق من قلبك يا أبي؟! هل تقرأ للقراءة فقط ثم لا ينعكس ذلك عليك؟!

وحين لم يجد جوابًا، وضع الكتاب على المنضدة من الجهة الأخرى للغلاف، فلاحظ كتابةً تختلف عن الخط المرسوم داخله، رفعه إليه يتمعَّنُه، فقرأ: (مكتبة

هوميروس ألكساندروس)، جحظت عيناه دهشة، وأعاد الكتاب بسرعة لينطلق نحو الرفوف، أخذ عشرين كتابًا من زوايا مختلفة، ثم راح يتصفح الأغلفة، كان على ثلاثة عشر منها (مكتبة ألكساندروس نابليون)، وعلى البقية اسم جدِّه الذي في الكتاب الأول، فأخذ مجموعة أخرى أكثر من الأولى، فلم يجد عليها سوى الاسمين.. أعاد الكرة مرتين أو ثلاث، فلم يجد غير ذلك، فأدرك أنها كانت مكتبة والد جدَّه ألكساندروس؛ ثم ورثها جده هوميروس، وأضاف إليها كتبًا جديدة دوَّن عليها اسمه، وأدرك أن ليس لوالده منها شيء! فضحك بحسرة وهو يتمتم:

كنتُ أعلم أنه ليس بعالمك؛ لتخصه بغرفة كبيرة جميلة كهذه!

ثم عاد ينظر إلى الكتاب الأول فوق المنضدة، وأردف بحزن:

عندما يكون الرفق أعظم خصال قلبك!! ليتكَ على الأقل قرأت هذا الكتاب يا أبي، قبل أن تُغلق باب المكتبة منذ حكمت البلاد..

أعاد الكتب إلى أماكنها، ثم خرج، وأغلق الباب بهدوء، وتابع السير.. دخل بعض الغرف ليطالعها بسرعةٍ وأعرض عن بعض، كان له في إحداها صدفة عجيبة؛ إذ رأى اللوحة الكبيرة التي أزالها والده من بهو الاستقبال حين أكثر السؤال عنها في طفولته.. تأمل الوجه الثالث، وتمتم ببسمة تشعُّ حبًّا:

حقًّا هو وجهُك يا عمي؛ عدا تجاعيد الستين التي غيَّرت القسمات الجميلة في الصورة.

ثم تجاوز الردهة إلى الانحناء الذي في نهايتها؛ فرأى بابًا حديديًّا، فتحه بهدوءٍ، فإذا بدرج ينزلق إلى الأسفل، مضى في طريقه حتى وصل إلى قبوٍ به عدة أبواب ومسارات، حار إلى أين يتجه، فسمع صوت خطوات تقترب منه، اختبأ بجسده،

وعيناه ترقبان الآتي، كان أحد الجنود، فخرج له بسرعةٍ فزع منها الجندي.. ثم ازداد فزعه لما تبيَّن له أنه إيتوس!

سأله الأخير مباشرة:

أين اتجهَ والدي وشيشرون؟

ارتبك الجندي، وانعقد لسانه، إيتوس وهو يستلُّ سيفه:

لن أخبر أحدًا أنكَ من دلَّني، ولكن إن لم تفعل قتلتك.

رفع الجندي يدًا ترتعش، وأشار بها إلى أحد الممرات وهو يقول بصوت منتفض:

هـ هـ هناك.

أعاد إيتوس السيف، ومضى إلى الوجهة بحذر..

كان على يمين الممر ويساره غرفٌ أبوابها القضبان.. كانت سجونًا.. سجونًا فردية على ما بدا له.. أعمارٌ مختلفة من البشر مُقيدون في داخلها.. منهم من تطلع إلى إيتوس لـمَّا مرَّ به، واقترب من القضبان يُمسكها بيديه رغم سلاسله الثقيلة؛ فعرف إيتوس أنه جديد عهدٍ لقوة روحه.. ومنهم من رمقه وهو مُقرفص داخل زنزانته بعينين ذابلتين، ووجهٍ واهنٍ، فخمَّن إيتوس أنه جائع منذ أيام، أما الصنف الأخير فلم يكن يقوى حتى على الرؤيا، وقد تهاوى جسده على الأرض كأنه يحتضر! فأدركَ أنها فرعٌ عن أقفاص المجرمين حين ضاقت عليهم أعدادها الأربعة!!

التهمت حلقه غصةٌ فظيعة، وجحظت عيناه من الصدمة والقهر.. ولم يجد إلا أن يستمر في طريقه، فلاحظ اختلاف الوجوه في الزنازين التالية؛ فجميعها تنبض بالحياة، حدث نفسه:

هل إجرامهم أقل من أولئك ليحظوا بالإطعام؟ لكن لـمَ وجوههم تبدو أكثر فزعًا وخوفًا من أولئك الجوعى؟!

ولم يكد يتجاوز بعضًا منها حتى سمع خطوات عديدة قادمة؛ فاختبأ في زقاق ضيق قريب منه، أصاخ لها سمعه؛ فإذا بصوت بوروس:

هذه المرة يجب أن يكون شابًّا قويًّا فالكهلُ لا يحتمل، إنه يوشك على الموتِ ولم تمضِ من الحفلة سوى أقل من ساعة!

صمت برهة، ثم عاد:

امممم حسنًا.. هذا يبدو مناسبًا لجلاء الهمِّ عن الإمبراطور.

تبعه صوتُ استغاثةٍ لرجلٍ ونحيبُ ولدٍ صغير، تبع الاستغاثة صفعٌ، وركلٌ، وسبٌّ بأقذع الأوصاف، ثم صوتُ سلاسل مع خطوات تبتعد، وقد عمَّ الصمت المكان؛ فعرف أنهم اقتادوا الرجل، وأنَّ شيئًا ما رآه ذلك الصغير فأسكته رُعبًا!

لم يعرف ما الذي حدث؟ وأيُّ همٍّ سيجلوه هذا السجين عن والده؟! هل هو مهرج بارع؟! لكن إن كان كذلك فلمَ الفزع والاستغاثة أن يتركوه؟! ولمَ البكاء من الولد؟! ثم تردد في خاطره ما حيَّره أكثر:

الحفلة؟ أيُّ حفلة هذه تُقام في قبو الموت ذا؟! ولمَ لمْ أُدعَ إليها؟!

ساءه أن يُدعى إليها الوزير، ويُترك الابن دون دعوة؛ وكأنَّ والده صار يحب وزيره أكثر منه!

وأخيرًا.. هزَّ رأسه كأنَّه ينفض هذا الخاطر عنه، وأدرك أن ما ساقته إليه قدماه أهمُّ من هذه الغيرة الخرقاء! فتابع المسير خلفهم دون أن يُحسُّوا به، حتى ولَجُوا غرفة في نهاية الممر، سار نحوها، وفتح الباب بعدهم بخفة ليتطلع بعينيه، كانت

قاعـة واسـعة، في آخرهـا منصـة مرتفعـة عـن الأرض، وعلـى المنصـة أربعـة رجـال أشداء، اثنان يقفان جانبًا، والآخران يضربان بسوطهما الرجل الكهل! وقـد تسـاقط كثيرٌ من لحمه إثر غلظة السوط وغلظة الضرب! وصوت أنينه قد خفَّ كأنـه يُنـازع، والرجلان لا يزالان يضربانه بقوة دون رحمة! فنتأت حدقتا إيتوس وشـحب وجهـه كأن الدم قد جفَّ منه..

ظـنَّ في البدايـة أنـه في حلـم، حلـمٍ مرعـبٍ يتمنـى الاسـتيقاظ منـه أسـرع وقـت، فاستيقظ على صراخٍ ساخطٍ لوالده:

لـمَ توقفتما؟

الجلَّادان بصوت منهك:

لقد مات يا مولاي!

فأدرك إيتوس أنه استيقظ من الواقع على الواقـع! واحتشـدت الـدموع في عينيـه وهو يشاهد والده يقف من كرسيه بغضب ويُرعد:

تبًّا لك يا بوروس، جئتَ لي بهذا الكهل الضعيف لأحتفل به ساعة فقط!!

انحنى بوروس مضطربًا وهو يقول:

آسف يا مولاي، رأيته مبتسمًا مهيبًا عندما استدعيناه ولـم يُبدِ فزعًا؛ فظننتُ ذلك دليلًا على قوته! صدِّقني لم أتوقـع موتـه بهـذه السـرعة، ثـم رفـع رأسـه والتفـت إلـى الرجل خلفه مُتداركًا:

لكن هذا سيرضيك حتمًا، إنه شابٌّ أربعيني قويُّ الجسد كمـا تـرى، وقـد تركنـا ابنه خلفه في السجن، إنه ابنه الوحيد!

فتمعَّن كاليجولا في الرجل، ثم اقترب منه وأمسك بذقنه وهو يقول:

لو تعلمُ الحزن الذي أرهقني أيها الرجل.. هل تتصور مشاعر أعظم إمبراطور في الدنيا حين يُعلن شعبه التمرد عليه؟!

ثم تبسّم بخبث:

لذا عليك أن تسليني طويلًا قبل أن تموت.. لا يجب أن تموت إلا بعد ساعتين، وإلا أتبعت ابنك الوحيد بك.

فصاح الرجل في تذللٍّ وعيناه تفيضان ألمًا وفزعًا:

لا يا مولاي، أرجوك لا تُعاقبه بهذا السوط، فلحمه الرقيق لن يحتمل غلظته وعذابه، أتوسل إليك يا مولاي ألَّا تشمله بجُرمي فهو صغيرٌ لم يُدرك البلوغ بعد.

فاتّسعت ابتسامة كاليجولا الخبيثة مُخلفة صورةً مرعبةً على وجهه وهو يُمعن الهمس للرجل:

إذن يجب ألا تموت قبل ساعتين..

أسبل الرجل جفنيه في عجزٍ وهو يقول:

إن قلَّلَ الرجال من قوة الضرب؛ فقد أتمكن من العيش للمدة التي تريد.

علا صوت كاليجولا بالضحك وهو يعود نحو كرسيه ويهتف:

هل سمعت يا شيشرون، لقد وافق هذا المتمرد المخلص أن يعيش ساعتين قبل أن يموت! يبدو أن الحفلة ستمتلئ بالإثارة أخيرًا بعد ذاك الملل!

ردَّ شيشرون - الذي كان جالسًا بجانب الإمبراطور - بسعادةٍ وهو يضعُ رجلًا على أخرى وبيده كأسُ نبيذٍ مبالغًا في متعته:

تستحق هذه المكافأة مولاي المبجل..

لطالما عزَّى إيتوس نفسه أن شيشرون هو المفسد في البلاد، وأن والده لم يفعل أكثر من أن سلَّمَ وزيره زِمام الأمور، لكن في هذه اللحظة أدرك أنه لم يكن بتفكيره

هـذا إلا كالـمُكذب لنـارٍ تتـأجج أمامـه.. وأن والـده هـو المجـرم الحقيقـي، ومـا شيشرون إلا كطيرٍ وقع على شاكِلِه؛ فازدادت البلاد بهما بؤسًا واضطهادًا..

صُعد بالرجل إلى المنصة، وابتدأ فصل جديد من احتفاليات كـاليجولا بشـعبه! تناول كأسًا من النبيذ، وراح يتابع المشهد بكل سعادة وانتشاء!

حـاول الرجـل التماسـك في البدايـة، إلا أنـه صـرخ أخيـرًا مـع أول قطعـة لحـمٍ سقطت من جسده بـذلك السـوط.. أحـد الجلَّاديـن اللـذين توليـا ضـربه كـان قاسـيًا جدًّا، يضربه بقوة وهو مكشر عن ضحكة صفراء؛ كأنما يُمارس أحد ألعابه الشـيقة؛ فلم يحصل الاتفاق!

كان إيتوس يأكل شفتيه بأسنانه تزامنًا مع نارٍ مُستعرة تأكلُ جوفه تلـك اللحظـة، يتردد في ذهنه توصية عمِّه المشددة، والتي ما يـزال يُكررهـا علـى إيتـوس كلَّمـا زاره ألا يُبديَ لوالده ما يفضح أمره، أو يُشير إليـه، حـاول التماسـك.. إلا أنـه شـعر بعـدم الاحتمال أكثر، فأغمض عينيه وشدَّ من قبضة يديه في محاولـةٍ أخـرى للتصـبُّر حتـى كادت أظفاره أن تُمزق جلده..

ولـم يطل الأمر حتى اخترق صراخٌ أعلى للرجـل صـميم أذني إيتـوس؛ فانهـارت قواه أخيرًا، ركلَ الباب برجله ليدخل بأعلى صوته:

توقفـاااا.. هذا يـكـفيييي!!

اتجهت الأنظار إليه بدهشة، وفزَّ والده وشيشرون من كرسيهما ينظران إليـه مـع بـوروس بفـزعٍ وامتقـاعٍ كأنمـا أغشـيت وجـوههم قِطعًـا مـن الليـل مظلمًـا! ثـم شـعرَ شيشرون فجأةً بشيء من السرور يُخالط فزعه حتى كاد يغلبه، لولا أنـه رأى إيتـوس يركض نحوه بوجهٍ مفترس؛ فرجحت كفةُ الفزع في نفسه، ولـم يستوعب الأمر حتـى

صار إيتوس أمامه موجِّهًا إليه لكمة قوية أسقطته إلى الخلف عدة أمتار وهو مُهشم الفكِّ!

ثم استدار نحو بوروس وضاعفها له لكمتين؛ كأنه يريد بإحديها يوم الميدان..

وما إن سقط بوروس على الأرض والدم يسيل من فمه بغزارة حتى صعد إيتوس على المنصة مُستلًّا سيفه، ففرَّ الجلَّادون من أمامه عدا الجلاد الذي كان يضرب السجين بقوة؛ يريد مجابهة إيتوس.. ولم تمضِ ثوانٍ حتى خرَّ على الأرض بدون رأس.. كان رأسه تلك اللحظة يتدحرج إلى أن وصل عند قدمي كاليجولا وهو فارجُ الفكَّين جاحظُ العينين كأنه رأى مخلوقًا مرعبًا قبل أن يُقطع عن جسده، فزادت صورته المقززة كاليجولا رعبًا وهلعًا وهو يُعيد نظره إلى إيتوس..

انحنى إيتوس جاثيًا عند الرجل الجريح، تتسارع أنفاسه من أثر الغضب.. جثا أمامه ببطء وضَعْف وهو يتأمل وجه الرجل الدامي، مدَّ يده إليه، وأخذ يمسح الدم عن وجهه بِيدٍ ترتجف بشدة شفقة وذهولًا! فطالعه الأخير بتعجبٍ وهو يسأل بصوتٍ مُنهك:

من أنت؟

إيتوس بنبرة مُتهدجة دامعة:

أنا إيتوس.. إيتوس حفيد هوميروس.

وسَّع الرجل عينيه وتبسم:

أأنتَ ابنُ... ألكساندروس؟

إيتوس بِغُصَّة:

هذا شرفٌ لم أحظَ به.. أنا حفيد هوميروس وحسب؛ لا تسل عن والدي.. فوالدي مات منذ زمن.. ربما قبل أن أُولد!

لم يبدُ على الرجل أنه فهم شيئًا غير أنه رفع زاوية فمه ببسمة هوانٍ شديدة كأنه بنصف روح! ثم تمتم بصعوبة:

لا بأس.. أيها الفارس.. الطيب.. فأنت حفيدُ من أكرم شعب ثيفا.. وأنعم عليهم بعدله.. وهذا يكفيك - ثم تغضَّنت ملامحه بأسىً وتوسل - وإني أوصيك.. أيها الطيبُ.. بولدي الوحيد.. ولدي أوتو.. ما زال صغيرًا، جار عليه الحكم بالحبس.. بسبب مخالفتي.. ولم يرتكب ذنبًا! ثم إنه سيزِرُ جُرمي الثاني.. وهو سرعة انتهائي بذلك السوط.. لم أُعلم الحاكم أني مريض بمرض عُضال.. قد أضعف أحشائي منذ زمن.. فأنا لا أقوى على هذا العقاب.. لكني أمَّلتُ نفسي بالاحتمال لو خُفف الضرب عني... إلا أن ذلك الجلَّاد ما منحني حتى بصيصًا من ذلك الأمل!

ثم سعل وخرج الدم من فمه.. أركن إيتوس رأس الرجل على ذراعه وهو يهتف بشفقة، وعيناه تغرورقان:

أرجوك اهدأ ولا تُجهد نفسك، ستكون بخيرٍ، وسأفرج عن ولدك لتعود معه إلى البيت راضية نفسك.. اهدأ الآن وحسب.. اهدأ أرجوك..

تطلع إليه الرجل بسرور، وبلع ريقه بصعوبة، ثم قال بإنهاك:

وددتُ ذلك.. لكن لن أستطيع.. عشر جلدات بذلك السوط الغليظ.. من تلك اليد الشرسة.. كانت كفيلة بالفتكِ بي مع مرضي الذي أنهكني.. حين لم أجد لعلاجه مالًا!

إيتوس بصوت باكٍ ألمًا وندمًا:

لو علمتُ ذلك ما سمحتُ لهم بضربك مطلقًا، ألا ليت صوت عمي لم يزرني.. ليتني نسيته ونسيت ما عليَّ.. كنت هببتُ لإنقاذكَ دون تردد، سامحني أرجوك.. سامحني على خطيئتي.

أمسك الرجل كفَّ إيتوس وهو يقول مبتهجًا:

ألا ما ألطفك! ألا ما أشجعك! ما بئست ثيفا وفيها فارس مثلك!

ثم شدَّ على يدِ إيتوس أكثر وهو يلهث بتوسل كأنه يُنازع الرمق الأخير:

ولدي.. ولدي أيها الطيبُ احمِه.. هو بقيتي، وما لأُمه إلَّا هو.. فأنقذه أرجوووك.

ترقرقت عينا إيتوس وهو يتمعَّن قسمات الرجل المتوسلة الباكية، ثم أومأ برأسه وهو يقول:

سأحميه.. سأحميه..

ثم فاضت دموعه على وجه الرجل الذي قد فارق الحياة.. فلم يمهله الموت حتى يسمع وعد إيتوس بحماية ولده؛ فيمُوت حينئذٍ رضِيًّا.. كأن الموت ضجر ببُطء ارتفاع روحه، أو ربما أسرع في نزعها رحمةً به!

ارتفعت من صدر إيتوس شهقة رهيبة؛كأنه أمٌّ ثكلى مات وليدها بين يديها! ضمَّه إلى صدره وأخذ ينشج وينتحب حتى خضبت دموعه لحية الرجل، وثيابه..

نهض شيشرون حينها واتجه إلى كاليجولا بتثاقل؛ حيث أنهكت اللكمة القوية عظامه الشائخة.. كان يمسح الدم عن فيه، وعيناه على إيتوس الباكي تشتعلان حقدًا وكرهًا شديدين.. وقف بجانب كاليجولا الذي ما يزال يُتابع المشهد القائم فوق المنصة بتخبط وحيرة خالطهما رعب عظيم!

شيشرون بصوت خافت:

مولاي العزيز..

انتبه له كاليجولا بفزع وهو يقول:

من؟ من؟

ثم رأى شيشرون يُشير بأصبعه على فمه المخضب بدمائه أن يخفض صوته، كاليجولا بصوت خافت مرتجف:

شيشرون! لقد آذاك إيتوس حقًّا! ما أغربه من فتى! ما فكرتُ يومًا أن أسمح له بالاحتفال معي لأني أحسبه ضعيف القلب! ثم هو الآن يقتل جنودي أمامي! ما الذي يجري؟ أخبرني يا شيشرون!

شيشرون:

ولدك هذا يُسافر كل مرة للقاء ألكساندروس وليس للصيد! وهو أحد رؤساء الحركة المتمردة.

اهتزَّ قلب كاليجولا صدمةً واصفرَّ لونه، ازْدَرَدَ ريقه وسأل:

أأنت واثق؟ أأنت واثق يا شيشرون؟!! إني لن أسامحك إن كانت تهمة ملفقة على ولدي انتقامًا منه!

خطَّ شيشرون على وجهه ابتسامة خبيثة، وراح يزيد إيقاد نار كاليجولا:

أؤكد لك يا مولاي، ها هو أمامك؛ انظر كيف يحنو على ذلك المجرم الذي اعترف في التحقيق أنه من أنصار ألكساندروس! إن إيتوس واحدٌ منهم يا سيدي، ابنك الوحيد خائن لك، ناكر لتربيتك وعطائك، وهو الآن يقف مع أعدائك ضدك!

عصفت بفؤاد كاليجولا فوضى رهيبة زلزلته، وشعر كأن الأرض تميد به وأن السماء على ارتفاعها تكاد تنطبق عليه! فراح يُحملق في إيتوس بعينين تتطاير منهما شرارة الغضب والنقمة مع دموع الإحباط من فعل ولده!

عمَّ الهدوء القاعة.. ولا يزال الإمبراطور واقفًا وبجانبه وزيره، والجنود يتحاشدون حولهما وقد تركزت أعينهم على المنصة كأنهم يستعدون لمجابهة عدو شرس!

انتبه إيتوس إلى هدوء الجو واتجاه كل الأنظار إليه.. فأنزل رأس الرجل برفق إلى الأرض، ثم مسح دموعه ووقف، استدار نحو الجمع أسفل منه، ومضى بخطوات وئيدة نحو والده وقد ثبَّت نظراته الحانقة صوبه كأنه لا يُبصر أحدًا سواه، فانتفضت أوصال كاليجولا من تلك النظرة التي ما عهدها من عينَيّ ابنه اللتَينِ طالما تغزل في جمالهما! بل بدت له تلك اللحظة كعيني نسر مخيفتين تتطلعان إلى فريستها!

ما إن اقترب إيتوس حتى أشار شيشرون بيده؛ فاستل الجند سيوفهم وتأهبوا، رمقهم إيتوس بنظرة سريعة، ثم تبسّم بسخرية وازدراء وهو يُعيد عينيه إلى والده:

أهذا ما تستطيعه فقط؟! أهذا ما تُتقنه وحسب؟! ألم تملَّ الدَّم الذي ما تزال تسفكه منذ عشرين سنة؟!

كاليجولا بإحباط:

حتى أنت؟ حتى أنت يا إيتوس[1]؟!

إيتوس:

وكلُّ حرٍّ شريفٍ في البلاد.. سيثور دِفاعًا عن بقية الدماء..

كاليجولا صارخًا:

اخرس.. اخرس أيها العاق الجاحد.. أهذا هو جزاء حبي وتدليلي لك؟ تخون والدك وتُحالف أعداءه!!

إيتوس بصوت متهدِّج مرتفع:

كلا ما خُنتك ولا جحدتك.. لو كان كذلك لأبرحتك ضربًا قبل أن أُسقط وزيرك العجوز أرضًا.. إني فقط أرفض الظلم الذي غيَّبته عني.. لو كنتَ تؤمن

(١) «حتى أنت، يا بروتس؟» يوليوس قيصر.

بصحة أفعالك ما أخفيتها! ولكن ما يزال في قلبك صوتٌ لم تستطع قهره، يصرخ فيك أنك ظالم جبَّار!

كاليجولا:

كيف تجرؤ؟! كيف تجرؤ على قول هذا يا إيتوس؟! أنسيتَ أني والدك لتخاطبني بهذه الحقارة؟!

صمت إيتوس لحظةً، ثم اقترب من والده أكثر وهو يقول بصوت هادئ يلفه الألم:

لم أنسَ أنك والدي، وتمنيتُ أن لم يكن ذلك.. أليس من تعاسة المرء أن يكون له والدٌ يتسلى بتعذيب الأبرياء؟! أليس من البؤس بمكان ألا يكون حُكم والده إلا بطشًا، وجُرمًا، واعتداءً على حق الضعفاء؟!

ثم تحشرجت في حلقه غصة أليمة، وضبَبت الدموع رؤيته وهو يُتم:

ألا ما أشقى حظي حين كنتُ ذلك الولد! ألا ما أبأس حياتي حين عرفتُ حقيقتك يا أبي!! أما كان لك أن تُراجع نفسك يومًا؛ فعِثْتَ فسادًا لعقدين من الزمان!! ألم يرق قلبك يومًا لصرخاتهم، وتوسلاتهم، وتذللاتهم لك ولجنودك المتوحشين؟! لماذا يا أبي؟! لماذا؟!

ثم ودموعه تتساقط مُفسحة له رؤية وجه والده المصدوم: ألم يُذكرك ذلك الشباب المعلق في أقفاص المجرمين يومًا بشبابي؟! ألم تذكرك وجوه الفتيات الكسيرات بوجه من أحببتها شابةً نضرة؟ ألم يُذكرنك بأمي فيحنَّ قلبك عليهن؟! أليس من حقهنَّ العيش بسعادة؟! لمَ اضطهدت الشعب وسلبت أموالهم وأخذت حقوقهم؟! لمَ يا أبي؟ ما الذي كان سيضيرك لو أكرمته كمن سبقك؟!

ثم علا صوته حسرةً وقهرًا:

لمَ تفردت بكل هذه الوحشية؟ لماذا يا أبي؟ لماذا؟!

صرخ كاليجولا بغضب شديد:

كفى، كفى.. تكلمتَ أكثر مما ينبغي، وخُضت فيما لا يعنيك أيها الغِرّ! ألم تعلم أني ما فعلتُ ذلك إلا لتوطيد الأمر لك؛ فتحكمهم من بعدي وقد خضعت لك رقابهم؟ ألم يستوعب عقلك التالف هذا الأمر فتشكرني بدلَ أن تكفر؟!

صاح إيتوس:

حكمٌ كهذا لا أريده.. فلأن أعيش كسيرًا فقيرًا حتى أموت، خيرٌ لي من أن أحكم ساعة بالدم!

انكمش وجه والده دهشةً، ثم استحال للغضب، حدَّقَ في وجه ابنه بسخط قبل أن ترتفع زاوية فمه ببسمة مصدومة! ثم اتّسعت، حتى ارتفعت لضحكة ضجت لها القاعة الصامتة وسط تعجب الجميع، سرعان ما انقطعت ضحكته المزيفة فجأةً حين تجاوز جنوده مسرعًا إلى ولده، وانقض عليه مُمسكًا بتلابيب ثوبه وهو يصيح في وجهه:

أأحمقُ أنت يا إيتوس؟ هل فقدتَ عقلك لتقول كل هذا الغباء؟! من لقَّنك هذه الحماقة؟ من لقَّنك وحفَّظك إياها لتتفوه بها أمامي؟!

بزغت على وجه إيتوس ابتسامة غامضة دون أن يرد، فازداد غضب والده وأكمل:

أعرف أنه ألكساندروس الخبيث.. لو كنتُ قتلته تلك الليلة لما اختل توازن البلاد يومًا..

وجَّه له إيتوس نظرة واثقة أرعبته وهو يُجيب:

لن تتزن بلادٌ يحكمها الدَّم ولو أنك قتلت ألكساندروس، ولو صمتت على ذُلها سنين.. فستهب بعدها بقوة تنزع أنياب الظلم عنها.. شعبٌ أبيٌّ كشعب ثيفا لن يَثنيه عن حلمه وحقه سيفٌ معتدٍ، فما إن يجد من يدعوه إلى حريته حتى يقف شامخًا على قدميه هابًّا لنجدة نفسه وعياله.

جفَّت عينا كاليجولا، وفغر فمه وهو يستمع إلى تلك الكلمات، ربما تعجب لها، وربما صدمه أن يكون من تفوَّه بها هو ابنه الذي ربَّاه!! ثم عقد حاجبيه وكزَّ على أسنانه، وردَّ متوعدًا:

وكلما حاول الشعب ذلك اجْتَثَثْتُه.

إيتوس:

إلى متى؟!

كاليجولا ببسمة متوحشة:

إلى أن يعرف قدره، ويستيقظ من حلمه؛ فيعود لعهده مستكينًا طائعًا لحاكمه المبجل كاليجولا سليل الملوك.

أسبل إيتوس جفنيه، وأخفض رأسه وشفتاه تتبسمان بحسرة، ثم رفع رأسه وردَّ بنبرة هادئة واثقة:

حريتهم هي أرواحهم وأنفاسهم.. فإن أردت إقناعهم بالتوقف؛ فأقنعهم أولًا بسلب تلك الأرواح والأنفاس دون مقاومة منهم! إن استطعت ذلك يا أبي فقد حزتَ ما تريدُ دون شك!

تمعَّر وجه والده غيظًا وحنقًا، وشعر أن كلمات ابنه ليست إلا طعنات ما تزال تتوالى على صدره منذ بدأ حديثهما؛ بل إنها تزداد قوة كلما حاول الردَّ عليها، فدفع ابنه بقوة إلى الخلف وهو يصرخ في جنوده:

اقبضوا عليه.. اُسْجنوا هذا المتمرد الجاحد.

لم يُظهر إيتوس أيَّ مقاومة، بل سلَّم يديه للجنود وهو يخاطب والده متوسلًا:

أبي.. ما زلتَ مُتمكنًا من إغاثة نفسك وتكفير خطيئتك.. شعب ثيفا طيِّب كريم سيقبل اعتذارك.. وإن استحال الأمر فلن نتركك أنا وعمي، صدقني سنبذل ما في وسعنا لنيل رضى الشعب وعفوه عنك، ولو كلفنا ذلك فداءك بأرواحنا.. أرجوك يا أبي.. أرجوك.

كانت توسلاته كالنار في قلب كاليجولا تلتهمه؛ فعلا صراخه:

أخرجوه من هنا بسرعة، فما عدتُ أُطيق رؤيته، أو أسمع صوته، غيبوه في أظلم سجنٍ حتى يتعفن جسده، ويلتهمه الدود.

قُيِّد إيتوس بالسلاسل.. ثم قِيد إلى السجن..

مضى على ذلك أسبوعٌ كاملٌ، كان أسبوعًا عصيبًا على كاليجولا، لم ينعم فيه بغمضة ولم يهنأ بلقمة.. شحُب لونه، وذبلت ملامحه وهو ما يزال يسأل شيشرون بصوت متحشرج واهِن:

هل سيتعفن ذلك الوجه الجميل حقًّا؟ هل سيجرؤ الدود على نهش جلده الصافي الرقيق؟!

ثم تخنقه العبرة، وتفيض دموعه:

ألا ما أتعسني إذ عشتُ يومًا أضطر فيه إلى قتل ولدي الحبيب.. ألا ليت الموت كان أسبق إليَّ من هذه اللحظة فلم أعش هذا الشعور.. بل ليتني لم أعتلِ

حُكمًا كان نهايته أن دفعتُ بحشاشة فؤادي وروح قلبي إلى الموت بكلتا يدي!

ثم ما يلبث أن يباغت شيشرون بعينين تتسعان رفضًا:

أنا أقتل إيتوس يا شيشرون؟! أنا أقتله حقًّا؟!

شيشرون بصوت هادئ، ونفْسٍ فرِحة لمصير إيتوس:

هدِّئ من روعك مولاي، فإنما اُضطررتَ إلى ذلك اضطرارًا، ومن حقك حماية ملكك العظيم.

كاليجولا مُتعجبًا حسيرًا:

أيُّ ملك هذا لا أرى فيه إيتوس يتقلبُ في نعيمه ولا تكتحل عيناي برؤيته باسمًا هانئًا؟! - ثم نهض صارخًا - ألا فلينتهِ هذا الملك البغيض.. سأُخرج إيتوس من السجن قبل أن يموت.. سأُخرجه حالًا.

أمسك شيشرون بكتفيه مُتداركًا وقد احتدَّ صوته:

كلا يا مولاي هذا جنون، لن يدعك إيتوس بعد الذي فعلت.. سيُقطعك أشلاءً وأنت حي.. بل سيدعو ألكساندروس، وسولون، وكل متمرد إلى ميدان العاصمة، ثم يعرضك في حفلة ذليلة ناسفة لمجدك! ألم تسمعه يقول أنَّ عليك التكفير؟ هو ذاك ما عناه ليس غير، فاحذر أن تقود نفسك إلى هذه النهاية النكراء التي لا تليق بجلالتك وعظمتك!

حدَّق كاليجولا في وجه شيشرون بخوف وفزع من ذلك المشهد الذي أتقن رسمه، ثم لفح وجهه الشاحب غضبٌ حانقٌ؛ فهتف:

أجل، لن أقود نفسي العظيمة إلى تلك النهاية الحقيرة، وأمام عيني ألكساندروس! ألا فليمت ألكساندروس، وليمت الشعب.. وليهلك إيتوس ثم ليأكل الدود جسده..

وارتمى على كرسيه جالسًا بإنهاك، وأنفاسه تتسارع غضبًا..

ولم تمر لحظات حتى لانت ملامحه إلى الأسف؛ فرفع يديه إلى ذقنه يتأمل الأرض بحزن، ثم أخذ يهزُّ رأسه بأسى وهو يردد بصوت خافت دامع:

لماذا؟ لماذا يا إيتوسَ قلبي؟!

ولم يتمالك نفسه فغطّى وجهه واسترسل في نحيب عميق..

وبعد يومين.. وصل خبر هروب إيتوس من السجن مع الفتى أوتو وبعض الجنود نحو البلاد الخضراء.. فازداد غضب والده، وازداد معه كمده وبكاؤه..

ولم يكن لشيشرون مُنافسٌ في غيظه وحنقه سوى بوروس الذي كان ينتظر هو الآخر نهاية إيتوس الشنيعة بفارغ الصبر والترقب!!

مرَّت تلك الليلة على شيشرون كريهةً ثقيلةً؛ كأنها ألفُ عام.. يدور في غرفته كالضبع الهائج.. يضرب المنضدة بيده مرة، ويركل الأريكة بقدمه أخرى؛ كأنَّما شبَّت عظامه المتهالكة أربعين عامًا للوراء وهو لا يشعر!!

يشدُّ شعره بقهر يكاد يفتك به في لحظة، ثم يعضُّ شفتيه ويرفع نبرته بالسخط لحظة أخرى، وضربات قلبه ترتفع اضطرابًا، وأنفاسه تزداد حرارة؛ كأنما تتصاعد من نار مستعرة!

وأخيرًا وبعد ساعات على حاله البائسة، تبسّم فجأة! ثم اتسعت بسمته بوحشية وهو يهرول نحو بوروس ليُخبره بِحَظِّهما في الانتقام من إيتوس شرَّ انتقام! ثم دلَّهُ على مكان استيلا ليُحضرها إليه؛ فيبلغ مدى صراخها أذني إيتوس في البلاد الخضراء!

الفصل الثانى عشر
مصيرُ استيلا

أبلغ أحد الجند هادريان أنَّ الوزير شيشرون يريده حالًا دون تأخير! امتثل هادريان للأمر، وكان قد أظهر براءةً تامة من أميره إيتوس، وتظاهر بالنقمة والسخط تجاهه، فاستطاب الإمبراطور كاليجولا ووزيره هذا الموقف منه، وأعليا من شأنه؛ ليكون القائد العام للحرس الملكي!

وقف هادريان وألقى تحية إجلالٍ عسكرية للوزير ولقائد الجيش بوروس..

شيشرون:

ستذهب حالًا إلى التَّل المجاور للغابة لأداء مهمة مستعجلة..

انقبض قلب هادريان، ولم يدعه الوزير يتخبط في توقعاته كثيرًا؛ فسرعان ما وصف له المهمة، وسمى له الهدف:

ستحضر استيلا معك يا هادريان، وسيرافقك بوروس في هذه المهمة.. أحضراها بسرعة، لا تتأخرا، ولا تؤذياها - ثم تبسم بخبث - أريدها سالمةً ليس فيها خدش واحد..

لم يكن هادريان حينها في موقف يحسد عليه، فشعر بقرب إغمائه، وأوشكت الابتسامة الأخيرة أن تُوقعه أرضًا.. غير أنه استجمع قواه آخر لحظة فتماسك، وانحنى لهما وهو يجيب:

أمرك يا مولاي، سأحضرها حالًا، ثم رفع رأسه:

لكن أتمنى أن تعفي القائد بوروس من هذه المهمة؛ فهي لا تستحق هذا الشرف الكبير! ثم إنَّ القائد بات معروفًا عند الشعب الثائر؛ فلمَ يخاطر بنفسه في سبيل إحضار فتاة ضعيفة وأنا قادرٌ على الإتيان بها وحدي؟! فلتُعفهِ يا سيادة الوزير..

كأنما وجدت كلماته في قلبيهما قبولًا؛ فوافقا على الفور، وأوكلا له الأمر..

انحنى لهما مجددًا قبل أن يعتلي جواده، وينطلق نحو التلِّ الذي كان يعرفه جيدًا.

وصل هادريان إلى منزل الفتاة، فتح الباب بسرعة دون أن يطرقه وهو يلهث:

استيلا، استيلا..

كانت تُشرف وقتها على إعداد الحساء؛ فاستدارت نحوه بفزع، وما إن رأته حتى هتفت:

هادريان؟!

أسرع نحوها وهي واقفة في مكانها تنظر إليه باندهاش، وكأنها تنتظر منه إجابة سريعة عن سبب حضوره المفاجئ؛ وبدون إيتوس!

وما إن صار بقربها حتى أمسك بكتفيها وخاطبها بعينين مرتعبتين:

يجب أن نرحل الآن يا استيلا.. إن بقيتِ دقيقة أخرى هنا فستكون نهايتك.

رفعت حاجبًا دون الآخر:

بماذا تهذي يا هادريان؟ ثم أين إيتوس؟ لا أراه معك!

أجابها:

إيتوس في البلاد الخضراء، ويجب أن نلحق به حالًا، هيا يا استيلا، هيا..

طالعته هنيهة بدون استيعاب، ثم ضيقت بين حاجبيها وهي تُنزل يديه بضجر:

كلا يا هادريان لن أذهب معك.. أمي لوحدها في المنزل، ولن أتركها حتى يعود أبي، ثم ننظر في أمرك!

صرخ في وجهها:

تنتظرين حتى يحضر والدك؟ هل جننتِ؟! قلت لك لو بقيتِ دقيقة هنا فستكون نهايتك حتمًا.. ألا تفهمين؟!

كأنَّ ضجرها منه قد ازداد؛ فاستدبرته قائلة بصرامة:

يكفي يا هادريان يكفي.. كلامي واضح، وليس من حقك إجباري على فعل شيء أيها البحار..

ثم كأنَّها تفكَّرت؛ فاستدارت نحوه متسائلة: ولكن أي نهاية هذه التي تتكلم عنـ.....

قُطع سؤالها حين انقض عليها مُحكمًا قيد يديها.. فتحت فمها صارخة، إلا أنه قطع صرختها برباط أداره بسرعة على رأسها مُغلقًا به فاها، ثم حملها، وانطلق بها مُسرعًا إلى جواده، امتطاه غير مكترث لتوسلاتها المكتومة وعينيها المذعورتين، ضرب حصانه ليرفع قدميه الأماميتين صاهلًا بقوة، ثم انطلق بهما بأقصى سرعته، انتبهت أمها التي كانت تملأ الدلو من ماء البئر لتلك الجلبة؛ فرأت فارسًا تعرفه يحمل معه ابنتها مُقيدةً ويهرب بها!!

دوَّت من فمها صرخةٌ وهي تسقط الدلو فانكفأ الماء، وراحت تركض خلفهما بأسرع ما لديها وهي تنادي بأعلى صوتٍ تملكه:

استيلا.. استيلا..

اختفى الجواد ومن عليه، وتعبت الأم من طول ما ركضت؛ فسقطت على الأرض مُنهكة وهى تلهث بعينين متسعتين باكيتين:

استيلا.. ابنتي!!

ثم رمت رأسها على الأرض، وهي تضربها بيدها يأسًا وقهرًا، وعلا نحيبها..

شعر شيشرون بتأخر هادريان؛ فساوره القلق، صار يذهب ويؤوب تِباعًا ويداه معقودتان خلف ظهره، وأخيرًا صرخ ببوروس:

تأخر الرجل كثيرًا!!

بوروس:

مهلًا سيدي؛ فليس المكان بقريب، ثم إنَّ مهمته تلزم حذرًا ولعل هذا سبب آخر لتأخره!

صمت شيشرون، ولم تصمت قدماه.. فما يزال وقعهما وهو يمشي ذهابًا وإيابًا يدقُّ بإزعاج في أذني بوروس حتى نهض وهتف مستسلمًا:

حسنًا سيدي.. سأذهب وأتحقق من الأمر.

لثَّمَ بوروس وجهه متنكرًا، واتجه إلى التلِّ مع اثنين من جنوده، وحين وصل إلى منزل الفتاة، رأى باب البيت مفتوحًا على مصراعيه، كانت الأم في الداخل، تجلس على كرسي من كراسي المائدة الصغيرة، قد أسندت عليها وجهها تبكي بحرقة، وحين سمعت صوت خطوات عديدة رفعت رأسها بفزع، فإذا ببوروس ورفيقيه قد دخلوا إلى المنزل؛ صرخ بها:

أين ابنتك؟

ظنته علمَ بالأمر فجاء لإنقاذ ابنتها على غير عادة أتباع كاليجولا! لعلها رحمة من السماء نزلت خاصة بها! ربما..

سرَّها هذا الخاطر للحدِّ الذي نهضت فيه مسرعة نحو بوروس، ثم جثت عند قدميه وهي تتوسل باكية:

لقد خطفها.. لقد خطفها.. أرجوووك يا سيدي أنقذها.

تبسَّم بشيءٍ من الفرح، إلا أنَّه عاد يتأكد:

وهل تعرفين من خطفها؟

الأم وهي ترفع وجهها نحوه وقد تمعَّر غضبًا وسط دموعها:

نعم أعرفه، إنه هادريان يا سيدي.. قدِم مرة يخطبها لفتىً اسمه إيتوس، وجاء الثانية؛ ليخطفها!

اتَّسعت ابتسامة بوروس الفرحة حتى استحالت لقهقهة مُدوية لم تعلم الأم لها سببًا! إلا أنَّها قالت متوسلة:

أرجوك يا سيدي أنقذها؛ فهي لا تزال صغيرة لا ذنب لها في شيء.

ركلَ بوروس وجهها وهو يصرخ:

اصمتي يا حمقاء..

فسقطت الأم على الأرض وهي تتألم من ركلته القوية.

استدار بوروس عنها وهو يُزمجر:

فلتنسي ابنتك إلى الأبد، ولتنسَ هي أحلامها الوردية، إنها ملك الوزير شيشرون من اليوم فصاعدًا..

ثم أطلق قهقهة أعلى من الأولى.. واختفى ومن معه في لمح البصر.

بقيت الأم تحدِّق فيهم، وهم يبتعدون مع خيولهم حتى اختفوا، تاركين لها قلبًا خاويًا ضائعًا لم يُدرك بعد ما يدور، فتحاملت على نفسها ووقفت وهي ما تزال تُمسك خدها المحمر من أثر الركلة، ودموع عينيها قد جفت!

مضت نحو الباب فأغلقته، ثم عادت إلى الكرسي، وجلست عليه دون أن تخفض رأسها على الطاولة.. بل بقيت جالسة مستوية الظهر، تحدِّق بعينين ذاهلتين في اللا شيء!

بقيت على ذلك وقتًا قبل أن تفتح شفتيها المتلونتين بلون الرعب وهي تُغمغم:

هادريان الغدار خطف ابنتي! وبوروس الذي حسبته منقذًا، جاء ليتأكد من مهمة ذلك الغدار!

ثم ضحكت وهي تقول:

يا لغبائي حين أحسنتُ الظنَّ للمرة الثانية في الإمبراطور وأتباعه، الأولى حين أخذوا مني ولدي كريستيان، وهذه حين اختطفوا استيلا!! أهو اليأس يدفع بي لأن أحسن الظنَّ في جزاريَّ؟!

ثم عاد وجهها إلى الجمود، وتشتت بصرها وهي تهمس:

ولكن ألم يكن هادريان بحارًا؟! وهو صديقٌ للبحار إيتوس الذي خطبها بعد حبٍّ طويل؟! هل هما متفقان على الجريمة؟ أم أن هادريان قد غدر بالاثنين؟!

ثم عادت قهقهة بوروس المشمئزة تتردد في أذنيها كأنَّه ماثل أمامها الآن يطلقها مع كلماته (فلتنسي ابنتك إلى الأبد، ولتنسَ هي أحلامها الوردية، إنها ملك الوزير شيشرون من اليوم فصاعدًا)، فانكسر حاجباها وأخذا بالتراقص، واستحال جفاف عينيها للمعانٍ مؤذنٍ بهطول دموعها؛ وكأنها استوعبت من جديد فداحة مُصيبتها.. ولم تمضِ لحظات حتى صارت تضرب المائدة برأسها وهي تبكي ابنتها صارخة:

استيلا.. ابنتي الحبيبة، هربتُ بك خلف الغابة الموحشة حتى أحميكِ.. إلا أنني فشلت! لقد فشلتُ في حماية كريستيان! وها أنا الآن أفشل في حماية استيلا! ما

الذي بقي لي في هذه الحياة كي أعيش؟! ألا ما أبأسني من أُمّ! ألا ما أتعس حظي أن أُصاب في صغيريَّ الوحيدين!

وصل بوروس إلى شيشرون يُبشره بنجاح هادريان، وأنَّه لا داعي للتشكك في صدقه بعدما أثبت لهما ثانية وفاءه وإخلاصه.. فاستبشر الوزير، وانبلجت الأفراح في وجهه وهو يردد:

أرجو أن يصل بسرعة لأنعم بوجهها الجميل..

ثم انتظر، وانتظر، ومضت ساعة كاملة دون أثر فيها لهادريان! فانمحت تلك الأفراح من وجهه، واكفهرَّ سخطًا وهو يُزمجر:

أين هما يا بوروس؟ قلتَ إنه في طريقه إلينا! أين هو وقد انقضت ساعة على مجيئك ولم يأتِ هو بعد؟! هل ذهب إلى تلِّ في مدن الشمال؟! أم أنه سلك طريقًا آخر لا نعرفه؟!

اضطرب بوروس وهو يجيب:

لا أدري يا سيدي! لكن لعل طارئًا أخَّره!

شيشرون:

وأيُّ طارئٍ هذا؟! هيا تحرَّك ولا تكن أبله، وابعث جنودك للسؤال عنه..

أرسل بوروس جنوده في الحال.. وما إن مضى بعض الوقت؛ حتى عادوا إليه ينقلون له خبر شهود عيان بأنهم شاهدوا الفارس والفتاة المخطوفة يسلكان الطريق المؤدية إلى البلاد الخضراء!

جُنَّ جنون الاثنين، وامتقع وجهاهما غيظًا واستنكارًا لهذه الخيانة الفظيعة، أخذ شيشرون يزبد ويرعد:

كيف صدقتُ أن صديقًا للخائن إيتوس يمكن أن يفي لنا؟ أليست الطيور على أشكالها تقع؟! فكيف ظنَّ عقلي أن وفيًّا يمكن أن يُصادق خائنًا؟!

ثم أمر بفرسه وامتطاه؛ ليلحق بهما مع بوروس يرافقهما عشرة من الجنود المدججين بأسلحتهم.

كان هادريان حينها قد قطع مسافة كبيرة؛ فاطمأنَّ بعض الشيء، ثم استذكر قيود الفتاة التي شغله عنها خوفه الشديد وقلقه من أن يدركه بوروس وجنوده، فأنزل عينيه نحوها، كانت لا تزال كسيرة الملامح، مفجوعة في أمرها؛ فأحزنه أنه لم يسمع شهقاتها الباكية إلا الآن، وآلمه إغراق دموعها لرباط فمها وأعلى ثيابها، كأنها لم تتوقف لحظة عن البكاء منذ اختطفها!

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أعاد بصره إلى الطريق وقد صيَّر ركض جواده مشيًا، ثم همس:

أعلمُ أنكِ مستاءة مني، وأنَّك لا تظنينني إلا مجرمًا غدارًا! بل ربما جاوزني هذا الظنُّ إلى إيتوس فشمله معي.

عقدت حاجبيها، وهزَّت رأسها رفضًا وهي تحاول زجره بكلمات لم تُفهم من خلف الرباط، فلما رأى ذلك اجتاحته ضحكة وهو يقول:

إذن ما يزال إيتوس يحظى بمكانة عالية في قلبك لا تطالها شكوك.. هذا مُذهل!

لم تتغير ملامحها الغاضبة، إلا أنها أشاحت بوجهها عنه.

تابع حديثه:

على كلٍّ، يجب أن أخبرك بالحقيقة، لا يهم إن صدقتني أو ظننته سلوكًا سيئًا آخر فيَّ.. المهم أن أصارحك بها؛ فهذا وقتها.. أمَّا تصديقكِ لها فإن لم يكن الآن؛ فسيحدث حين نصل إلى البلاد الخضراء حتمًا..

شعرت بصدق نبرته، فرفعت عينيها نحوه؛ وحين قرأت في ملامحه الجد هدأت وانتبهت..

هادريان باسمًا:

يسوؤني أن يحدث ذلك وأنتِ بهذا القيد المزعج، ولكني لا آمنُ ردة فعلك إن فككته عنك؛ فيفوت علينا الوقت الضيق وأنا أحاول اللحاق بك، أو إقناعك بإكمال المسير معي، لكن بعد أن أكمل ما سأقول سأفكُّه عنكِ.. وأرجو ألا يخيب الظن فيكِ حينها..

ازداد انتباهها، وأصخت إليه سمعها كأنهما أُذنا المحكوم عليه بالقصاص يستمع إلى الخطبة الأخيرة قبل تنفيذ الحكم فيه!

صمت هادريان عدة لحظات كأنَّه يستجمع ما سيقول.. ثم تنهد بعمق، وأردف:

إنَّ إيتوس يا استيلا لم يكن بحارًا، ولا أنا ببحار.. أنا هادريان قائد الحرس الشخصي لولي عهد البلاد.. وإيتوس هو ولي العهد..

اتسعت عيناها دهشة، وراحت تُطالعه بغير استيعاب!

فأكمل:

كانت بداية معرفته بكِ حينما كان يصطاد في الغابة، فساقه إليكِ عزفكُ الجميل، أخذ يستمع إليكِ طيلة ذلك اليوم حتى خافَ من أن تُدركيه؛ فانصرف مرغمًا، ثم أخذ يعاود الوقوف لمراقبتك من بعيد، مأخوذًا بجمالك، مسحورًا بمنظرك، ظلَّ على ذلك الحال أيامًا متتالية وأنتِ لا تعلمين، حتى قرَّر أخيرًا التنكُّر بذاك الزي الأسود؛ فيسعدَ بلقاء الفتاة التي سلبت فؤاده، وكان حينئذٍ لقاؤكما..

صار ينتهي من صيده سريعًا كل صباح؛ ليخترق أشجار الغابة الكثيفة نحوكِ.. أنتظره ساعات طويلة؛ ليعود إلينا بعدها متورد الخدين، باسم الثغر بخجل، كأنَّه خرج من أحد الينابيع الـمُجدِّدة للحياة!

لن تتصوري كيف كان فرحي له واغتباطي بحاله، وهو أميري الذي أحرسه منذ بلغ العاشرة.. أعرفه شابًّا عفيفًا لطيفًا لا يقبل ما يقبله الإمبراطور وأهل بلاطه.. عاش سنواته يمارس ما يصقل فكره وجسده؛ فازداد عقله اتقادًا وجسده قوة حتى ليكاد يغلبني في كثير من الأحيان إن تبارزنا، إيتوس مختلف يا استيلا.. مختلف عن الجميع.. لذا أحبَّ فتاة ريفية فقيرة وهو ابن الملوك! لو لم يكن إيتوس لأخذك إلى قصره بالقوة كما يفعل والده وهو يعلم أن لن يمنعه أحد؛ ولكنه إيتوس..

استمر معك تلك الأشهر وهو يكتمُ عنك تِيهه بين رغبته في الارتباط بكِ، وخوفه عليكِ من والده إن علم بالأمر، وحين أدرك قرب تغير الأوضاع في البلاد، عزم على خطبتك بصفة البحار التي دخل عليك بها، على أن يعقد زواجه بكِ أول ما تسنح الفرصة بذلك، أخذني معه ليخطبك وأنا لا رغبة لي! حاولت التهرب من الأمر إلا أنَّه تمسك بي - ثم وهو يتبسم - هل تعلمين؟ أنا الآن مسرورٌ أنَّه أخذني معه بالقوة؛ فلولا ذلك ما عرفت وجهك ولا عرفتني، لقد سهَّل عليَّ أمر اختطافك وهو لا يدري - ثم استدرك - بل ربما يدري، فلمولاي إيتوس حدس باهر وربما هذا أحدها!!

صمت لحظة، ثم استرق نحوها نظرة فاحِصة؛ فقرأ على وجهها الصدمة والذهول، كأنها تربط بين كلماته بمُعاناة؛ لتصل إلى ما يستوعبه عقلها!

شعر بعطفٍ نحوها وهو يُدرك عِظَم المفاجأة عليها، إلا أنَّه استمر في صمته لحظات أخرى ليست بالقصيرة، أخيرًا طالعته بعينيها كأنَّها تطالبه بمزيد إيضاح؛ لتكتمل الصورة الناقصة التي ارتسمت في ذهنها!

فهمس:

تسألين الآن لمَ اختطفتكِ، أليس كذلك؟

أومأت برأسها أن نعم!

فأجاب:

لأن إيتوس أعلن براءته من والده والثورة عليه مع الشعب..

لم تُخفِ ملامحها دهشةً وهي تحدِّق فيه، فتابع:

والآن هو في البلاد الخضراء، لقد فرَّ إليها بعد أن مكث في سجن والده بضع ليال، فأرسلني الوزير شيشرون في طلبك؛ ليتشفى من إيتوس! أمرني أن أحضرك إليه حالًا لأنني أعرفك.. فأظهرت له تمام الإذعان، وانطلقت نحوكِ، ولكن ليس لآخذكِ إليه؛ بل لأختطفك إلى إيتوس..

ثم أنزل عينيه إليها وسألَها مُداعبًا: ألستُ ذكيًّا يا استيلا؟ ألا أستحق ثقة مولاي ولي العهد كل تلك السنوات التي خدمته فيها، وأن أكون صديقه المقرب؟!

ألقت نظرة على ملابسه؛ فإذا بها تلحظ ما امتازت به.. كان زيًّا عسكريًّا اتضح عليه علوُّ مكانة صاحبه بين الجند.. لا تعلمُ هل هي لم تلحظ الزَّي إلا الآن! أم أن حديثه الآنف أضفى عليه رونقًا وهيبةً! فسرت في جسدها قشعريرة حين أدركت أنها تمضي مع قائد الحرس الملكي في رحلة واحدة..

اكتملت الصورة في ذهن استيلا، وأبصرت تفاصيلها، بيدَ أن ثمة ألوانًا مفقودة؛ كما أنها لم تُبصر معها الإطار! فأرادت أن تسأل عن شيء تودُّ معرفته، إلا أنها لم

تفعل، ربما بسبب الرباط الذي على فمها، وربما لهيبتها منه.. فأطرقت رأسها ولم تكن فعلت من قبل، شعر بذلك؛ فانشرح صدره، هو الآن يُدرك أنها ما فعلت ذلك إلا لتصديقها كل ما قيل، وأن فكرة فكِّ القيود عنها قد حانت فيستريح ضميره، فأوقف حصانه، ثم رفع يده التي كانت تمسك بلجامه ليُساند الأخرى في نزع الرباط عن فم الفتاة، ثم عن معصميها.. شعرت استيلا حينها بحريةٍ لم تكن تدرك قيمتها من قبل، همَّت أن تصرخ فرحًا إلا أنها تداركت نفسها؛ فتمتمت بكبرياء الأنثى:

شكرًا لك سيد هادريان.. شكرًا على إنقاذك لي.. لكن اعلم أني لن أسامحك وقد أطلت قيدي - ثم وهي ترفع يديها قليلًا - انظر إلى معصميَّ كيف احمرَّا من قسوة قيدك؟!

ثم طالعته بعينيها الزرقاوين، الهدباوين[1] تتصنّع فيهما العتب: ألم يكن الأجدر بك لو أرخيتَ رباطهما قليلًا؟! فلا أظنني أملك القوة لفكه مهما حاولت!

افترت شفتاه عن بسمة وهو يرد:

آسفٌ يا استيلا - ثم استدرك - بل يا مولاتي استيلا.. فما إن نصل إلى البلاد الخضراء حتى تصبحي زوجة ابن إمبراطور ثيفا، وحاكمها المقبل..

اتضح تفاجؤها من كلامه كأنها للتَّو استوعبت الأمر؛ فاكتملت ألوان الصورة، وازدادت وجنتاها المحمرتان خِلقة بحمرة خجل شملت معها كل وجهها الصغير، فأشاحته عنه قليلًا تُخفي سرورها بما لم تكن تتوقعه لحظة من عمرها.. زوجة ابن الإمبراطور وولي عهده؟! خفق قلبها لهذا الخاطر.. ولمَّا تراءت وجه إيتوس باشًّا

(١) الهدباوين: طويلتا الرموش.

في وجهها، مُشرعًا ذراعيه لها بسرورٍ حين يراها؛ ازداد خفقان قلبها حتى وصل إيقاعه القوي إلى صدر هادريان؛ فأخفى ضحكته..

وبعد ساعة، وقد توسطا طريقًا تحفُّه الأشجار ذات اليمين وذات الشمال، شعرا بحركةٍ قربهما.. تبعتها أصوات همهمة لعدة جياد من خلف تلك الأشجار.. فاضطرب قلب هادريان، وبهتت استيلا خِيفة!

ولم يطل الأمر حتى انقض عليهما الجنود العشرة قاطعين عليهما الطريق، فتراجع جواد هادريان إلى الخلف خطوتين فزعًا، واستلَّ صاحبه سيفه صارخًا:

تبًّا لكم أيها الأوغاد.. ماذا تريدون؟!

جاءه الجواب مباشرة من خلف الأشجار:

جئتُ لأسترد حسنائي منكَ، ثم أمنحك شرف إمتاعنا في حفلة التعذيب القادمة..

التفت هادريان تجاه الصوت؛ فرأى شيشرون يُقبلُ نحوه فارجًا بين شفتيه ببسمة خبيثة، ومن خلفه بوروس.

كزَّ هادريان على أسنانه قهرًا من فواتِ حظهما، وشدَّ استيلا نحو صدره وهو يرمق الجمع حوله بغضبٍ وحنق!

شيشرون بتهكم:

مهلًا يا صغيري، تكاد تحطم عظامها الرقيقة وأنت تحسبُ أنَّك تحميها!

ثم أطلق قهقهة مُدوِّية..

بوروس ببسمة مماثلة وهو يُمرر سبَّابته ما بين أنفه وفمه:

سعيدٌ جدًّا لتمكننا منك أيها الخائن.. لا أعلمُ أيَّ عذاب يجب أن نُنزله بك؛ ليتشفَّى منك سخطنا.

أسَرَّ هادريان لاستيلا دون أن ينظر إليها:

تمسكي بي جيدًا؛ فلستُ بقادر على ذلك وأنا فارسٌ ومقاتل!!

رفعت عينيها إليه؛ فوجدت جبينه يتفصدُ عرقًا غزيرًا مارًّا بحاجبيه المعقودين، ووجهه يمتقع احمرارًا كأنَّه الشمس في مغربها، ولصدره المضطرم ضربات قوية؛ كأنَّها أقدام معسكر كامل في استعراضهم!

فشدَّت يديها على ثيابه وهي تبلع ريقها بصعوبة قبل أن توجه نظرة خائفة لمن حولها.. فازداد خوفها من نظراتهم الشرسة وسيوفهم اللامعة.. وما إن وقعت عيناها على شيشرون الذي كان يُحدِّق بها كأنما يُريد التهام وجهها الصغير بنظراته المُرعبة، حتى اخترقت نظراته قلب الفتاة بقوةٍ وشعرت بالتهامه؛ فصرخت من غير شعور وهي تدسُّ وجهها في صدر هادريان وقد سرت في جسدها انتفاضة المذعور، وجهرت ببكائها..

لم يقل هادريان لتهدئتها شيئًا، بل لم ينظر إليها وكأنَّها لم تُبدِ شيئًا! فقد كان عقله تلك اللحظة يحدثه بقتلها قبل أن يتمكنوا منها.. ثم يُقاتل هو إلى النهاية.. لا بأس أيَّ نهاية له.. المهم أن تكون استيلا وقتها في بركة دمائها ميتة!!

ولم يكد يُقلِّب هذا الخاطر في عقله حتى هجم عليه أحد الجنود مُبارزًا بشراسة وسط صراخ شيشرون:

اُقتله دون أن تمسَّ الفتاة بسوء!

فاضطرب الجندي، ولم يُدر المعركة لصالحه؛ وقد أعاقه تقدم الفتاة عن هادريان فكان الأمر لصالح الأخير الذي صرخ باستيلا:

أغمضي عينيك..

ولم تكد تفعل حتى باغت الجندي بضربة جزَّت رأسه عن جسده فتدحرج أرضًا، وهوى جسده على الأرض ودماؤه تتفجر من رقبته!

فزِع الجنود، وتراجعوا للوراء سريعًا.. فصرخ بهم بوروس:

هل خفتم يا جبناء؟ إنَّه فارس واحدٌ وأنتم تسعة!

أجاب أحدهم بصوتٍ خائف:

لكن الوزير يطالبنا بالبطش به دون الفتاة، فكيف ذلك؟!

صرخ بهم ثانية:

عليكم تنفيذ الأوامر دون نقاش!

شيشرون بنبرة هادئةٍ تكتم غيظًا وهو ينظر إلى الجسد الملقى على الأرض دون رأس:

التفُّوا عليهما.. ثم هاجموه.. سيقتله أحدكم من خلفه حتمًا وننتهي منه سريعًا.

كان رسمه للمشهد بديعًا واضحًا للجنود، فانبلج إعجابهم به حين كشَّروا عن أسنانهم! وفي لحظة خاطفة كانوا قد أحاطوا بهما متأهبين لتنفيذ ما رسم لهم..

بلغ اليأس من قلب هادريان مبلغه، فأغمض عينيه بقوة وهو يعضُّ على شفته السفلى.. ثم رفع جفنيه، وأغمد سيفه!

علتِ الدهشة وجوه الجميع، وارتفع صوت شيشرون متهكِّمًا:

استسلم الفارس النبيل لـمَّا أيقن نهايته! حيُّوه أيها الجنود على بسالته، حيُّوه..

ورفع يديه مُصفقًا بحرارة..

همس هادريان لاستيلا بصوت متحشرج غير مكترث لتلك السخرية:

سامحيني يا مولاتي فهذا من أجلك.. إنَّنا قد نقسو على أعزائنا حين نرى في الموتِ نجاةً لهم!

رفعت عينيها إليه مُستفسرة، إلا أنه أخرج خِنجره دون أن يُجيبها وكأنه يُسابق الوقت؛ رفع يده عاليًا فاستحالت ملامح شيشرون الساخرة إلى فجِعة وهو يصرخ:

إياك يا هادرياااان!

فلم تكن من صرخته تلك إلا أن زادت إصرار هادريان، فهوى بخِنجره سريعًا ليستقرَّ داخل قلب الفتاة؛ فيُريحها ويستريح!!

لكن وفي طرفة عين، كان خنجر هادريان يطير في الهواء بعيدًا حتى استقرَّ منتصبًا على الأرض! فأدار عينيه المتسعتين إلى جهة الضارب ليرى أسخيلوس ما تزال يُمناه التي ضربت يدَ هادريان ممدودة في الهواء، فصاح شيشرون فرحًا:

أسخيلوس أيها البطل!

توجَّع هادريان، وغلى صدره أسفًا وهو يصرخ:

تبًّا لك يا أسخيلوس.. متى أتيت إلى هنا؟!

ثم استلَّ سيفه ليُبارزه وهو يائسٌ من غلبته.. وتقابل الفارسان، أسخيلوس بوجهه الباسم ثقةً، وجسده الذي يُضاعف جسد هادريان طولًا وعرضًا؛ وهادريان بوجهه المُحتقن من فوات تلك الفرصة، وخوفه من نتيجة المبارزة القائمة..

وبدلًا من أن يهجم عليه أسخيلوس، مضى ببطءٍ نحو شيشرون، ولما أن صار بقربه حنى له رأسه وهو يقول:

أعتذر يا سيدي، لقد فاجأتكم بحضوري..

شيشرون:

بل أنت البطل الذي أفخر فيه!

أسخيلوس:

شكرًا يا سيدي.. ولكني جئت بأمرٍ من الإمبراطور.. لقد أمرني باللحاق بكم حين علم بمهمتكم؛ لأُعْلِمَ سيادتكم أنت والقائد بوروس بالعودة إلى القصر حالًا..

شيشرون متعجبًا:

ولِمَ ذاك؟ - ثم استدرك - لا بأس بذلك، ولكن بعد أن نأخذ هذين أسيرين معنا..

أسخيلوس بنبرة جادة:

لن تستطيع يا سيدي، لقد أمر الإمبراطور ألا يُمس هادريان والفتاة بأذى؛ فقد عاد إيتوس إلى القصر مُذعنًا ومُعلنًا ولاءه لوالده.

تدلى فكُّ شيشرون دهشة، وكذا هادريان واستيلا، أما بوروس فصرخ متعجبًا:

ولي العهد عاد مستسلمًا؟!

أسخيلوس:

هو ذا أيها القائد.. وقد أمرني الإمبراطور بإخفائهما إلى أن ينظر في أمرهما بعيدًا عن سخط ابنه مجددًا!

كزَّ شيشرون على أسنانه غيظًا وهو يزمجر:

لِم عاد ذلك الغرُّ الأحمق.. هل عاد لينتقم منَّا؟!

ثم التفت لبوروس: على كلٍّ لن نسمح له بالفتكِ بنا، ولا بضياع حقنا من هذين..

وأشار بعينيه جهة هادريان واستيلا.

أسخيلوس حانيًا رأسه من جديد:

لا داعي للقلق يا سيدي فأنت بمكانة عند الإمبراطور لا يطالها انتقام، وكلنا فداءٌ لك.

زفر شيشرون بقوة، ثم رد عليه:

احكِم وثاقهما إلى أن نرى أمر ذلك الغرِّ..

ثم انطلق مع بوروس نحو قصر الحكم بسرعة.. اتسعت ابتسامة أسخيلوس وهو يستدير إلى هادريان، لم يفهم الأخير سببها، إلا أنه أوعزها لشرٍّ في نفس صاحبها، فازداد حقدًا عليه..

أمر أسخيلوس الجنود:

تراجعوا للوراء، فليس من العدل مواجهة رجل واحد بعشرة!

امتثلوا لأمره ورجعوا للخلف أمتارًا عدة مُفسحين للاثنين ساحة مبارزة جيدة.. تقدم أسخيلوس نحو هادريان، ثم غمز له وأشار بيده أن يهدأ، والجنود خلفه لا يرون ملامحه.. استغرب هادريان، وشعر بشيء يكمن خلف نظرات أسخيلوس.. اقترب الأخير منه أكثر، ثم خاطبه بنبرة لا يسمع غيرهما مداها:

كنتُ ميتًا منذ عُيِّنتُ حارسًا لسجن القصر واحتفالات التعذيب.. وقبل أسبوع فقط، دبت في جوفي حياة لم أتوقع أن تختلجه لحظة من الزمن وهو قد اعتاد القسوة، وإعانة الظلمة!

صمت لحظة قبل أن يكمل: هل تعلم من أحياه؟

لم يرد هادريان.. بيدَ أن ملامحه المتعجبة من هذا الحديث الغريب أظهرت رغبة في معرفة الإجابة!

أسخيلوس:

إنَّه أمير البلاد وإمبراطورها الموعود؛ إيتوس.. أشعَرني بقدرته على الفتكِ بي، ثم سامحني.. بل ساعدني في النجاة وأنا حارس الظلم! أدركتُ بعدها أني لم أكن

أحمل بداخلي قلبًا من الأساس، وإلا لكنتُ مثله مع الأبرياء! لو تعلمُ يا هادريان كيف شعرتُ به تلك اللحظة ينبت نبتًا داخل فؤادي الفارغ؛ فنبضت فيه الحياة لأول مرة!

كان هادريان يستمع له بدهشةٍ ما لبثت أن لانت بابتسامةٍ من أدرك الفرج..

لاحظ الجند ذلك، فهتف أحدهم:

هل يسخر منك؟ إن كان كذلك فمكِّنا منه نُعرفه قدره الحقير..

رفع أسخيلوس يده مُلوحًا دون أن ينظر نحوهم:

كلا لا داعي فلستُ بعاجز..

ثم اقترب من هادريان أكثر وأسرَّ له:

لنمضي الآن إلى البلاد الخضراء؛ حيث إيتوس.. قبل أن يلحقوا بنا..

استيلا بتعجب:

ألم تقل إنه عاد للقصر مستسلمًا؟!

نظر أسخيلوس إليها وأجاب:

في خيال كاليجولا نعم، فهو يتمنَّى ذلك، ولكن في الواقع لا.. بل هو هناك عند عمِّه يُعِدَّان العدَّة؛ لتصير خططهما تنفيذًا..

فانبسط وجه استيلا عن ابتسامة فرح شديد، وغمر احمرارٌ جذاب وجنتيها..

ابتسم أسخيلوس بغير شعور لـمَّا رأى ذلك، ثم قال:

إذن أنتِ من أبعدتِ الأمير عن والده كل تلك الأشهر - ثم وهو يشيح وجهه قليلًا وقد ازدادت بسمته - على كلٍّ لا أراه يُلام!

ثم أوعز لهادريان أن يتقدَّم عنه، ففعل، التفت بعدها إلى الجنود الذين قد ملُّوا الانتظار فانبلجت أساريرهم، وشدُّوا على سيوفهم، هتف بهم:

لا داعي لذلك فلا شيء يدعو إليه.. إنما هي رحلة يجب أن نمضي فيها أنا وهذا الفارس النبيل، ومن يلحق بنا منكم قتلته..

فرانت على ملامحهم صدمة رهيبة، وأدركوا خيانته هو الآخر! وعاد أسخيلوس صارخًا بأعلى صوته وهو يرفع السيف متوعدًا:

من أراد أن يفقده ولده أو تبكيه أمُّه؛ فليلحق بنا.

فسرت في أطرافهم انتفاضة مرتعبة وهم يعرفون من أسخيلوس! إنَّه ما إن ينقضَّ عليهم حتى يفني تسعتهم في لحظات معدودة.. فكيف وهادريان معه أيضًا؟!

قرأ ذلك على وجوههم فكأنما تذكر موقفه مع إيتوس.. فصاح فيهم:

أخبروا شيشرون أني خدعتكم كما خدعته وكأنكم لم تشهدوا ما حصل الآن.. أخبروه أني أوعزتُ لكم مهمةً بأمرٍ من الإمبراطور فنفذتموها دون أن تُدركوا حقيقتي؛ مثلما فعلَ تمامًا!

ثم استدار عنهم يلحق بهادريان، وانطلقا مسرعين إلى البلاد الخضراء وسط استغراب تامٍّ من الجنود أن يُمليهم عدوهم بعذرٍ فيه نجاتهم!!

الفصل الثالث عشر

اللقاءُ الثاني

بينما كان إيتوس جالسًا مع عمه في حديقة منزله، يتبادلان الأحاديث في انتظار حضور أركون الذي يجب أن يصل من ثيفا في هذه الساعة كما أمره أَلِكْساندروس، وكان أوتو يجلس على كرسي مقابلًا لهما وأمامه لوحة يرسم عليها، إذ نظر إليه إيتوس باسمًا:

ألم تنتهِ بعد يا أوتو؟

أوتو بانهماك:

بقي القليل يا مولاي.

إيتوس بامتِعاض:

إذا لم تكفَّ عن مناداتي بهذا النحو فلن أسمح لك برسمي مجددًا..

رفع أوتو يده إلى مؤخرة رأسه وهو يضحك بحرج:

ولكن.. يجب عليَّ أن أناديك كذلك.

إيتوس:

من فرض عليك هذا؟

أوتو:

لا أحد يا مولاي، لكن هذه هي التقاليد..

إيتوس:

وماذا لو قلتُ لك إني لا أحب منكَ هذا، ولا أرضى إلا أن تناديني إيتوس!

صمت أوتو، وأطرق رأسه حرجًا، فتابع إيتوس بنبرة حانية:

عدَّني أخاك الأكبر منذ خرجنا من السجن معًا إلى هنا.. هل هذا ممكن يا أوتو؟

رفع أوتو وجهه إلى إيتوس، وأومأ ضاحكًا بخجل وهو يقول:

أجل..

ابتهج إيتوس، وأرخى ظهره على الكرسي بارتياح وهو يقول:

إذن فلترسمني متى شئتَ..

ضحك أوتو، وعاد إلى لوحته يُكمل هوايته المحببة.

بعد ذلك دخل الحاجب عليهما فظنَّاه سيستأذن لأركون، إلا أنه فاجأهما بحضور هادريان.. وقف إيتوس مباشرة مُوسعًا عينيه وهو يسأل:

هادريان؟! هل أنت متأكد أنه هادريان؟!

الحاجب:

نعم يا مولاي.

ألكساندروس:

اهدأ يا إيتوس.. ثم أشار إلى الحاجب أن يأذن له.

إيتوس:

أخشى أن يكون مكروهًا قد حصل.. وإلا لما جاء اليوم وهو قد وعدني حين أخرجني من السجن أن يبقى في القصر ليُثبِّت الأمور بعد فراري!

ألكساندروس:

قلتُ اهدأ يا بني حتى نعرف ما وراءه، فقد يكون ثَمَّ جديدٌ اضطرَّهُ للقدوم إلينا ليخبرنا به وحسب!

صمت إيتوس، ووجَّه عينيه إلى الباب.. ولم تمضِ دقائق حتى دخل منه هادريان فارجًا بين شفتيه ببسمة عريضة وهو مشرع ذراعيه في الهواء، فأدرك إيتوس أن ما وراءه سارٌّ وليس بسيئ.. ولم يشعر بنفسه - حين رأى تلك الابتسامة التي طالما اشتاق إليها - إلا وهو مُسرعٌ نحو صاحبها ليحتضنه وهو يهتف:

هادريان، اشتقتُ إليك يا عزيزي.

هادريان بلهفة وهو يمسح ظهر إيتوس بيده:

وأنا سعيد برؤيتك على هذه الحال الطيبة يا مولاي

ثم رفع وجهه ليقابل وجه إيتوس وأكمل:

ما أسرع عودة الجمال إلى هذا الوجه! فقد كان منذ أسبوع شاحبًا ذابلًا، والآن يجري عليه الحسن والبهاء!

ضحك إيتوس بخجل، فعاد هادريان يحتضنه وهو يقول:

سعيدٌ حقًّا بنجاتك يا مولاي..

إيتوس:

وهل الفضل إلا لك يا صديقي هادريان.. عاجزٌ عن شكرك ما بذلتُ لذلك سبيلًا..

لم يكد يُكملها حتى علت قهقهة هادريان، فرفع إيتوس حاجبًا بغير فهم!!

تقدم حينها ألكساندروس وهو يقول:

ما بال قائدنا الشجاع يضحك هكذا؟! لا أظن وراء ذلك إلا ما يُفرحنا جميعًا!

تقدم هادريان حينها وانحنى لقائده إجلالًا، ثم رفع ظهره قائلًا:

هو ذاك يا مولاي.

ألكساندروس بتشوق:

قل ما عندك إذن..

التفت هادريان مُجددًا إلى إيتوس وهو يرمقه بنظرة غامضة، فازداد تعجب الأخير منه.. ولم يدعه هادريان يتخبط في ظنونه كثيرًا، فقال:

لـمَّا علمَ شيشرون بفرارِكَ من السجن، كاد يموتُ قهرًا من فواتِ حظه منك..

ثم أسعفه عقله الخبيث أن ينتقم منك في استيلا!

فصاح إيتوس فجِعًا:

طلبَ استيلا؟! طلبها يا هادريان؟!

هادريان:

نعم، ولكنـ.....

لم يدعهُ إيتوس يُكمل، فأمسك بقميص هادريان، ولعينيه جحوظ من شدة الفزع:

تبًّا لكَ يا هادريان.. أجئت من ثيفا لتفجع قلبي باستيلا؟! أخبرني ما الذي حدثَ لها قبل أن أقتلك؟!

هادريان وهو يُحاول إرخاء يدي إيتوس عن قميصه:

حسنًا يا مولاي، سأُكمل، ولكن دعني.. تكادُ تخنقني..

إيتوس وهو يُقرب وجهه من هادريان ويزيد من شدِّه إليه، وصوته يتحول للصراخ:

أين هي الآن؟ أين يا هادريان؟ هل هي عند شيشرون؟!

هادريان:

كلا كلا، ليست عنده، بل هي في أمان الآن.. أرخِ يديك عني وستعلم أين هي..

وبصعوبة شديدة أرخى إيتوس يديه بعض الشيء، غير أنه لم يُبعدهما عن قميص هادريان..

فتبسم الأخير وهو يُمسك كفّي إيتوس ويُنزلهما، ثم قال للحاجب وعيناه ما تزالان في عيني إيتوس:

ادعهما للدخول الآن..

امتثل الحاجبُ للأمر، وصمت إيتوس، غير أن أنفاسه لم تصمت، بل صار لها صوت مسموع لشدة اضطرابه..

تبسم ألكساندروس وكتَّف ذراعيه:

يبدو أنها مفاجأة فريدة! هل هما رفيعا المستوى في القصر؛ لتجعلهما عِوض الخبر الذي أفزعتَ به صاحبنا؟!

هادريان:

أحدهما نعم.. وسينفعنا كثيرًا، غير أن الآخر ضعيفٌ جدًّا لا نفع منه سوى أنه يملأ قلب صاحبنا هذا نَعِيمًا وجِنَانًا، وهو العِوضُ بذاته..

ازدرد إيتوس ريقه، ولانت ملامحه الغاضبة لدهشةٍ من فهم المقصد!

لم يرد هادريان بغير وجهه الضاحك الذي أداره نحو الباب، أدرك إيتوس أن الجواب يكمنُ خلف ذلك الباب، فنظر إليه مع عمِّه، ولم تمضِ ثوانٍ حتى فغر فمه ودهشت عيناه، ولدقات قلبه تسارع رهيب كأنه قطع عدة أميال ركضًا!

رآها تقف أمامه بقدِّها الصغير، وطلعتها البهية الساحرة.. وكأن بدر السماء قد سقط على الأرض فهو يقف أمامه الآن!

وما إن رأته هي الأخرى حتى تورَّد وجهها فزاد بهاءً، وترقرقت عيناها الواسعتان بالدموع فاستحالت مع زرقتيها لبحيرة جذابة..

ابتسمت له بشفتيها المرتجفتين، فلم يرَ خلف ابتسامتها إلا لآلئ منتظمة أضاءت له ما بين المشرقين من بياضها وحُسنها!

وأخذت هي تتطلعُ إليه، تتأمل هيئته.. لم يكن بحارًا ولا شابًّا من عامة الناس، إنما كان بلباسه الملكي الذي زاده هيبة وجمالاً، فلم تدرِ ما تفعل، بل لم تدرِ وقتها أيَّ خاطرٍ يسكنُ قلبه عنها، أما تزال حبيبته؟ أم أنه أدرك الفارق بينهما فاستغنى؟!

وعلى الرغم من هذا السؤال الذي أفجعها بشؤمه، إلا أنها لحظت دهشته لرؤيتها! أهو الفرح الشديد بها؟ أم هو التفاجؤ من أمر غير متوقع وحسب؟!

شعرت باضطرابٍ حتى أنها لم تلحظ مَن بجانبه وكأنَّه يقف أمامها وحيدًا في أرضِ فلاة شاسعة..

عفوًا، هل قلتُ أرضَ فلاة؟ كلا، لم ترها استيلا فلاة.. بل رأتها جنة خضراء مبسوطة بألوان فاتنة من الورود والأزهار، وكأنها أرضٌ اُقتطعت من تلِّ الألوان؛ لِتحلَّ معه في البلاد الخضراء!

ومع ازدحام تلك المشاعر المتناقضة المتباينة التي هاجمت قلبها، إلا أنها لم تمنح الإحراج فرصة ليتمكن من كبرياء أنوثتها في هذا الموقف الصعب؛ فسارعت تُمسكُ بطرفي فستانها مُغالبة ما في قلبها، ثم أمالت جذعها تُحييه:

طاب صباحك سيدي ولي العهد..

وما إن سمع صوتها العذب حتى أشرق وجهه ضاحكًا، وخفَّت قدماه نحوها وهو يهتف:

استيلا حلوتي!

بقيت متجمدةً في مكانها تنظر إليه، وقد فاضت ماء بحيرتيها حتى انسكبت دموعًا من فرطِ فرحتها به.. كان يركض نحوها وهو يتأمل وجهها، وجه فتاته التي كان يعلم يقينًا أي مرارة فقدٍ ستعانيها حين رحل عنها مجددًا، ها هي تقف أمامه الآن فلا فقدَ ولا بُعد.. أهما الآن في جنة السماء؟! أهذا ما يسميه الناس دائمًا بلقاء الأحباب في السماء؟!

لم يكد هذا السؤال يتردّد في خاطره حتى وصل إليها، فأحاطها بذراعيه وضمها إلى صدره وهو يصيح:

استيلا حبيبتي.. لا أصدق أنك هنا حقًّا، أووووه يا استيلا أيُّ جنَّةٍ هذه التي أنا فيها؟!

ثم عانق بيديه وجهها، ورفعه نحوه يتأمله بعينين يترقرق فيهما دمع السرور وهو يقول:

لستُ في حلم أليس كذلك؟! أنتِ استيلا وليس طيفها.. ونحن في الدنيا، ولسنا في السماء بعد، أليس كذلك؟!

ضحكت من كلامه على الرغم من بكائها؛ فزادته ضحكتها الرقيقة جنونًا بها ليجذبها مُجددًا نحو صدره يُعانقها وهو لا يشعر بأحد حوله.. لا بشر، ولا شجر، ولا هواء، ولا حجر.. كل ما كان يُدركه تلك اللحظة هو كيان استيلا، ورائحتها، وصوتها.. أما بقيَّة ما حوله فبياضٌ خالٍ وحسب.. واكتمل إطار الصورة حينها في عين استيلا!

كان ألكساندروس يتبسم ضاحكًا.. وهادريان وأسخيلوس تعلوهما بسمة خجل، ثم أشاح كل منهما وجهه إلى جهة أخرى.. أما أوتو فكان يقف دهِشًا مما يرى.. كأنه لم يتوقع أن يكون أميره المغوار الذي أنقذه ويعمل الآن على إنقاذ البلاد كافة ببسالة وشجاعة؛ يضعفُ هكذا أمام فتاة حتى يُغالبه البكاء من فرط سعادته بها!!

التفت إلى هادريان وسأله:

هل كادت تموت ليفرح بتجدد حياتها هكذا؟ ثم من هذه الفتاة؟!

طالعه هادريان بتفاجؤ؛ كأنه للتَّو انتبه لوجود هذا الفتى بجانبه.. عرفه مباشرة.. فهو ابنُ الرجل الذي لقيَ حتفه في قبو القصر، ومات بين يدي إيتوس.. فأصرَّ إيتوس يوم أُخرج من السجن أن يصطحبه معه وفاءً بعهده لوالده..

تبسم له هادريان وهو يسأله:

أوتو.. أليس كذلك؟

أوتو:

بلى

هادريان:

حسنًا إنها... اممم إنها...

ثم ألقى نظرةً إلى زاوية بعيدة يستحضر جوابًا مُقنعًا يناسب الفتى قبل أن يعيدها نحوه:

إنها مخطوبته، وبعد وقتٍ قصير ستكون زوجه..

أوتو:

إذن لمَ كل هذا التأثر؟!

طالعه هادريان لحظة ثم سأله:

كم مضى من عمرك يا أوتو؟

أوتو:

عشرة أعوام..

ضحك هادريان بخفة، ثم قال وهو يمسح رأس الفتى:

إذن لا يزال أمامك بعض الوقت؛ لتعرف الجواب بنفسك!

لم يظهر على وجه أوتو الاقتناع، إلا أنه صمت والتفت لإيتوس الذي كان حينها يُمسك يدي استيلا ويسألها بتلهفٍ عن أخبارها..

فمضى هادريان نحوهما وهو يقول:

هذا سيطول حتمًا، فما رأيكما أن تؤجلا حديثكما إلى أن أعرفك سيدي بالزائر الثاني؟!

إيتوس:

صحيح.. لقد قلتَ إنهما اثنـــ.....

قطع كلامه لما رأى أسخيلوس أمامه، فهتف بتعجب:

أسخيلوس؟!

أسخيلوس باسمًا:

بشحمه ولحمه،

ثم انحنى وهو يقول:

طاب صباحك مولاي.

إيتوس وعيناه تنتقلان بين أسخيلوس وهادريان:

ما هذه المفاجأة يا هادريان؟!

ثم مضى إليه وأمسك بيديه وهو يقول:

جئتني باستيلا وأسخيلوس! ومن قبل أنقذتني وأوتو! ما أعظمك! أقسمُ إني أسعد أهل الأرض بصديق مثلك يا عزيزي، ثم تعانقا..

ولم يدم الوقت طويلًا حتى أقبل الحاجب يستأذن سيده بدخول أركون؛ فأُذن له.. نظر هادريان إلى إيتوس، وابتسم بحماس، وهمس:

سيُفاجأ بك..

دخل أركون بلهفة وأسرع نحو ألكساندروس يُحييه.. ثم التفت إلى الجميع يحييهم بين من يعرف ومن لا يعرف، ولما التقت عيناه بإيتوس صاح مُتعجبًا مسرورًا:

بندار هنا؟!

وأقبل عليه بتلهف:

كيف حالك أيها الفتى المسكين؟ لم أركَ منذ ذلك اليوم الذي كنتَ تبكي فيه بشدة

ولم يكد يلحظُ بقايا الدموع في عيني إيتوس حتى أكمل:

وتبكي الآن أيضًا؟! هل أنتَ فتىً بكَّاء يا بندار؟!

ضحك إيتوس وهو يمسح الدموع من عينيه، تدخل هادريان حينها وقال:

أبدًا ليس كذلك، بل هو فتىً بألف رجل، ولكنها رحمة القلب، أو حنينه يا أركون..

رماه أركون بنظرة مشاكسة:

دعه يُجيب عن نفسه يا هادريان.. تتصرف وكأنَّك خادمه!

ظنَّ أنها ستغيظه فيدخل معه في عراكٍ كما يحب دائمًا، إلا أن هادريان تبسَّم له بثقة واعتزاز هذه المرة وهو يجيب:

وهو كذلك يا أركون..

أركون بتعجب:

هل خبِلت؟ لمَ ترضَ لنفسك هذه المكانة من هذا الشاب البكَّاء.. هل استعبد حُريتك ببكائه؟!

ضرب هادريان كتف أركون بقوة وهو يرفع صوته غاضبًا:

عندما تتحدث مع مولاي فالتزم الأدب!

ظنَّ أركون أنَّه يمازحه فصاح:

مزاحك ثقيل اليوم! كيف تضربني بهذه القوة؟! أنسيت أن يديك كالحديد؟!

لم يضحك هادريان من تهكمه ولم يبدِ اعتذارًا؛ بل أجابه بصرامة:

وإن عدتَ لغبائك عدتُ بأقوى منها حتى أفصل عظامك عن بعضها.

اتضحت على ملامح أركون الدهشة، فاقترب ألكساندروس منه وقال بلطف:

أركون يا بني، لم يكن اسم هذا الفتى بندار، وليس هو من البلاد الخضراء كما أظهرناه لكم.. ما فعلنا ذلك إلا لمصلحةٍ وقد انقضت.. إنه في الحقيقة إيتوس بن كاليجولا.. ولي عهد ثيفا، وابنُ إمبراطورها..

احتلت الصدمة عينا أركون وبهتَ وجهه، وأخذ ينقل بصره بسرعة بين ألكساندروس وبين إيتوس وهو يتأكد:

ابن كاليجولا؟

أومأ ألكساندروس بنعم..

أركون:

كاليجولا الذي عاث فينا قتلًا.. وفسادًا؟!

صمت ألكساندروس لحظة مترددًا.. ثم أجاب:

نعم.

لم يكد يكملها ألكساندروس حتى اكفهرَّ وجه أركون وانكمش، وانقض على إيتوس مُمسكًا بتلابيبه يهزُّه بقوة وهو يصرخ بوجهٍ قد اصطبغ بحمرة مرعبة:

إذن أنت الفتى المدلل للإمبراطور الظالم؟! أنت من شبع ونما لحمه من لحوم الشعب ودمائه؟! تبًّا لك ولأبيك.. ما ظننتني أحظى بهذه الفرصة يومًا!

ثم دفع إيتوس - الذي لم يبدِ أي مقاومة - إلى الخلف بقوة، واستلَّ خنجره؛ لينقض على إيتوس بكل ما يحمله عليه في قلبه من حقدٍ وكُره، إلا أن هادريان كان أسرع فحال بينهما وهو يمدُّ ذراعيه في الهواء:

أجننتَ يا أركون؟!

صاح أركون:

كلا، ما جُنِنتُ ولا جَبُنت! وسأقتص لثيفا منه الآن، وإن حاولتَ الدفاع عنه قتلتك معه.. هل تفهم؟!

ثم انقض على هادريان، فأمسك هادريان بيدِ أركون المسلحة، وأخذ يدفعها بكل قوته، حاول أركون إيصال الخنجر إلى صدر هادريان بكل ما يملك من قوة؛ ولولا أن الأخير يوازيه قوة لهلك، فصارت يد أركون تهتز في مكانها لا تعود ولا تمضي وهو مُكشر عن أسنانه بتوحش!!

وبينما هما كذلك إذ صرخ فيه ألكساندروس:

يكفي يا أركون، يكفي.. أوَتجرؤ على هذا وأنت في بيتي؟!

كان صوت ألكساندروس الغاضب كفيلًا بأن يهز قلب أركون، فأحرجه، وخفَّت قوته.. وصارت الغلبة لهادريان فطرحه وخنجره أرضًا..

لم يُطل أركون النظر إلى هادريان الواقف أمامه، بل التفت إلى ألكساندروس، فأكمل الأخير:

ليس ابن أخي كما يظن الشعب، وإلا لما كان هنا الآن يا أركون.. بل لم يكن لقلبه أن يُكسر ويتألم حين نزل إلى المدينة متنكرًا في صحبتك، لقد شهدتَ بنفسك الحال التي غشيته حين عرف الحقيقة!

صمت أركون لحظة، ثم نهض ليقف على قدميه تاركًا سلاحه على الأرض، وكأن في عقله ذهولًا، أو حيرة يريد إجابة عليها!!

بقيَ يتطلع إلى ألكساندروس منتظرًا الإيضاح، فاقترب من أركون حتى صار أمامه مباشرة، وأمسك كتفيه، ثم خاطبه بنبرة تجمع بين الحزم والحنان:

يا بني: إنَّ ابن أخي إيتوس عاش عمره مُغيبًا عن الشعب، فلا هو يخالطهم، ولا هم يعرفونه.. ولكن كان من نصيبه أن حملَ مع والده وزرًا فظُنت فيه الظنون التي هو بريء منها.. ولم يدرك حقيقة ما يتعرض له الشعب إلا الآن.. وإن شئتَ الحق فقد أردتُ ذلك أيضًا.. فلقد أوعزتُ إلى هادريان ومن معه من أتباعنا في القصر ألا يُبدو له شيئًا حتى ينضج ويكبر؛ فيستقصي بنفسه ما يحدث؛ وقد حصل.. فأوصله ذلك إلى الحقيقة التي جلبته إلينا.. إنَّه الآن هنا لينقذ الشعب مما يُعاني.. ولكن أتعلم ممن ينقذهم؟

صمت برهة، ثم أكمل بصوت محزون:

من والده يا أركون.. من والده الذي مهما يكن أمره مع الشعب؛ إلا أنَّه الأب المحبُّ لابنه، المدلِّل له، فما جعله يومًا يشكو شيئًا، أو يعيش بؤسًا، كل الدنيا في

عينيه هي إيتوس.. إيتوس وحسب؛ هو فكرهُ، هو شغلهُ، هو روحهُ، هو وريد قلبه الذي به يحيا، وبدونه يذبل! ومن الطبيعي أن يُبادله إيتوس المشاعر نفسها؛ فهو أبوه وأمه منذ عرف الدنيا، فكيف ستراه الآن وقد ركن كل ذلك جانبًا، مُعلنًا وقوفه معنا ضد والده؛ لينقذ الشعب!

كأنَّ كلمات ألكساندروس التي امتزجت بمشاعر من الألم، قد أصابت أعمقَ ما في قلبِ أركون، فانكسر حاجباه، وأطرق رأسه.. كان حينها يتذكر ذلك اليوم الذي رافق فيه إيتوس إلى المدينة، فارتسم أمامه كل شيء في وهلة، غضبه من بوروس، بل ومعرفته لاسمه!! ثم شحوب ملامحه وهوانُ جسده فلم يُكمل جولته، وأخيرًا بكاؤه الطويل ونحيبه الغريب.. حتى انتهى به المطاف حين تذكر وصف آلي له في أول زيارة لها بعد عودتها من القصر، فرفع رأسه نحو ألكساندروس وهو يقول:

أجل.. فهمتُ يا مولاي..

ثم مضى نحو إيتوس بابتسامة واهِنة، قد امتزج فيها الحزن والندم، مدَّ يده نحوه مُصافحًا وهو يقول:

دائمًا يُقال عني عجول فأغضبُ لذلك وأستنكر، أما الآن، فأظنني أُقرُّ بذلك - ثم ازداد تبسمه- هلَّا قبلتَ صداقتي لك يا بندا..... أقصد يا إيتوس.

هادريان مُصححًا:

مولاي إيتوس.

إيتوس ضاحكًا:

لا بأس يا هادريان، دعهُ يناديني بما يحلو له فذلك أسعدُ لقلبي..

ثم أكمل حديثه إلى أركون:

كرهتُ أن أُدافع عن نفسي وكأني أريدُ أن أكون فداء والدي؛ لترضى عنه أنت والشعب.. تُرى لو أنكَ تمكنتَ من قتلي يا أركون؛ هل كنتُ ذلك الفداء الذي ترضونه؟

لم يستطع أحد إخفاء تعجبه، غير أن وجوههم انبسطت سريعًا عن بسمات مزيفة ليواروا بها انكسار قلوبهم..

أثناء ذلك سُمع صوت فتاة تسأل الحاجب بغضب:

قلتَ دخلَ وتركني؟!

فاستدار أركون نحوها مباشرة وردَّ بحرج:

أووووه عزيزتي.. أردتِ تأمل الأزهار التي تُزين سور المنزل في الخارج، فخفتُ أن أتأخر على القائد ألكساندروس أكثر مما مضى!

ردت وهي تدخل نحوهم:

وإن يكن.. فليس من الإنصاف أن تتركني في جولتي وأنا أحسبك بقربي.. ألم يكن الأجدر بك أن تخبرني بدخولك؟!

مسح أركون رأسه وابتسم بحرج وقال:

آسف عزيزتي، ما ظننتك ستغضبين هكذا!

كانت أمامه حينها، فكتَّفت ذراعيها وأشاحت بوجهها سخطًا.. وما إن فعلت حتى رأت إيتوس فدُهشت.. كان هو الآخر في أقصى دهشته بها فهتف بملء فمه:

آلــي؟!

غطَّت فمها بيدها:

مولاي ولي العهد؟!!

ثم مضت نحوه خطوتين أثقلتهما دهشتها، وأسرع هو إليها حتى أحاط بكتفيها وهو يقول:

حقًّا ما أجملها من مفاجأة!

ثم راح يتأملها بإشفاق:

أنتِ بخير أليس كذلك؟ لم يؤذكِ أحد في القصر، ولم يعلموا بأمرك.. أليس كذلك يا آلي؟!

آلي بالنظرة ذاتها:

بلى، هو كذلك يا مولاي.. أنا بخيرٍ كما ترى.. لكن.. لكن أنت كيف هو حالك؟ سمعتُ أنك أوشكت على الموت في ذلك السجن الظالم حين حُرمت الأكل والشرب..

ثم ترقرقت عيناها وضمت يديها أسفل ذقنها: لو علمتَ يا مولاي كيف كدتُ أموت حزنًا عليك.. لِم واجهتهم في القبو؟ لِم أفشيتَ لهم سركَ؟

فخطت على شفتيه بسمةٌ حانية حين لحظ تأثرها وهمس:

لا عليكِ فقد انتهى ذلك.. وها أنا أمامك بكامل صحتي ونشاطي فلا تبأسي.. بل يجب أن تبقي سعيدة من اليوم فصاعدًا.. هل فهمتِ؟!

أومأت بنعم، ثم مسحت عينيها.. شعرت حينها بيدي إيتوس المحيطة بكتفيها تُسحبان بقوة.. وما إن طالعت حتى رأت أركون يُصفق بيديه ساخرًا:

لقاءٌ جميل يا إيتوس!

هادريان وهو يقترب منه بغيظ:

بل مولاك إيتوس.. هل تريدني أن أقطع لسانك؟! ثم كيف تجرؤ وتسحب يديه هكذا أيها الغرُّ؟!

أركون بنبرة مرتفعة:

وهل أتركه يغيظني بحماقته؟!!

إيتوس بتعجب:

أغيظك؟!

هتف أركون:

ألا تعلم من هي آلي؟ إنَّها خطيبتي يا سيد إيتوس! وإن عُدتَ لِلُطفكَ الأخرقِ معها فسيكون حسابك عسيرًا.. هل تفهم؟!

فجذبته آلي بكمِّ ثوبه وهمست له باستغراب ووجَل:

هل فقدتَ عقلك يا أركون؟! هذا حاكمك المقبل، فكيف تخاطبه بهذه الحدَّة؟

أشاح وجهه مكابرًا وأجاب بصوتٍ مسموع:

لا يهمني ذلك.. وقد أقتله قبل أن يصل إلى الحكم إن عاد لإغاظتي ثانية، والكل هنا شاهد على ما أقول..

كزَّ هادريان على أسنانه، وضحك إيتوس بحرج.. وضحك معه ألكساندروس وهو يقول:

لم أتوقع أنك شديد الغيرة هكذا، أنت تذهلني حقًّا!

إيتوس مُتداركًا:

ما قصدتُ إيذاءه، إنما كانت مفاجأة جميلة حين أدركتُ نجاتها!

آلي بضحكة مُزيفة تُلطف الجو:

صحيح.. كانت مفاجأة وحسب..

تهادى لأذني إيتوس حينها صوتٌ رقيقٌ فيه ارتجافُ بكاء:

مفاجأة جميلة يا إيتوس؟!

التفت جهته بدهشة فرأى استيلا تنظر إليه بعينين عاتبتين كسيرتين، فرقَّ لها حين أدرك ما اعتراها، وراح يطيب خاطرها:

أووه كلا حبيبتي استيلا.. ليس الأمرُ كما تظنين!

لكنها زمَّت شفتيها القرمزيتين المرتجفتين حتى غدت كحبة توت صغيرة تهزُّها يدٌ من غصنها لتلتقطها، وكأنها نسيت هيبته التي أربكتها منذ لحظات من فرطِ غيرتها.. ثم أشاحت بوجهها عنه ومضت دون أن تسمحَ له برؤية المزيد من تأثرها..

أركون بدوره وهو يرمق آلي:

لقد أحسنت هذه الفتاة التصرف، وأنا أيضًا سأترككما لتفرحا ببعضكما، فوجودي سيعكر هذه المفاجأة حتمًا!

ومضى هو الآخر..

بقيَ كلٌّ من إيتوس وآلي ينظر إلى معاتبه وهو يبتعدُ عنه بغير تصديق، ثم نظرا لبعضهما فأدركا موقفهما، أطلقا ضحكة مزيفةً لمواراة حرجهما..

هادريان بتهكم:

أركون ولا أظن أمره سيُستصعب؛ فالفتيات ماهرات في إظهار البراءة والمسكنة

ثم رمق إيتوس ببسمة ماكرة:

ولكن لا أظن ذلك سيحدث مع استيلا إلا أن تختلق لها قصة جديدة.. ما رأيك يا مولاي الجليل بقصة وحش له مائة رأس، وخمسة أجساد متلاصقة.. سيكون مثيرًا حقًّا، وستنسجم معك ناسية غضبها..

لم تظهر على ملامح أحد فهم المقصود ما عدا إيتوس الذي اقترب منه ووجَّه لجبهته ضربة خفيفة بقبضته، وهمس له:

سأكسر هذا الرأس الماكر إن عُدتَ لقولها..

ضحك هادريان وضحك معه إيتوس.. ثم انصرف عنهم وهو يحدث نفسه:

ما أغضبتُ استيلا منذ عرفتها فكيف سأعرف ما يرضيها الآن؟!

ثم رفع يده يُخلل بها شعره بحيرة وهو ينظر إلى الأعلى، سرعان ما تبسَّم بعدها وأكمل:

لا بأس، أظن أن الوحش ذا المائةِ رأسٍ، والخمسة أجساد، سيكون كفيلًا بذلك.. ولكن هل أجعل سلاحي الذي قضى عليه رمحًا كبيرًا؟! كلا، بل سأجعله آلة ما سبق إليها أحدٌ من البشر قبلي، فذلك أدعى لكسب رضاها..

ثم اتَّسعت ابتسامته كمن تورط وهو يحكُّ شعره ويتمتم:

ولكن كيف ذلك وقد عرفت حقيقتي؟

وبعد يومين، عَقد عليها قِرانه، وأُقيم لهما حفلُ زفاف لائقٌ بهما، دُعي إليه الكثير من وجهاء البلاد الخضراء وأصدقاء ألكساندروس فيها، بالإضافة إلى قادة أتباعه وبعض أفرادهم من ثيفا، كما حضره والدا استيلا اللذان قدِما من بلادهما ليعيشا بجوارها في البلاد الخضراء.. كان يوم زفافهما من أجمل الأيام التي خلدت في ذاكرة الزمن..

الفصل الرابع عشر

تفرُّقُ الكلمة

ما إن انتشر خبر انحياز ابن الإمبراطور لعمِّه وللشعب حتى عمَّ الفرح النفوس البائسة، وأخذت الألسن تتناقله خُفيَة وجهرًا كأنما لا حديث لها سواه! واشتعلت الأرواح به حماسة، فأصبحت كمن أُحييت بعد الموت! وصار الانضمام لألكساندروس بعد ذلك على قدم وساق.. فكان المنضمون إليه في الأشهر التالية أكثر ممن كانوا قبلها..

أما ألكساندروس فقد ظلَّ يُكرر على قادتهِ بيقين:

حين تتأصلُ جذور الحرية في تربةٍ صالحة؛ فإنها تنمو بسرعة.. ولا تربةَ أصلحُ من مجتمعٍ قد ذاق من القهر والإذلال ما اكتفى منه!

ثم اتخذَ نهجًا جديدًا بعد دعوة السر.. فصار يُرسل سراياه الملثمين والمتسربلين بالسواد لشنِّ غارات متفرقة على حدود ثيفا.. بقيادة أركون مرة، وهادريان أخرى، وفي كلتا الحالتين يصحبهما إيتوس المتفرد بلِثامه الأحمر؛ فكان كالشعلة المُتقدة وسط الظلام، وعُرف من حينها باسم (الملثم الأحمر)، ساعده ذلك مع حسن قيادته ومهارته في القتال على منحه رونقًا خاصًّا يتغنى به الشعب فخرًا من جهة.. وشؤمًا محرقًا يتوعد الإمبراطور ووزيره أن يُطفئاه بأسرع ما يكون من جهة أخرى، إلا أنه لم ينطفئ ولم يُتمكن منه أو من أتباعه بالرغم من مُضي عدة أشهر من انطلاق السرايا!

أدرك كاليجولا ووزيره وقائد جيشه أن خيانة تسري في جنودهم وقاداتهم.. حيث إن هجوم السرايا لا يأتي إلا في لحظة غير مُتوقعة، وفي ثغر ليس على حراسته إلا القليل!

-كيف يستأمنُ الجنود ونحن في حالة حرب؟ صرخ كاليجولا..

بوروس:

هناك من يزرع الأمن فيهم قبل أن يتمَّ الهجوم.. لذلك أنا أتهمُ القادة، وحدهم من يستطيع فعل ذلك.

كاليجولا:

وماذا تنتظر إذن؟ أحضر كل قائد هوجم أتباعه واستجوبه حتى ينطق بالحقيقة..

بوروس بتخبط:

ولكنَّ كثيرًا من القادة قُتلوا، وكثيرًا منهم أصيبوا إصاباتٍ بالغة!!

كاليجولا:

إذن فمن؟

بوروس بارتباك:

ربما مساعدوهم، أو ربما.... لا أدري يا مولاي، لكن... لكن هناك جواسيس يعملون لصالح ألكساندروس حتمًا.

كاليجولا وقد انتفخت أوداجه:

وما الذي أفدتُه من إدلائك الأخير هذا؟! أنا أعلمُ بوجود جواسيس وخونة.. ولكن ما أريده هو أن تكشفهم لي، أو أفصل رأسك عن جسدك يا بوروس.

انتفضت أطراف بوروس وهو يحني رأسه:

أمرك يا مولاي، أمرك..

ثم خرج لا يلوي على شيء.. حائرًا تائه الفكر، يشعر بالخوف الشديد مما يحدث ومن عجزه عن عمل شيء حياله.. يسأل نفسه:

أين الخلل؟ وما الذي جرَّأ ألكساندروس هكذا على غير عهد سابق؟! وبخطط محكمة، وكأنَّ له مئة عين في المكان الذي يهاجمه؛ فلا نقوى عليه ولا نسلم من بطشه!!

ثم يعلو صوته حنقا ويزداد تخبطه:

إيتوس! إيتوس! ألا تبًّا لك.. ما ظننتك إلا شابًّا لا يهمه غير دلاله وهواياته الساذجة، وإذا بك تقود ثورة لم نحسب لها حسابًا، وتُهيج هذا الشعب الحقير ضدنا! ألا ما أشأمك من ولد!

وأخذت الثكنات العسكرية تتساقط واحدة تلو الأخرى.. يُقتل فيها البعض، ويفرُّ البعض الآخر.. أما الغالبية الباقية فتُسارع بالاستسلام رغبة في الانضمام إلى جيش ألكساندروس!

لم يكن عددهم في كل مرة يتجاوز المئة، لكن ولكثرة الثكنات المتساقطة بتتابع، كثُر عددهم؛ فازدادت قوة ألكساندروس ازديادًا رهيبًا..

بلغته ذات مرة أخبارٌ تفيد بأن هناك قوتين، إحداهما في الشرق، والأخرى في الشمال، قوتين لا تنتمي لألكساندروس ولا تتبعه، غير أنها تسانده في قتال العدو..

لم تكن ملامح ألكساندروس تحمل شيئًا من الرضى حين أنبأه أركون الخبر.. فكلَّفه بالذهاب نحوهما ثم العودة إليه بتفاصيل الخبر.. فامتثل أركون للأمر..

انطلقَ أولًا نحو الشمال، فالتقى قائد القوة هناك، رجلٌ يسمي نفسه (ناصر المظلومين)، وتحته ألف جندي يقاتلون جيش كاليجولا، وقد حققوا بعض انتصارات لا يُستهان بها..

ثم اتجه نحو الشرق؛ ليلتقي بقائد قواتها والذي كان يلقب نفسه بـ(العادل)، واتخذ لقواته مسمى (جيش العدل) في حين لم تكن لقوات الشمال أي تسمية!

التمس أركون من القائدين تأييدًا لحركة ألكساندروس؛ بيدَ أنه لا انتماء ولا اتباع.. أو كما قال كلٌّ منهما عن حركته: (جيش حرٌّ يساعد المظلوم، ويناصر صاحب الحق)

عاد أركون بالخبر فرحًا مستبشرًا بهذا العون الذي كأنما قيَّضهُ الإله تأييدًا لألكساندروس..

ألكساندروس بغضب:

تأييدٌ من الإله؟! كلا ما أظنه إلا شيطنةً ستودي بأحلام الشعب البائس إلى المحق والخسارة!

أركون بدهشة:

ولمَ ذاك يا مولاي؟! هلَّا ظننا بهما خيرًا؟ لو كانا ضد الشعب لأعانا كاليجولا علينا وليس العكس! فلقد رأيتُ راياتهم ترفرف فوق الحصون التي كانت تتبع الإمبراطور الظالم، فأشعرني ذلك بالانتصار، ورأيتُ الناس في أراضيهم تنعم بالخير والأمان...

ألكساندروس:

بئس الراياتُ هي، وبئس الخير الذي تراه أول الأمر لغرضٍ خفيٍّ، ثم ما يلبث أن يستفحل شرًّا إن حازوا على ما يريدون!

ولما قرأ الحيرة وعدم الاستيعاب على وجه أركون تابع مُوضحًا:

أركون يا بني، إني قد عشتُ ستين سنة، وفهمت من الحياة ما لم تفهمه بعد.. إنَّ الظلم إذا عمَّ الناس وأهلكهم، تطلعوا إلى من يُنقذهم، ثم إن رأوا ذلك في أحدٍ أيدوه دون تفكير إلا أنه مُنقذهم! وليس كل لباسٍ حقيقي.. فهناك من يلبس ثوب الحق؛ ليصل بالناس إلى حقهم.. وهناك من يلبسه؛ ليصل إلى أهدافه الدنيَّة متسلقًا على أكتافهم..

سكت ألكساندروس لوهلة ثم سأل:

قُل لي يا أركون، هل كان لهم صيتٌ قبلنا؟

أركون:

كلا..

ألكساندروس:

هل رفعوا راياتهم في أحزابهم المتفرقة، قبل رايتنا؟

أركون:

كلا يا مولاي!

ألكساندروس:

هو ذا حال كل ثورة! يقوم بها جياع الناس وأكثرهم تعرضًا لسياط الظلم، يساندهم الصادقون بدايةً، ثم ما تلبث أن يتسلقها ذوو الأهواء والأطماع دون أن يُفصحوا عن نياتهم، يُسمعون الجياع بريق خطبهم، ويُرونهم أشجع أفعالهم، يُظهرون لهم كل رحمةٍ؛ وباطنُهم من قِبَله العذاب! فإذا ما تمَّ لهم الأمر أو أوشك، ظهرت للناس حقيقتهم؛ فلا يُخرجونهم من ظلمٍ إلا لِمَا هو أحلك منه.. ولا

يُزيلون عنهم مستبدًّا إلا ليَخْلُفه الأشد استبدادًا منه، فيُدرك الناس حينئذٍ غفلتهم وعظيم مُصابهم، بل ربما تمنَّوا الظالم الأول!

صمتَ أركون وهو يبتلع صدمته، ولم يخفَ ذلك على ألكساندروس، فأكمل بنبرة حادة رغم هدوئها كأنَّه يريد ترسيخ ما سيُدلي به في عقل أركون أبد الدهر:

أركون، إني لم أشهد ولم أسمع في حياتي كلها عن ثورة يحدوها الأمل لحُريتها فيعلوها من لا تعرفه؛ إلا وانتهت بمأساة، لا يأتيكَ الظلم مباشرة؛ إنما هي دعوة للحرية، ثم تنتهي بطغيان أكثر مما كان قبل!

أطرق أركون رأسه إلى الأرض قليلًا كمن يُفكر، ثم رفعه وقال متوسلًا:

أعجبني ما قلته يا مولاي، ولكن.. هلَّا تبينا أمر هذين، فربما هما مختلفان، وقد يتبعاننا آخر الأمر..

طالعه ألكساندروس للحظات تحول فيها وجهه لاحمرار شديد، ولحاجبيه انعقاد مغضب مستنكر، ثم صرخ:

مختلفان؟! لو كانا كذلك ما تفرقا عن بعضهما فضلًا عن تفرقهما عنَّا.. إني لم أعش على أمل ثيفا عشرين عامًا لأنتهي بها في هذا المستنقع الأليم! إنما لِحَقِّها وسعادتها فعلتُ ما فعلت، ولن أنزع الراية من الوالد إلا لولده، ولن أُمكِّن في الأرض إلا لمن عرفتُ سريرته وإخلاص قلبه، إيتوس وحسب هو من أسعى لنزع سلطة الظالم له، وهو من سيعتلي العرش لا سواه..

ثم وقف وقد طغى التهديد على نبرته:

لا رايات، ولا أحزاب، ولا قادة نجهلهم، من نجهله يبقى تحت إمرتنا؛ فإن رأينا خيره أبقيناه، وإن أدركنا شره اجْتَثَثْنَاه دون أن نخسر معه شيئًا، وإن رأيتُ غير ذلك منكم تركتكم وشأنكم، وأعلنتُ للشعب خيانتكم، فيتمكن كاليجولا حينئذٍ منكم ولا تُصبحون بعدها إلا أحاديث!

لأول مرة يُشاهد أركون قائده الأعلى بهذا الغضب المرعب، فانتفض قلبه لِمَرآه، وشعر بخطيئته التي حوَّلت قائده الباسم الحليم إلى هذا السخط غير المسبوق، وأدرك قِصَرَ بصيرته، فما كان منه إلا أن أسند ذقنه على يديه مطرقًا برأسه توسلًا واعترافًا بخطئه:

كلا مولاي، لن ترَى منَّا ما يسوؤك، فنحن يدك اليمنى في كل ما تريد، وسهمك الثاقب في أي معتركٍ تخوض، الرأي رأيك وما نحن إلا سيفك المخلِّص لثيفا من ذلك الظلام، لولاك يا مولاي ما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، فلا يُشقينا سخطك.. أرجوك، ولتقرَّ عينًا بولائنا التامِّ لك.

فما كان هذا الجواب الصادق من أركون إلا ضمادًا باردًا لامس قلب ألكساندروس فهدأ، ثم إنه تطلع في عيني أركون، وقال مُلاطفًا حين أدرك ما به:

لا بأس عليك يا بُني، وما أظن هذا الذي حدث إلا درسًا عظيمًا تستفيدُ منه في سِنينكَ القادمة أيها القائد الفذُّ.

رفع أركون وجهه وهو يتبسم، وأرخى يديه فوق فخذيه بارتياح، عاد ألكساندروس إلى مجلسه وهو يقول:

إني أريدك في مهمة.

أركون وهو ينصب ظهره بغرورٍ:

سأكون يدكَ التي ترحم بها من تشاء، وتضرب بها من تشاء.

ضحك ألكساندروس لذكاء أركون واعتزازه بنفسه، ثم قال:

إني امرؤٌ أمقتُ الغرور إلا في هذا الموقف -ثم استدرك بحزم- سأرسلك لِذَيْنكَ تخبرهما بأمرين لا ثالث لهما، إمَّا الانصياع لي والدخول تحت رايتي، وإمَّا الحرب حتى نفنيهم وجنودهم عن بكرة أبيهم!

أومأ أركون بالموافقة، فتابع ألكساندروس:

وسأرسل معك أسخيلوس يعاونك، وتحت إمرتكما ألفا جندي.

في صباح اليوم التالي، انطلق الجيش بقيادة أركون نحو الشمال، وحين وصولهم أرسل أركون أسخيلوس نحو القائد (ناصر المظلومين)، وما إن استقبل الأخير رسول أركون في خيمته -وكان ذكيًّا- حتى قرأ على ملامح أسخيلوس أمرًا غير الذي كان مع أركون في لقائهما الأول، وحين أجلسه بجانبه بادره:

ما الذي جئتَ لأجله أيُّها الرسول؟

أسخيلوس:

جئتك بأمر من القائد الأعلى ألكساندروس، وهو إمّا أن تدخلَ ومن معك تحت رايته، فتنال الشرف والسؤدد، وتوحد الكلمة لإنقاذ ثيفا، وإمَّا الحرب حتى يُقضى على آخر رجل منكم!

تبسَّم ناصر المظلَّومين، ثم قال:

تعجبني شدة لهجته، يبدو لي واثقًا من نفسه!

لم يرد أسخيلوس، ولم يُظهر أي تعابير على وجهه، فعجز الرجل عن سبر خبيئته!!

لذا صمت لحظة ثم قال مماطلًا:

ولكن ما الذي يضيره من أمرنا، ألسنا نقاتل عدوًّا واحدًا، ونسعى لنصرة الشعب نفسه! فما الذي يزعجه إلى هذا الحد؟!

أسخيلوس:

إنَّه ينبذ التفرق، فإما القتال من شِعْب واحد، وإلا فقتلكم قبل قتل كاليجولا وجنوده.

بدا على وجه الرجل الحنقُ من هذه اللهجة القاسية، لكنه أمسك زِمام نفسه وردَّ عليه:

لا بأسَ، سمعنا ما عندك، تستطيع العودة إلى قائدك الآن، وسأرسل إليكم من يأتيكم بجوابي.

أسخيلوس بحزم:

حسنًا.. ولكن أنصحك بالإسراع، فما أظن القائد أركون طويل الصبر!

عاد ناصر المظلومين يبتسم رغم قسوة اللفظ الذي تعمده أسخيلوس، فحار الأخير في أمره!

وبعد وهلةٍ صمت، أجاب ناصر المظلومين:

حسنًا.. لك ذلك.

عاد أسخيلوس إلى أركون يُعلمه بما حصل، وكيف أن لـ (ناصر المظلومين) ردات فعل حيرته بغموضها!

أركون:

أخاله رجلًا ذكيًا.. شعرتُ بذلك حين التقيته أول مرة.

وما هي إلا ساعةٌ من الزمن حتى أقبل إليهم الرسول يُنبئهم بردِّ قائده، وأنَّه وافق على الخيار الأول، شريطة أن يمنحه ألكساندروس منصبًا قياديًّا وألا يخفض رتبته، وكان الجواب من أركون أنَّ هذا هو عطاءُ ألكساندروس لمن ينصاع لأمره دون مقاومة.

أرسل أركون إلى ألكساندروس من يُوصل له هذا النبأ السار من سهولة مهمتهم؛ فلا اقتتال، ولا سفك للدماء.

وأبدى أسخيلوس بعد ذلك أمله أن يكون الشأن نفسه مع أصحاب الشرق، لكن لم يبدُ على وجه أركون أي مشاركة له في هذا الأمل!

انطلقوا جميعًا نحو الشرق مع ثلاثمئة جندي إضافي ممن كانوا تحت إمرة (ناصر المظلومين)، وحين وصلوا إلى المكان وأخذوا موقعهم، أرسل أركون أسخيلوس إلى قائد جيش العدل وهو يوصيه بالحذر!

وما إن جالس أسخيلوس قائدهم المسمى بـ(العادل) وحدَّثه بالحديث نفسه الذي كان له مع قائد الشمال حتى ارتفع صوت الأخير وهو يزبد ويرعد سخطًا من هذا الأمر المهين كما قال!

لم يُبدِ أسخيلوس أي تعابير، بل بقي صامتًا يستمعُ إليه وفي جوفه غليان من التكبر الذي لاحظه على الرجل، ولما أُنهك الرجل من خصامه زفر زفرتين حارَّتين، ثم خاطب أسخيلوس بهدوء متصنع:

اسمع يا هذا.. لقد عرفتُ ما عندك، ولتعرفنَّ الآن ما عندي، وسَيُسرُّ قائدك الأعلى به حتمًا!

غادر الخيمة وفي وجهه أمارات المكر، أمَّا أسخيلوس فقد آثر الانتظار بالرغم مما أحس به! وهو يُمنِّي نفسه أن ما شعر به ليس إلا هواجسَ لا أصل لها! وأن

(العادل) هذا قد أدرك حقيقة أمره والفارق الذي بينه وبين أَلِكْساندروس فيُذعن للأمر بعد ذلك الصراخ!

ولكن.. ما كلُّ من نرجو منهم الخير نجده فيهم، ولا كل من نُلبسهم حُسن ظننا يُحسنون إلينا!

لم تمضِ دقائق حتى دخل على أسخيلوس ثلاثون مسلحًا، وقائدهم (العادل) خلفهم عند باب الخيمة يضحك بخبث، تبسَّم أسخيلوس بخيبةِ أمل، ثم وقف وهو يستلُّ سيفه، رمقهم جميعًا بنظرةٍ خاطفة، أدرك منها عددهم وتنوع أسلحتهم وأنَّه أعجز من أن يغلب ذلك، لكنه آثر القتال على الاستسلام وهو يُسمعهم صوته:

الويلُ لكل خائن ومرتزق، والعزة حتمًا لألكساندروس وللشعب.

فما كان من كلماته إلا أن عكَّرت ضحكات (العادل)، فصرخ في جنوده أن يهجموا عليه، وتصدى أسخيلوس لذلك الهجوم غير العادل بقوة وجسارة، وما إن مرت بضعُ دقائق حتى أُثخن بجراحه، وارتفعت أنفاسه المُنهكات وهو يقف على قدميه بصعوبة بالغة، وأمامه سبعة قتلى، وعشرة جرحى ملقَون على الأرض، فتراجع البقية إلى الخلف متسعةً حدقاتهم منتفضةً أطرافهم!

تآكل قلب قائدهم صدمةً وقهرًا! فراح يصرخ كالمذعور:

أيهزمكم رجلٌ واحد؟! ألا تبًّا لكم من رجالٍ ضعفاء!

ثم استدار إلى الخلف واستدعى رجال ثكنته، فلبَّى النداء مائتا جندي.

أمرهم بنزع الخيمة؛ ليحْلُو له المشهد، ففعلوا، وصار أسخيلوس في العراء يُحيطُ به مائتا مسلح، يليهم جنود معسكرٍ كامل بعددهم الذي بلغ ثلاثة آلاف، وعاد قائدهم يضحك من جديد!

ما إن رأى أسخيلوس ذلك حتى تبسَّم هو الآخر، ووضع يده في جرحه الذي أحدَثه أحد الجنود في بطنه قبل أن يُقتل، فلاحظ عُمق الجرح حين دخلت فيه كفهُ مُحدِثة تدفقًا غزيرًا لدمائه، وأدرك عجزه عن المواجهة، فقال لينال من عدوه:

ما أجبنك من رجل! كيف بمن لا يقدر على القتال إلا بالخيانة والجُبن أن يقود شعبًا لعزته؟! ما أراك إلا روثًا حقيرًا وقد اقترب وطؤه.

الرجل باستهزاء وعدم اكتراث:

قل ما بدا لك، فما هي إلا لحظاتك الأخيرة، لكن لا بأس؛ سأسمح لك بوصية أخيرة أوصلها إلى قائدك بعد قتلك، ثم عَلَت قهقهته.

أسخيلوس بثبات رغم صوته المُنهك:

ولمَ لا؟ فعندي وصية، أخبره أن يُجزئ لحمك قبل أن يرميه للكلاب، فما أظنه إلا مُتصلبًا نتنًا تستقذره الكلاب، وربما إن جُزِّئ قطعًا صِغارًا قبلت بأكله مكرهة!

تمعَّر وجه الرجل، ولفحه الغضب، وهمَّ أن يصرخ في جنوده أن يقتلوا أسخيلوس بسرعةٍ وبضربة من كل سيف فيتمزق أشلاءً، لولا أن صوتًا مرتفعًا يعلوه الفزع اخترق صفوفَ الجنود؛ ووصل إلى أذني قائدهم قبل أن يُصدر أمره:

لقد هوجمنا!! لقد هوجمنا!!

وما إن استدار (العادل) حتى أدرك تأخر النذير، فقد أصبح جيش أركون داخل معسكره بالفعل، يبطش بجنوده بطشًا شديدًا، فذُهل القائد وجنوده الذين يحيطون بأسخيلوس عن فريستهم الجريحة، وصاروا يركضون في كل اتجاه بلا قيادة وبلا هدف سوى طلب النجاة، فاستغل أركون الذي رأى أسخيلوس يسقط على

الأرض إثر جراحه هذا الشتات، وأسرع مع اثنين من جنوده نحوه، وحملوه على جوادٍ لهم، ثم أمرهم أركون بالانطلاق به نحو خيامهم ريثما يُدير هو المعركة، ولم تنقضِ ساعة حتى صار (جيش العدل) في خبر كانَ؛ ما بين قتيل، وجريح، وأسير، أما قائدهم فقد جُزَّ إلى نصفين على يدِ اثنين من أتباعه أثناء المعركة عندما أدركوا وبال أمرهم إذ أمَّروه!!

الفصل الخامس عشر

الفتاةُ الأسيرة

فتح أسخيلوس عينيه بهدوء، فوجد نفسه مُستلقيًا على عربةٍ أيقظته اهتزازاتُ سيرها على الطريق، بقيَ على وضعه عدة لحظات يُحاول استيعاب أمره، ولـمَ هو الآن على العربة؟!

ولـمَّا لـم يجد جوابًا تحامل على نفسه وهـمَّ بالجلوس مثقلًا بسبب آلام جراحه، والتي بدت له أنها تلقَّت تطبيبًا جيدًا قبل أن تُضمَّد، ولم يكد يستقيم حتى استبان له كل شيء، إنه يسير مع الجيش الذي ينتمي إليه بلثُمهم السود، وبدا له أنه طريق العودة إلى البلاد الخضراء.

بادره الجندي الذي كان يجلس بجانب سائق العربة حين رآه استيقظ:

مرحبًا أيها القائد الشجاع، سعيدٌ بإفاقتك.

ثم اتَّسعت ابتسامته وأردف:

سيجن القائد أركون فرحًا بذلك.

ثم أوقف العربة، وانطلق برجليه وصوته معًا، فأوصلاه إلى أركون الذي أمر جيشه بالتوقف حينما سمع الخبر، عاد إلى الخلف مُسرعًا متلهفًا لرؤية أسخيلوس، وما إن فعل حتى قفز إلى العربة ليطوِّق الجريح بذراعيه وهو يصيح بابتهاج:

عزيزي أسخيلوس.. لقد خِفتُ فقدكَ أيها الصديق الشجاع.

أسخيلوس بتبسم:

كلا، لن تفقدوني حتى نبلغ غايتنا معًا أيها القائد.

ما إن سمعها أركون حتى شدَّه إليه أكثر وهو يردِّد طَرِبًا:

أجل يا أسخيلوس.. أجل.

أسخيلوس بصوت مخنوق:

حسنًا أيها.. القائد.. لكن.. هلَّا أرخيتني.. قليلًا؟!

تذكر أركون أن صاحبه مُثخن بالجراح، فارتدَّ للخلف حرجًا وهو يتظاهر بالضحك ويحك شعره:

أوه آسف يا عزيزي، لقد نسيتُ أمر جراحك حين أدركتُ نجاتك.

ضحك أسخيلوس مُلاطفًا قبل أن يجيب:

لا بأس عليك أيها القائد - ثم استدرك - بالمناسبة، ما الذي دعاك إلى الهجوم قبل أن أصل إليكم، أو يصلكم خبرٌ عني؟!

فهِمَ أركون ما يعنيه أسخيلوس، فثبَّتَ نظرة عاتبة بِشدَّة في عينيه:

بل ما الذي دفعكَ للاطمئنان إليه وأنا قد حذَّرتك منه؟! ألم أقل لك أن تُوصِل له الرسالة وحسب، ثم تعود إلينا فلا تُجالسه ولا تنتظر منه ردًّا؟ ما الذي جعلك تخالف أمري؟!

أطرق أسخيلوس رأسه إلى الأرض قليلًا ولم يجب، أو ربما لم يجد جوابًا.

أركون:

حسبتَه كصاحب الشمال أليس كذلك؟ أو لعلَّك أمِلْت في إذعانه لأمرنا إن أشعرته بثقتك فيه.. أليس كذلك؟!

لم يرفع أسخيلوس رأسه، بل أشاح وجهه قليلًا وقد رانت عليه سحابة ثقيلة من الندم والحرج معًا، ثم أجاب بصوتٍ خافت:

نعم.. هو ذاك.

أركون:

وعندما توقعتُ ذلك؛ وقد تفرَّستُ من قبلُ دِماء الخيانة والغدر تجريان في عروق الرجل، حرَّكتُ جيشي نحوك، ولا أعلم لو أني تأخرتُ قليلًا ماذا كان سيحل بك!

ثم تنهد قبل أن يُتابع بصوتٍ أسيف:

كنتُ سأحزن كثيرًا لخسارة عظيمٍ مثلك.

تبسَّم أسخيلوس بوهن، ثم كأنَّه همَّ بالاعتذار، فاستبقه أركون ووضع يديه فوق كتفي أسخيلوس الغليظتين وشدَّ عليهما متبسمًا وهو يقول:

لا بأس عليك يا صديقي، فكلنا يجب أن يقع في الخطأ لكي يستفيد منه دروسًا تكون له منهجًا في حياته بعد ذلك، حتى هذا الذي يُعاتبك الآن، كان يرى أن يُترك ذانِكَ القائدان على حالهما، فلا يُؤمران بالانضمام إلينا، ولا يُزعجنا استقلالهما عنا!

طالعه أسخيلوس بتعجب:

أنت يا أركون؟!

أومأ أركون بنعم، ثم قرَّب وجهه من أسخيلوس وأخفض صوته بشكل أضحك صاحبه:

ولولا توبيخ القائد الأعلى لي ما تنبَّهتُ لغفلتي، بل لقد خفتُ أن يصفعني أو يركلني حين أدركتُ حماقة رأيي!

أسخيلوس وهو يكتم ضحكته:

وهل فعل؟

أركون:

كيف يفعل وأنا لم أترك له مجالًا؟! فما أسرع ما أذعنتُ له!

أسخيلوس:

أيها الماكر!

أومأ أركون بالموافقة وهو يقول:

أجل أنا ماكرٌ جدًّا، ولولا ذلك ما استطعتُ مجابهة عِتابات آلي المتكررة، إنِّها كثيرة الدلال عليَّ تأبى الابتعاد عني، ولطالما حاولتْ إقناعي بمرافقتي في مهامِّي، هل تصدقُ أنه لولا مكري لكانت هي مكانك الآن في هذه العربة الجميلة، ولا تسلْ عن نفسك حينها، كنتَ ستُربط على أحد الخيول حتمًا حتى تكون عاجزًا عن الحركة؛ حِفاظًا على جراحك - ثم رفع عينيه مُفكرًا؛ ثم أعادهما إليه يتبسم بخبث - هل قلتُ أحد الخيول؟! كلا، بل أربعة خيول على الأقل مقرونة مع بعضها، فربما بعد ذلك تُصبح قادرة على حمل جسدك الضخم.

أدرك أسخيلوس أنَّها سخرية، فوجَّه بأصابعه الغليظة ضربة أرادها خفيفة على جبهة أركون، لكنها دفعته إلى الخلف؛ ولم ينتبه لها أركون إلا وقد ارتطم ظهره بسطح العربة! فنهض بوجه متعجبٍ وهو يتلمس جبهته:

أووه آسف، صدقني لم أقصد إزعاجك!

أسخيلوس بملامح مصدومة ومشفقة:

كلا ما أزعجتني، ولا قصدتُ إيذاءك - ثم تبسَّم بحرج - أردتها خفيفة!

تبدَّل تعجب أركون إلى بسمة متهكمة:

خفيفة؟! لا بأس، قبلتُ خفيفتك إذن..

ثم ضحكَ، وشاركه أسخيلوس بضحكة خفيفة تخفي تأنيبه لنفسه، ولمَّا أدرك أركون بحدسه أن السلوى التي أراد إدخالها في قلب أسخيلوس الجريح لم تكتمل؛ نهض وهمَّ بالنزول من العربة وهو غير راضٍ، إلا أنه استدار إلى أسخيلوس قبل أن تنزل قدماه، وعيناه تلمعان بشقاوة:

بالمناسبة، مسكينة تلك الخيول الأربعة لو أنها حملتك، أظنه من الرحمة أن تُقرن بأربعة أخرى لتستطيعَ العيش بعد أن تضعك، أجل هذا ما سأفعله يا صديقي إن غلبتني آلي يومًا؛ واضطررتُ لحملك معنا وأنت مصاب..

لم يكد يُكملها أركون حتى تلمس أسخيلوس ما بجانبه بسرعة؛ ليقذف بأول شيء أمسكه دون أن ينظر ما هو.. أخفض أركون رأسه سريعًا، ثم استدار ليرى ما استقر على الأرض وراءه، كان حجرًا صغيرًا بعض الشيء، لكن قوة الرمية كانت كفيلة بإحداث جرح لو أنها أصابت رأسه، فاستغل أركون الموقف وصاح بجنوده:

هيا لنُكمل المسير قبل أن يُهلكنا بطلنا بخفيفاته!

ولم يكد يسمعها أسخيلوس حتى تيقن من عجزه التام أمام بديهة أركون العجيبة، فضحك ضحكةً سرعان ما تحولت لتأوِّهٍ من جراحه.

توثقت من حينها علاقته بأركون، وازداد له حبًّا، كان طبع أسخيلوس يغلبه الهدوء والحياء مع من يخالطهم وخاصة قادته، على عكس أركون الذي غلبت عليه دماثته وفكاهته، فكانت علاقته مع من حوله قوية يكسوها كثيرٌ من المرح، لا سيّما مع هادريان وإيتوس الذي كان كذلك سهل الطبع ليِّن المعشر، فكان كثيرًا ما

ينسى أركون أنه ولي عهد البلاد وإمبراطورها المنتظر؛ فيُعامله كصديق بسخريته وتهكمه، ويضطر حينها لتلقى الضربات من هادريان ليُفيق من تناسيه، وبدت علاقتهم القوية تلك ظاهرة للعيان.

بعد عودة أركون وجيشه من قتال (جيش العدل)، عاد كذلك بعد بضعة أيام هادريان وإيتوس إلى البلاد الخضراء عقب إحدى المعارك ببعض الأسرى، كان من بينهم فتاة في أوائل العشرين من عمرها، أخبرتهما حين انتصار جيشهم على جيش كاليجولا بوحدتها وانقطاعها، فلا قريب لها سوى أخيها الذي قُتل في المعركة، فأخذاها معهما لينظر ألكساندروس في أمرها.

وفي المخيم المجاور للمعسكر «والذي اتّخذه ألكساندروس مسكنًا له بين جنوده بعد أن نُصبت فيه خيمة خاصة له ولمستشاره سولون، فصار لا يعود إلى منزله إلا قليلًا، وكذا إيتوس وأركون لكلٍّ منهما خيمة له ولزوجه، أما البقية فيتشارك كل بضعة منهم خيمة واحدة تؤويهم» أقام ألكساندروس احتفالًا بسيطًا فرحًا بانتصاريْ أركون، وكذا بعودة إيتوس وهادريان بالغنائم والأسرى.

وفي مجلس القائد الأعلى في الهواء الطلق، كان يجلس إلى جانبه إيتوس، وهادريان، وأركون، وكاسكا الذي قد جاء بآخر ما معه من مستجدات في العاصمة، وفي الجهة المقابلة تجلس استيلا وآلي، أرسل ألكساندروس للفتاة بعد أن سمع قصتها وتعاطف معها كعادته مع البؤساء، كان لها نصيب وافر من العطف في قلبي الفتاتين أيضًا، وما هي إلا دقائق حتى أقبلت.

كانت تتميز بالطول، وبشعر مُجعدٍ أضفى عليها سمةً غجرية فاتنة، توازن جماله مع اخضرارِ عينيها، وكأنهما خُلقتا من أغصان خضراء قبل أن تُوضعا على وجهها الصبوح، أو ربما هكذا رأتها استيلا وآلي!

أقبلت إليهم منتصبة الظهر، طويلة العنق، تنظر إلى الجميع بثقة لا يشوبها توتر أو خوف، في هيئتها شموخ جذاب، أو ربما هكذا أيضًا رأتها الفتاتان.. ومن حيث لا تشعران، قلَّ عطفهما عليها!

بادرها ألكساندروس:

ما اسمك يا ابنتي؟

الفتاة بنبرة ناعمة:

اسمي إلينا؛ وتعني أجمل نساء العالم.

نظر ألكساندروس إليها متعجبًا؛ حيث لم يسألها عن معنى اسمها، وكذا فعل من حوله، أما الفتاتان فقد دهشتا، ورأتا في جوابها جرأةً تخفي ما وراءها! ومن حيث تُدركان هذه المرة انمحى عطفهما عليها، بل رغبتا بشدة في إبعادها حالًا من المجلس، بيدَ أنهما التزمتا الصمت، وتصنعتا عدم الاكتراث بصعوبة بالغة!

تنحنح ألكساندروس، وحاول إعادة الحديث إلى دائرته:

لا بأس عليك يا ابنتي، سنجد لك حلًّا، وبيتًا خاصًّا يؤويك، ولتَعُدِّي نفسك بين أهلك.

تبسَّمت الفتاة، وأحنت رأسها قليلًا:

شاكرة للطفك يا مولاي - ثم نظرت إلى إيتوس - وشكرًا لك مولاي إيتوس على إنقاذك لي وقد كنتَ تستطيع قتلي!

إيتوس:

كلا.. نحن لا نقتل الفتيات، ولا نقتل الضعفاء، بل واجبنا حمايتكم والإنعام عليكم بما نستطيع

قالها بصوته الحنون وعلى ثغره ابتسامته الجميلة، كانت استيلا سترى ذلك من رِقَّة قلبه التي تعرفها فيه، والتي أوصلته وأوصلت البلاد معه إلى هذه الحال لولا أن كان ذلك مع هذه الفتاة! فقد رأته إيذانًا لتقربٍ منه إليها، وخاصة لما رأت ردة فعل الفتاة الثابت؛ فلم يعترِها ما يعتري الفتيات من خجل أو حرج، وإنما بقيت على هيئتها الشامخة ترمقه بدلال، ثم افترَّت شفتاها عن بسمة رقيقة وهي تومئ برأسها، وبنبرة أرق أجابت:

وسأبقى في حاجة عطفك دائمًا، مولاي إيتوس.

غمر الخجل وجهه، وانمحت ابتسامته فجأة، ثم عاد يتصنعها كأنَّه لم يلحظ عذوبة حديثها!

لكن استيلا أدركت ما شعر به إيتوس، وساءها أن يُتغزل في حبيبها أمامها وبكل جرأة! بل وأشعل ذلك في قلبها نارًا تتأجج، فعزمت على إيقاف الفتاة فورًا، وبنبرة أتقنت عفويتها وبراءتها قالت:

صحيح.. إيتوس والجميع، والقائد ألكساندروس من قبل؛ يُغدقون على أهل ثيفا كافَّة أبلغ العطف وأسماه - ثم في محاولة لإبعادها أكثر عن طريقها نظرت إلى هادريان - ما رأيك سيد هادريان بالزواج من هذه الفتاة؟ إني أراها مناسبة لك!

لم تخف الدهشة على أحدٍ فضلًا عن هادريان الذي يعرف الجميع عزوفه عن الزواج، وكذلك آلي كان لها نصيبٌ وافر من تلك الدهشة، ولكنها دهشة من نوع آخر؛ حيث قربت شفتيها من أذن استيلا، وهمست:

لا أراكِ إلا قربتها أكثر! أنسيتِ أن هادريان يعيش معنا في المكان نفسه؟! إذن ستكون معنا في كل حين، ولا أرى ذلك في مصلحتك، بل عليك إرسالها إلى أقصى بقعة في الأرض.

التفتت استيلا لآلي، فرأتها تشتعل هي الأخرى غضبًا، وكأنها تؤكد لها ظنها في إلينا، فارتاحت لما أدلت به.

ولكن إلينا كانت أذكى من ألا تُدرك كيد النساء الجاري أمامها، فأجابت بشموخٍ واعتزاز:

لستُ بعد أمةً لأحد؛ لأُزوج بمن لا أريد! أنا فتاة حُرَّة، ولستُ أرى في مستقبلي غير أزهار الياسمين.

لا تدرِي استيلا أقالتها الفتاة بعفويةٍ وبوصفٍ بريء لأحلامها، أم أنها تعرف أن الياسمين هي زهرة إيتوس المحبة فخصته بمستقبلها؟! جُنَّ جُنونها، وكادت أن تفقد تماسكها بالفعل وأن تظهر بمظهر آخر، لولا أنها كزَّت على أسنانها لحظة تُغالب غيظها الجامح، ثم تصنعت بسمة هادئة، وقالت:

هو ذاك عزيزتي ما قصدتُ، فلِما أعرفه عن هادريان من صفات نبلٍ وكرم تمنيته لك، علَّ أحزانك تُعوض بالفرح.

صمتت الفتاة برهة، ثم أحنت رأسها قليلًا:

أشكر عطفك مولاتي.

جاء حينها أحد الخدم يُخبر ألكساندروس أن المنزل المجاور لمنزل ألكساندروس والذي تسكنه عجوز مع ابنتها قد رحبوا بسكن إلينا معهم حتى ترى أمرها، إما البقاء في البلاد الخضراء، وإمَّا الرحيل إلى إحدى المناطق الخاضعة لألكساندروس في ثيفا، فأوعزَ ألكساندروس للفتاة أن تذهب، إلا أنها حدثته عن خبرتها العسكرية الواسعة؛ نظرًا لعملها بجانب أخيها في قيادة جيش كاليجولا، والذي غُلب على يد إيتوس وهادريان، وأنها على استعداد لإفادة ألكساندروس بما

يخدمه ويحرز له الانتصارات تكفيرًا منها لما سبق!! فاستطاب رأيها، وعدل عن إرسالها إلى العجوز، واستبدل ذلك بخيمة تنصب لها خِصِّيصَى مع توظيف بعض الخادمات لها؛ لتحلَّ معهم في المكان نفسه.

وما إن أمر بذلك حتى استنار وجهها بالبشر، فأحنت رأسها، واستدارت عائدة من حيث أتت.

كانت هناك عينان زرقاوان فاتنتان، تتبعها بحدة في ذهابها، تكاد تأكل الفتاة وهي تمشي بشموخ وثقة، وكأنها ملكة لا أسيرة تطلب المساعدة!!

لم يكن يخفى على أركون غيرتها منذ البداية، بيدَ أنه آثر الصمت ليشهد النهاية، أو ربما كان مستمتعًا بما يجري متابعًا له بشقاوة.

استيلا بصوتٍ مسموع للجميع، وهي ما تزال تنظر إلى الفتاة بحنق وازدراء:

يا لطولها الفارع! كأنَّها شابٌّ لا فتاة، لولا شعرها الطويل لخلتها شابًّا حقًّا!

رمقها الجميع بدهشة من لفظتها القاسية، عدا أركون وآلي التي زادت:

أوه مولاتي العزيزة، كثيرٌ من الرجال من يُرسل شعره فيطول أكثر من شعر الفتيات!

ثم أكملت مُمعنة النيل منها، أو ربما مساندة استيلا في تشويه صورتها:

أما أنا فما شككت أنها شابٌّ حتى تكلمت، بل ظننتُ أول الأمر أنه يُنعم صوته عمدًا لسوء نبرتها، لكني أيقنت أنها فتاة حين أبرزت معنى اسمها بغرور، فليست من عادة الرجال تلك السفاسف!

انبلجت أسارير استيلا لهذه الإضافة المميزة، فأرخت ظهرها على الكرسي براحة وهي تتبسم:

صدقتِ..

إيتوس بتعجب بريء:

غريب أمركما! كيف ظننتما ذلك؟! فإن جسدها يـ...،

شعر بحرجِ إدلائه، فسارع بقطع كلمته وهو يتصنع التبسم، وقد علا وجنتاه بعض الاحمرار..

فبرقت حينئذٍ عينا أركون بمكرٍ وهو يقول:

صحيح.. رأيتكَ تتأملها بنظراتٍ غريبة منذ أتت إلى هنا حتى غادرتنا!

ثم تبسَّم وراح يضرب بسبابته ما بين أنفه وشفته، كأنه في حيرة:

هل هكذا هنَّ الفتيات؟ يسلبن قلوب الرجال دومًا؟!

وسَّعت استيلا عينيها كمن صُدم، ثم أطلقتها نحو إيتوس وهي تضيقهما بألم وحاجباها من فوقهما يتراقصان، كان إيتوس بدوره يُرسل عينيه إليها مرة، وإلى أركون مرة أخرى بتفاجؤ، ثم نهرهُ في محاولة للدفاع عن نفسه:

أنا كنتُ أتأملها؟! أنت تفتري عليَّ!

أركون بصوت بارد وهو يحكُّ أذنه:

وما مصلحتي في هذا الافتراء! صدقني يا صديقي لقد أشفقتُ عليها حين أربكَتها نظرتك، على كلٍّ فقد أحضرتَها معكَ وقد أدركتَ تعلقها بك! فما حاجتك لها يا مولاي؟

لم يخفَ التعجب على ملامح إيتوس، غير أنه زمَّ شفتيه حين أدرك مكرًا دسيسًا منه، ولم يجد ردًّا!

أما استيلا، فقد كانت كلمات أركون الآنفات كفيلة بأن يهوي معها قلبها، فرفعت يدين مضمومتين إلى صدرها كأنها تتلقفه، لكنه هوى بالفعل حتى ارتطم

بالأرض لينتشر فتاتًا، فأنزلت يديها وألقت على إيتوس نظرة باكية قبل أن تستدير نحو خيمتها الملكية وهي تتظاهر بثبات مشيتها ومن خلفها آلى، حتى اختفتا داخل الخيمة.

لم تفت أركون فرصة النظر إلى إيتوس؛ ليقرأ ما يعتريه من ورطة عصيبة وهو متبسم لنصره، فطالعه إيتوس بإحباط، ثم عاتبه بغيظ شديد:

قل لي ما الذي استفدته من مسرحيتك الخرقاء هذه؟ هل نسيتَ أن استيلا في شهرها الثاني من حملها ويجب مراعاة مشاعرها؟!

أسند أركون يديه خلف رأسه وأرخى ظهره على الكرسي، وأجاب بلا مبالاة:

أردتُ مداعبتك لا أقل ولا أكثر، لمَ أنتَ حساس هكذا أيها الجميل؟!

لم يُكملها حتى ضرب هادريان كتفه بقوة، فارتدَّ أركون إلى الخلف ساقطًا مع كرسيه، ثم نهض يلفحه الغضب من هادريان، وصرخ في وجهه:

لمَ أسقطتني أيها المعتوه؟

وقف هادريان بتحدٍّ فصار في مواجهته، وأجاب:

لتعرف كيف تخاطب أميرك بأدب، ثم لتنتبه لتصرفاتك الغبية معه!

أركون بنفادِ صبر:

هلَّا تركتنا وشأننا ولو مرة واحدة يا هادريان! فقد بتُّ لا أطيقك حقًّا..

ثم حوَّط رأسه بيديه كأنه يُعاني ألـمًا بسبب سقوطه، طالعه هادريان بازدراء وبغير اكتراث لكل ذلك.

اقترب إيتوس حينها من هادريان وصاح به كأن قلبه الذي شُغل باستيلا لم يشهد ما صار للتَّوِ بين صديقيه:

اسمع هادريان، أنت السبب في كل ما حدث!

طالعه هادريان بدهشة واستنكار، فأكمل إيتوس:

أجل، فلو أنك قبلتَ عرض استيلا بدايةً ما حدث كل هذا، لقد صمتَّ رافضًا فكرة الزواج بالفتاة، أنا أعرفك جيدًا فلا تنكر، بل حتى الفتاة المسكينة أدركت ذلك فقالت ما قالت؛ لتُخبئ موقفها الحرج.

تملَّك هادريان غضب شديد أوقعه فيما يعاقب عليه أركون دومًا، فعلا صوته على أميره صارخًا:

وما ذنبي لأُلقي بنفسي في مغبةِ الزواج الذي لم أقتنع به يومًا لأُداري عنك موقفك الحرج؟! - ثم أكمل ساخرًا - إن كان لك من عتاب فلتوجِّههُ إلى قلبك أيها المشفق الحنون!

رفع إيتوس حاجبيه:

أوَتنكرُ الآن أنكَ أيدتني على إحضارها معنا بالشفقة نفسها التي تُعيرني بها؟!

كتَّفَ هادريان ذراعيه وأشاح بوجهه، وبصوت تصنع هدوءه أجاب:

لم أشأ اعتراضك..

إيتوس بحنق:

أيها الوقح! ترميها عليَّ؟

طالعه هادريان باستياء شديد:

لم أقل ذلك صراحة، لكنكَ فعلتَ معي!

لم يكد يُكملها هادريان حتى سمعا صوت تصفيقٍ حار، التفتا فإذا به أركون يقترب منهما وعلى وجهه أمارات الانتشاء بالمشهد، وكأن الألم الذي في رأسه قد تلاشى منه فجأة، ثم صاح بابتهاج وهو ما يزال مصفقًا:

يا للروعة! يا للغرابة الحلوة! هادريان وإيتوس يعتركان بحدة..
ثم حوَّط رقبة كلٍّ منهما بذراع وجذبهما إلى وجهه السعيد:

صدقاني هكذا سنكون سعداء أكثر، فلا داعي لغضبك الأخرق يا هادريان كلما مازحتُ إيتوس؛ فإن للصداقة نكهة لا تُذاق إلا عند الشجار!

دفع هادريان ذراع أركون بقوة مُتضجرًا، وفعل إيتوس ذلك بذراعه الأخرى وهو يجيب باشمئزاز:

حقًّا أنت لا تُطاق.

وبغير مبالاة أطلق ضحكة عالية كادت أن تبلغ صدى الفضاء حوله، لولا أنه شعر معهما فجأة بيدين غليظتين تُمسك رؤوسهم الثلاثة؛ لترطمها ببعضهم البعض بكل قوتيها، فذابت ضحكة أركون المشاكسة، وحلَّ محلها صراخٌ متألمٌ من أفواه ثلاثتهم إثر ذلك الارتطام العنيف!

وما إن رفعوا وجوههم وتطلعوا خلفهم حتى رأوا أسخيلوس ينفض يديه، فصاح به هادريان وهو يتلمَّسُ جبهته بألم:

ما هذا المزاح السخيف يا أسخيلوس! أتريد تحطيم رؤوسنا بيديك الضخمتين؟!

أركون ولعينيه اتساع:

أما أردتَ إثبات شفائك التامِّ من جراحك إلا بهذا المزاح الثقيل؟!

لم يرد أسخيلوس بأكثر من ابتسامة لم يستطع مواراتها حين رأى الاحمرار الظاهر على جباههم إثر الارتطام القوي، ولا سيما على إيتوس الذي شُغل بألمه عن عتاب أسخيلوس، ثم أتبعها بخمس كلمات:

عفوًا.. لكنه أمر القائد الأعلى.

وتنحَّى جانبًا؛ ليُفسح لهم المجال لرؤية ألكساندروس الواقف خلفه تمامًا، وما إن وقعت أعينهم عليه حتى أدركوا غضبه الشديد، فشعروا بالحرج، ولم تنبس شفاههم بحرف، بل أطرقوا رؤوسهم تحاشيًا لنظراته المُزدرية لهم..

اقترب منهم وهو يقول:

لزمتُ الصمت منذ البداية لأرى ما النهاية، فليست من عادتي التدخل في أمر حتى أستبين، وقد استبان لي الآن، فما هو إلا مزاح فظ انتهى بإيذاء الأميرة، ثم بغضبكم على بعض!

ثم زفر بغضبٍ قبل أن يستدير عنهم، وبنبرة ساخطة أكمل:

أتمنى أن تكونَ أنبلَ مُزاحًا في المرات القادمة.. يا أركون..

ومضى مع سولون - الذي كان يُغالب ضحكته - نحو خيمتِهما.

داهمت إيتوس وهادريان ابتسامة مفاجئة وهما ينظران إلى بعضهما كمن اقتنصَ فرصة ثمينة لا تُعوض، ثم رمقا أركون الذي لا يزال ينظر إلى قائده مصدومًا حرجًا بنظرة تشفٍّ خاطفة، ثم قال إيتوس مخاطبًا صاحبه:

لقد سمعتُ أن مكر الماكر يحيق به في النهاية، ألم تسمع مثلها يا هادريان؟

هادريان:

بلى، وكثيرٌ ما هو!

إيتوس بنبرةٍ تصنَّع براءتها:

ولكن! هل تعتقدُ صحتها؟

هادريان وهو يُشير بيده إلى أركون الذي كان يطالعهما بغير استيعاب:

طبعًا، وإلا لما شهدنا سقطة صاحبنا الفظيعة.

ثم انفجرا ضاحكين، ففهمَ أركون أنهما يسخران منه، إلا أنه لم يجد رغبة في الردِّ عليهما؛ إذ كان مُحبطًا من موقفه الآنف مع قائده الأعلى، فرماهما بنظرة مستاءة، ثم عاد نحو خيمته يطوقه صمتٌ حرج.

إيتوس بنبرة تحوي ندمًا وهو ينظر إليه:

كأننا أزعجناه أكثر مما ينبغي!

هادريان:

أبدًا.. إنه يستحق أكثر من ذلك، شابٌّ مشاكسٌ جدًّا - ثم استدرك وهو يرمي إيتوس بنظرة يأس - الشفقة في غير محلها قد تودي بك إلى المهالك يومًا! فمتى ستنتهي عنها يا سيد إيتوس؟!

شعر إيتوس بكلمات هادريان كطعنة ثقبت صدره! أو ربما كومضة جاءته من المستقبل محذرة له!! غير أنَّه كتم ذلك في نفسه وأظهر غضبه منها، واستدار عن هادريان نحو خيمته دون أن يرد، بقيَ هادريان مكانه ينظر إليه حتى ابتعد عنه كثيرًا، ثم مضى نحو الشجرة التي يجلس عندها دائمًا، واستقر مُضطجِعًا تحتها، ولم تمضِ دقائق حتى غفت عيناه.

أما إيتوس فدخل خيمته، وما إن فعل حتى نهضت آلي التي كانت جالسة تواسي استيلا الباكية في حجر أمها واستأذنتهم بالمغادرة، وحين وقع نظر والدة استيلا على إيتوس أشرق وجهها ورحبت:

أهلًا بك مولاي..

ثم همست لابنتها كأنها تأمرها بحسن استقباله، غير أن الفتاة لم ترفع رأسها ولم تأتمر، سوى أنها حاولت كتم بكائها حتى استحال لجسد يهتز بصمت، شعر إيتوس بعطفٍ شديد تجاهها فمضى نحوها، حتى إذا ما جلس بجانبها وضع يده على رأس فتاته يمسحه بلطف، ثم قرب وجهه منها، وهمس بحنان فيه حزن:

كفى يا عزيزتي، تعلمين أن بكاءكِ يؤلمني أكثر من أي شيء آخر.. وإنه ليؤلمني الآن أضعافًا أني كنتُ سببه، إنني الآن أشعر بكراهيةٍ تجاه نفسي أني كنت السبب في إيذاء قلبك الصغير - ثم استدرك - غير أني لم أفعل شيئًا مما قاله أركون، كان مزاحًا منه وحسب، مزاحًا ثقيلًا لا يُطاق!

ثمّ حاول رفع وجهها إليه، لكنها تمنَّعت، فاتّضح على ملامح والدتها السخط، غير أنها صمتت وكأنها لم تجد ما تقول وهي تسمع الشهقات المتصاعدة من صدر ابنتها مخلفةً وجعًا في قلب أمها، وقد كان لقلب إيتوس الرقيق النصيب الأوفر من ذلك، فهتف بأسف:

استيلا يكفي أرجوك، أرجوك!

ما إن قالها حتى شعرت استيلا بصدق حزنه، فحنَّ له قلبها، وأدارت نحوه نصف وجهها تطالعه.. فرأى الدمع يتحدر من عينها الواسعة، وبدت له مع زرقتها بحيرةً تزخر بماء عذبٍ زلال، تحيط بها أهدابٌ وافرةٌ طويلةٌ تنتهي بلآلئ دموعها، لا يعلمُ لمَ شعر حينها بتخبطٍ بين الحزن والإعجاب الشديد!

طالعها بصمت، ولقلبه خفقان يعلو، ثم انتبه لوجنتها التي أظهرتها له مع نصف وجهها، كان لها نصيب من انسياب الدموع عليها، فاستحالت الوجنة الحمراء لما يشبه صفيحة من الياقوت اللامع، أذهله حُسن المنظر، تبسَّم من غير شعور، ثم مدَّ

يده نحوها، لكنه توقف آخر لحظة وكأنه في تردد، لم تفهم منه ذلك، ولكنه أفصح عمَّا يدور فى نفسه فقال:

أردتُ أن أمسح دموعك فإنه يعزُّ عليَّ بكاؤكِ، إلا أنني خفتُ أن أفقد الجمال الذي أضفته عليك فتوقفتُ - ثم توسعت ابتسامته وهو يُكمل بصوت يفضح هيام قلبه - حقًّا لم أرَ في حياتي مخلوقًا يزيده البكاء جمالًا سواك، هل هم هكذا مخلوقات السماء؟ أم أنكِ الوحيدة من بينهم.. يا نجمتي المتألقة؟!

أصابت كلماته شغاف قلبها بنجاح، فانمحى غضبها عليه في تلك اللحظة، بل نسيت أنها كانت مُغضبة، ولم تعد تشعر إلا بنبضات قلبها ترفُّ بسرعة لهذا الحبيب الباسم أمامها؛ فتبسَّمت، مدَّ يده ليدها وأوقفها معه، ثم أمسك بالأخرى فقابل وجهها وجهه، وهمس:

أنا آسف يا استيلا.. على أني لم أرتكب شيئًا، ولم يكن ذاك الحديث إلا من صنع خيال ذلك المشاكس؛ ولكنني آسف..

تذكرت وقتها أنها كانت غاضبة منه، فآثرت الدلال عليه، أشاحت بوجهها وحاولت سحب يديها برقة إلا أنه شدَّ عليها حين أدرك ذلك، في الحقيقة لم تنزعج استيلا من إحكامه عليها، بل طربت، وتمنَّت لو أن إلينا تُقبل إليهما الآن وترى كيف يُراضيها، ولم يكد هذا الخاطر يراودها حتى شعرت بزهو الانتصار!

إيتوس:

قولي يا حلوتي.. ما الذي تريدين مني فعله لأُرضيك؟

رفعت رأسها للأعلى تطالعه هنيهة ثم أشاحت بوجهها وهي تجيب:

لا شيء..

إيتوس:

كيف لا شيء؟! بل يجب أن أُرضيك؛ لأرضى عن نفسي.. أُطلبي ما تشائين.

لم تنظر إليه هذه المرة، غير أن ثغرها تلألأ باسمًا بخجل وهي تقول:

صدقني لا شيء.

رفع حاجبًا دون الآخر متعجبًا، ثم خاطبها بإصرار:

استيلا.. ستطلبين الآن ما تُحبين، أو لأغضبنَّ أنا عليك!

باغتتها ضحكةٌ حاولت إخفاءها لكنها لم تستطع، فيداها في قبضة يديه، ولم تجد إلا أن نظرت إليه، ثم أجابت:

متأكد؟

إيتوس:

طبعًا سأفعل، وأمك شاهدة عليَّ إن لم أفِ بوعدي، أُطلبي ما يحلو لكِ ولو رغبتِ أن أخوض البحار.

كان يقصد بآخر عبارته ما كان ينسبه لنفسه قبل أن تعرف حقيقته، فعادت تضحك من جديد، وذاب هو في وضاءة وجهها المسرور.

استيلا:

كلا لن أطلب منك خوض البحار، ولا تسلق الجبال، ما أوده أبسط من ذلك بكثير - ثم خرجت نبرتها حادة من غير أن تشعر - ما أريده فقط أن تُبعد تلك الطويلة البغيضة إلى أقصى بقعة اكتشفها الإنسان على هذه الأرض.

ومن غير أن يُدرك انمحت ابتسامته، واختفى انتشاء وجهه وكأنه فُوجئ، أو كأنه صُدم!

مرَّت لحظة قبل أن يتأكد:

تقصدين إلينا؟!

استيلا وقد شعرت بما اعتراه:

ومن تظن إذن؟

لم تُعجب والدتها طريقة ابنتها في الكلام، فتغير وجهها غضبًا وصرخت:

استيلا!!

ثم لم تجد بُدًّا من أن تبتعد عنهما حين شعرت أن يدها توشك على ضربِ ابنتها، ومضت عنهما بضع خطوات تكتم غضبها.

إيتوس بشيء من التردد:

لكن.. لكن يا استيلا.. هي الآن مقطوعة من كل شيء، ليس من البشر فحسب، بل حتى من المال، والمأوى، وكل شيء يحتاجه أبسط إنسان ليعيش، فلتنتظري قليلًا إلى أن ينظر عمِّي في شأنها، وستذهبُ بعدها حيث تشائين.

لم يرضها رأيه، بل رأته شفقة وراءها ما وراءها! فخرجت نبرتها مرتفعة:

لا أظنُّ أن الأمر يحتاج لكل هذا التعقيد، وفِّروا لها ما تحتاج فلستم بعاجزين، ثم رحِّلوها إلى أي مكان لا أراها فيه حتى أموت، هل تفهم يا إيتوس، رحلوها إلى أبعد مكان ولو في عُمق جحيم.

نهرتها والدتها بشدة وأمرتها أن تصمت، استيلا وقد بدأت تفقد تماسكها وتضعف:

لكن ألم تسمعيه؟ إنه يريد منها البقاء!!

إيتوس متداركًا:

كلا، ما قصدتُ ذلك، ولكن ليس من المروءة أن نتخلى عنها بعد أن منحناها الوعد بالأمان!

استيلا وهي تسحب يديها منه وفي صوتها تهدُّج:

ومن قال تخَلوا عنها؟ قلتُ أعطوها ما تحتاج وأسرعوا في إبعادها.

إيتوس بشيء من التعاطف رغم عدم فهمه لسبب غضبها من إلينا:

حسنًا لك ذلك يا استيلا، ويكفي ما غضبتِ اليوم، يجب أن تهدئي الآن وحسب، وأعدكِ أن أفعل ما طلبتِ أول ما تسنح الفرصة بذلك.

استيلا بحنق وإصرار:

ومتى ذلك؟

إيتوس:

أقرب فرصة، سيكون ذلك في أقرب فرصة.

رغم محاولتها الكتمان؛ إلا أن شهقتين محزونتين ارتفعت من صدرها وهي تكتِّف ذراعيها، وأخذت تنظر إليه بغيظٍ وضعفٍ متوازنين، تعجَّب من ذلك كثيرًا ولم يفهم له سببًا، وبعفوية سألها:

لكن هل لي أن أعرف، لمَ تُكنين لها كل هذا العداء؟! أظن أنها لطيفة جدًّا، وأظهرت لكِ الاحترام!

فاتسعت عينا استيلا لأقصى حد وهي تطالعه كأنها تحاول الاستيعاب، ثم ضاقتا وهي تلمعان، ولشفتيها تقوسٌ وارتجاف.

إيتوس بارتباك:

ما... ما بكِ.. استيلا؟!

لم تجبه، بل بقيت تفتح شفتيها ثم تطبقهما دون صوت، وكأن كمًّا هائلًا من المشاعر القاسية داهم قلبها في لحظة واحدة فأخرسته، وبقي إيتوس يراقبها بأسى كأن أذنيه تسمعان بوضوح فوضى قلبها، ولما أدركت استيلا ذلك سارعت وغطت وجهها في كبرياء لئلا يظهر له ضعفها، غير أن شهقاتها غلبتها فصارت مسموعة، ولم تكد تلامس أذن الفتى حتى أحاط بكتفيها وهتف بإشفاق:

عزيزتي! أوَقلتُ ما أزعجك؟! إن كان كذلك فأنا آسٍ...

وقبل أن يكملها قاطعته وهي تغمض عينيها كالمنهك:

كفى، كفى أرجوك، إني متعبة بما يكفي لأسمع المزيد! - ثم وهي تفتح عينيها وتنزل يديها - اذهب إليها الآن واتركني، سأجعلكما تنعمان ببعضكما، ولن أُعكِّر عليكما، فقط اخرج من هنا الآن، وإن استطعت فلا تُريني وجهك أبدًا، أبدًا.

ثم استدارت عنه إلى من يحتمل منها بوح المشاعر، فارتمت في حضن أمها ولها نشيج ونحيب.

نظر إليها بذهول، لكنه انتبه لعيني أمها، كانتا تائهتين بين قلب ابنتها المحزون، وقلب إيتوس الذي لم يُدرك بعد أنها الغيرة! ثم قرأ فيهما توسلًا أن يُذعن للأمر رفقًا بالفتاة فامتثل، وما هي إلا ثوانٍ حتى صار خارج الخيمة لا يعلمُ إلى أين يمشي، فلقيَ في طريقه أركون يبدو عليه التيهُ أيضًا!

وبعد أن أخبره إيتوس بأمره، انفجر ضاحكًا من أعماقه وهو يُردد:

إذن طُرد الإمبراطور الموعود من خيمته!

حوَّط إيتوس رقبته وشدَّ عليها بعنفٍ وهو يتوعده:

إن لم تصمت فصلتُ رأسك عن جسدك، لستُ عاجزًا عن توبيخها لكني لم أشأ ذلكَ فيكفي ما ألمَّ بها بسببك!

أركون بصعوبة تنفس:

تكاد تخنقني، أرسل يدك عني أرجوك.

أرخى إيتوس عنه ذراعه، وكتَّفَهما مع الأخرى مطلقًا من صدره تنهيدة عميقة متضجرة..

أركون بمشاكسة:

لـمَ أنت حساس هكذا؟! أردتُ المزاح لا أكثر.. يبدو أن للجمال كثيرًا من العيوب!

رمقه إيتوس بغضب، فاستدرك أركون وهو يرفع كفيه لوجه صاحبه ويتظاهر بالمرح:

أوه كفى لا تغضب! قلتُ لك إني أمازحك،

ثم تلفَّت حوله سريعًا، ولما لم يرَ أحدًا اقترب من إيتوس وأسرَّ له:

حتى أنا قد نالني ما نالك.

إيتوس مندهشًا:

أُخرجتَ من خيمتك؟!

أركون:

أجل.. وإلا لما لقيتني في طريقك، بل كنتُ الآن غافيًا بسعادة لو أنها سامحتني.

إيتوس:

تسامحك على ماذا؟!

أركون:

على تسببي في إيذاء استيلا.

تعجب إيتوس، فسأل:

ولكن ما شأنها وشأن استيلا لتخاصمك؟!

أركون بنبرة باردة وهو يشبك كفيه خلف رأسه:

أووه مولاي المسكين، ألا تعلم أن بين النساء رابطةً غريبةً عجيبةً من التعاطف، ولو كان ذلك ضد أقرب الناس لهن؟! - ثم استدرك - ليتنا كنا كذلك؛ ليسلم رأسي من ضربات هادريان المبرحة كلما حاولتُ ممازحتك، ليت ذلك المتعصب لأميره يستفيد من الفتيات حقًّا.

ضحك إيتوس بشدة من طريقة أركون الممتعة في الحديث، ثم استدرك:

هل تعلم أنني سعيدٌ لِما فعلَتهُ آلي معك، ليتني ألقاها الآن فأشكرها من صميم قلبي على ما أسدته لنا من معروفٍ تجاهك.

أركون يتصنع عدم الاكتراث:

إنها في الخيمة الآن، اذهب واشكرها إن أردت.

هزَّ إيتوس رأسه:

كلا، إني أخشى أن أنال من ذلك التعاطف العجيب ما نالك.

ضحك أركون، وسرعان ما وقعت عيناه على هادريان الغافي تحت الشجرة بارتياحٍ تام، فأخذ يغالب ضحكته وهو يُشير إليه:

انظر إلى ذلك الأعزب السعيد، أظنه سيزداد قناعة بعدم الزواج إن علم بقصتنا.

ومضيا نحوه، شعر هادريان بيدين تهزانه، ففتح عينيه بتثاقل؛ وإذا بصاحبيه جالسين عنده، ووجهاهما فوق وجهه يتبسمان بغباء، بدا التفاجؤ على عينيه وهو ينهض جالسًا، ثم نظر يمينًا وشمالًا نحوهما وهو يسأل بتعجب:

ما الأمر؟ لمَ لمْ تناما؟ ألم يُنهِكُّما ذلك الشجار؟!

أركون:

بلى.. وددنا النوم في خيامنا المريحة بدلًا من هذا المكان المُشمس، ولكن لم يُسمح لنا.

اجتاحت إيتوس ضحكة من طريقة حديثه الصريحة وغير المبالية، أما هادريان فلم يبدُ أنه فهم شيئًا، فهزَّ رأسه مُستفهمًا وهو يُمرره بين الاثنين.

إيتوس ولا تزال آثار البسمة الغبية على وجهه:

ببساطة.. طُردنا منها لأنه غير مرغوب فينا.

ولم يكد يفهمه هادريان حتى علت ضحكته، ضحك طويلًا كأنه لم يضحك من قبل، ثم دفعه إيتوس قليلًا وهو يقول:

أظنك استرحتَ بما فيه الكفاية أيها الضاحك، اترك لي الآن مجالًا تحت الظل، فلستُ بمحتمل شعاع الشمس.

ولم يكد هادريان يُفسح لإيتوس بضعة أشبار يستظل فيها حتى جذبه أركون من ساعده وهو يقول:

ليس كافيًا بعد، أفسح أكثر فإني أحتاج ما يحتاجه أميرنا.

واضطر هادريان لأن يقف ويرجع إلى الخلف خطوتين وهو لا يزال يطالعهما، ثم قال:

هكذا؟

أركون وهو يجلس ملاصقًا لإيتوس:

أجل.. شكرًا يا صديق.

نظر إيتوس إلى أركون بضجر:

هلَّا ابتعدتَ قليلًا، فالجو خانقٌ بما يكفى لتحجب عنى الهواء!

أغمض أركون عينيه، وبثقة أجاب:

إن أردتَ ذلك فافعل، أما أنا فلن أتنازل عن ظلِّي قيدَ أنمُلة..

ورفع الغطاء الذي كان يُغطي به هادريان وجهه على وجهه، ثم كأنه استذكر؛ فأبعده ونظر إلى إيتوس:

ألا تريدُ أن تغطي به عينيك؟ إنه كبيرٌ ليكفينا معًا، وكفيلٌ بأن يُشعرك أن رأسك يستريح الآن في عمق خيمتك الملكية.

إيتوس مُستلطفًا فكرته:

ولمَ لا..

ثم رفعاه وغطيا به وجهيهما في آن واحد، ولم يجد هادريان بُدًّا من أن يستدير ويمضي عنهما وهو يغالب ضحكته.

الفصل السادس عشر
بين استيلا وإلينا

لاحظ ألكساندروس أنَّ إيتوس وأركون قائلان مع هادريان تحت الشجرة التي يقيلُ تحتها عادة، فصمت رغم ارتيابه في أمرهما، ولما انقضى النهار بأكمله، وأرخى الليل سدوله، وثلاثتهم ما يزالون مُتخذين من الشجرة مسكنًا لهم؛ أرسل من يستعلم له الخبر خفية، وما هي إلا لحظات حتى علم به، لم يدرِ حينها أيحزن على إيتوس وأركون، أم يضحك على حالهما؟! غير أنه عزم على ترك الأمور على ما هي عليه..

وحين هدأ المخيم، وجثا على أهله سلطان النوم، كان إيتوس وأركون أول من استسلم له، وكانت ليلة باردة جدًّا، فأدرك هادريان ما يعتريهما من البرودة حين ضمَّ كلٌّ منهما إليه جسده، ولا سيما أركون.. فشعر بشفقة تجاهه، غير أنه آثر اللحاف الغليظ الذي معه لإيتوس، ثم ما لبث أن خلع قميصه وغطَّى به أركون، واضطجع بجانبهما عاري الصدر باحثًا عن النوم.

في أثناء ذلك.. خرجت آلي من خيمتها متجهةً إلى خيمة سيدتها، استأذنتها للنوم عندها، فقد استوحشت خلوَّ خيمتها من أركون.

ببسمة عذبة استقبلتها استيلا، وأخذت كل واحدة مضجعها؛ استيلا ووالدتها وخادمتاها، بالإضافة إلى آلي، تمكن النوم منهنَّ جميعًا ما عدا استيلا؛ فقد بقيت تتقلب في فراشها زمنًا طويلًا قبل أن تنهض إلى باب الخيمة، فتحته وأطلقت

بصرها نحو الشجرة فرأتهم نيامًا، لم يخفَ عليها برودة الجو حين داعب نسيمه البارد وجهها، فرقَّ قلبها لإيتوس ولمن معه؛ فهي تعلم أن أحدًا منهما لن يدخل خيمةً وأميره نائم تحت الشجرة، وآلم قلبها أن تكون سبب ما يتعرضون له، فأنَّبتها نفسها، وحدثتها أن تذهب إليهم حالًا؛ لتأخذ بيدِ زوجها إلى الخيمة، وتنهي الأمر، لولا أن لاحت أمامها فجأة صورة إلينا وهي تخاطب إيتوس بنظراتها المُشبعةِ دلالًا:

(وسأبقى في حاجة عطفك دائمًا.. مولاي إيتوس)، فعادت النار تأكل قلبها، وتمتمت:

كلا، أقسمُ إني لن أُبدي له شيئًا من رِضى حتى تُنفى تلك الطويلة البغيضة إلى حيث لا يراها.

ثم عادت إلى الخيمة تذرعها بحيرة وأسى، وأخيرًا أيقظت إحدى خادمتيها، وأعطتها لحافًا ليستخدمه إيتوس.

وصلت الخادمة إلى المكان، وما إن سمع هادريان قرع نعليها حتى وثب مستطلعًا، لم يكد يراها حتى أشار إليها بالتوقف، ثم مضى إليها على أطراف أصابعه كي لا يوقظَ أميرهُ وهو يضمُّ صدره العاري بذراعيه وينتفض، وحين عرف ما جاءت به؛ أخذه منها شاكرًا، ثم استدار عنها عائدًا إلى مكانه، تأمَّل إيتوس المُغطى بلحافه الغليظ، ثم طالع اللحاف الملكي الذي في يده، فتبسم بمكر وهو يُخاطبه:

أظنُّك ما يُسمى بجزاءِ المُحسن!

ثم اضطجع، وغطى به نفسه، ولم تمضِ دقائق حتى حواه الدفء التام؛ فنام ملء عينيه.

أشرق الفجر، ولامست أشعة بكوره عيني أركون الذي كان مضطجعًا بجانب إيتوس، بينما فرغ مكان هادريان عن جانبه الآخر، نهض أركون وشعر بالبرودة، فضمَّ ذراعيه وانتفض، ثم انتبه إلى قميص هادريان، وأدرك أنَّه قد غطاه به في أثناء نومه، فشعر بامتنانٍ شديد له، وما إن التفت إلى إيتوس ورأى ما آثره به هادريان حتى تسخط عليه، فوكزَ إيتوس بضربتين يُوقظه بها، فاستيقظ، نهض وتمغط، ثم نظر إلى أركون بعينين ناعستين وهو يقول:

أهكذا توقظُ النائم؟!

زفر أركون بغيظ وهو يقول:

ذلك الظالم! غطاك بكامل لحافه وقد كان يستطيع توزيعه علينا لكِبَرِه، بينما تفضَّل عليَّ بقميصه هذا؟!

قالها وهو يرفع القميص تجاه عينيه، وأكمل:

ألا ما أسعدني حين بتُّ الليل أتعذبُ به! إن غطيتُ به يديَّ وصدري بردت قدماي، وإن وجَّهته نحو قدميَّ برد أعلى جسدي.. حقًّا ما ألطفه من صديق يؤثر الآخرين على نفسه!!

ثم رمى القميص فوق فخذيه، ووضع يده تحت خدِّه مُحبطًا مُغضبًا.

كان حديثه المتهكم كفيلًا بأن يُذهب بقية النوم عن إيتوس ويُشعره بكامل يقظته، فضحك وهو يقلِّب بصره بين اللحاف والقميص، ثم أخذ وصف أركون لليلته يتردد في ذهنه؛ فعاوده الضحك من جديد وبصوت أعلى..

لم يُوقفه إلا صوت هادريان عائدًا من عمله:

ما بالُ مولانا سعيد الخاطر هذا الصباح؟!

فأجابه إيتوس بما قاله أركون، وشعر هادريان بشيء من الحرج واراهُ بابتسامة عريضة وهو يقول:

أوه أركون! لا داعي لمثل هذا العتاب - ثم بنبرة عسكرية - هيا انهضا الآن فلدينا تدريبات كثيرة، لا سيما مع الجنود الجدد..

التقطَ قميصه الذي مع أركون ولبسه، وأخذ لحافه من فوق إيتوس وطبقه؛ ليضعه بجانب اللحاف الذي جاءت به الخادمة، فانتبه له إيتوس وسأل متعجبًا:

لمن هذا يا هادريان؟ لا تقل إنكَ نمت به؟!

هادريان:

بلى، هو كذلك.

وسَّع إيتوس عينيه، ثم نظر إلى أركون بسخط:

إنه ليس ظالمًا معك وحسب، بل لقد تعدى ظلمه إليَّ حين أعطاني هذا اللحاف المهترئ، وآثر لنفسه هذا الجميل الناعم، قالها وهو يتحسس بيده اللحاف الذي نام به هادريان.

ارتسمت ابتسامة مُحرَجة على شفتي هادريان وهو يمرر يده على شعره، ثم أجاب:

كلا، ليس كما ظننتَ سيدي..

ثم أخبره الخبر، وعاد يستحثهما للإسراع في التدريبات، فانطلق معه أركون وهو ينالُ منه ببضع كلمات لاذعات، وهادريان يردُّ عليه بغضب مرة، وبضحكة تباغته من أسلوبه المُمتع مرة أخرى، وإيتوس يراقبهما من مكانه باسم الثغر من مشاكستهما لبعضهما البعض؛ قبل أن يلحق بهما..

ولم يأتِ وقت الظهيرة، إلا وقد عزمت استيلا على إنهاء الخصام، فأمرت خادماتها بتجهيز ماء بارد للشرب، وزينت الخيمة بطاقات أزهار صنعتها بنفسها، فصارت خيمتها أشبه بحديقة صغيرة، ثم تزيَّنت وتعطرت، وعطرت أرجاء الخيمة برائحة الياسمين التي يُحبها إيتوس..

وحين عاد الثلاثة إلى شجرتهم، وأخذوا مكانهم، قالت لخادمتها ووجهها يرْقُب وجه الحبيب:

استدعيه الآن، لكن تذكري ألا تُفصحي له عن شيء، فقط أخبريه أنـ....

قطعت كلمتها وفغرت فمها حين رأت إلينا تُقبل إليهم من بعيد!!

بقيت لحظة على دهشتها غير مستوعبة ما تراه، ثم التفتت إلى خادمتها بحنق:

اسبقيها واختبئي خلف الشجرة، يجب أن أعلمَ اليوم حقيقة أمرها! أسرعي..

وفي غضون ثوان، كانت خادمتها الرشيقة قد امتثلت لأمرها بحذر لم تُثر به انتباه أحد من الثلاثة الذين انهمكوا على رسمةٍ يُعدونها لبعض مواقع القتال المقبلة، غير أنه كان من الممكن أن تنتبه لها إلينا لولا أنها كانت تحدق في وجهِ إيتوس الذي زاده شعاع الشمس الساقط عليه إشراقًا على إشراقه، ولوَّن بحرارته وجنتيه الصافيتين فتوردتا، كان مُتصدرًا المجلس بتعليماته، فزاد منظره الجميل هيبةً جعلتها تعقب تحديقها الغريب ببسمة غامضة متوازية مع حديثٍ خفيٍّ في نفسها، وكأنَّ أمرًا تنتظره اقترب أوانه! فلم تنتبه للأذن المختبئة..

وحين صارت بقربهم تنبهوا لوقع خطواتها على الحشائش، نظروا تجاه الصوت فرأوا إلينا مقبلة نحوهم؛ بقدِّها الطويل، وهيأتها الشامخة، في ملامحها قوة جذابة، غير أن ابتسامتها الأخيرة ألقت في نفس أركون ارتيابًا ونفورًا بالرغم من حسنها!

كانت تحمل إناءً فيه ثلاثة أكواب من الماء، وثلاثة أرغفة، ولما وقفت حذوهم بادرت:

سعدت مساء مولاي إيتوس.

إيتوس:

أهلًا.. إلينا!

ثم جلست تضع الإناء على الأرض بهدوء، نظرت إليه بعدها وقد رفعت ظهرها وضمت يديها فوق فخذيها، قالت وما تزال ابتسامتها تُجمِّل وجهها:

علمتُ بوجودكَ تحت الشجرة منذ البارحة، فأدركتُ أن تفكيرك في أمور البلاد والشعب قد أقَضَّ مضجعك وهجَّرك من خيمتك، إنَّك الولي الذي لم تنعم بلادٌ بمثله، والحاكم الموعود الذي لن يجد البشر من يُشبهه، ومن سيشبه قلبًا رقيقًا يرفضُ أن يستريح وفي شعبه نبض يتألم؟!

كانت إلينا تعلمُ سبب وجود إيتوس في المكان منذ البارحة، وكأنها وجدت فرصة لمداعبة روح جافاها الحبيب؛ فتميل حينئذٍ إليها وتحصل على ما تبتغي!

لامست كلماتها قلب إيتوس وأذهلته، فظهر عليه الخجل، ولم يَفُت إلينا ذلك ففرحت، ثم إنها أكملت:

ولـمَّا علمتُ بانتهاء تدريباتكم، أحضرتُ لك هذا يا مولاي- وهي تشير إلى الإناء - كوب من الماء البارد الزلال، ورغيفٌ من الخبز صنعته بيديَّ، إنني من بلد يُتقن صنع الخبز مع الأعشاب بشكل يفوق أي بلد آخر.

اتسعت ابتسامتها وهي تتصنع الخجل الرقيق وتعيد خصلة من شعرها خلف أذنها:

وأرجو أن يُعجِبَ مولاي المبجل ما صنعته له.

كان مندهشًا فلم يجد ما يرد به، فتابعت تُجمِّل موقفها أكثر:

ولِأنَّ الصديق المخلص لا يهنأ بشيء لا يشاركه فيه أصدقاؤه، صنعتُ لهذين القائدين العظيمين ما صنعته لك.

ثم مدَّت لكلٍّ منهم كوبه، صمت إيتوس لوهلة، ثم قال:

لمَ تتعبين نفسك يا إلينا وأنتِ مشغولة بدورٍ قيادي عظيم؟! هلَّا طلبتِ ذلك من خادماتك!

طالعته إلينا بمكر أبطنته، ودلال أظهرته:

لو كانت هموم الشرق والغرب محمولةً على كاهلي، ما ادخرت جهدًا في إكرام من رمى الراحة من أجل شعبه بما أُتقنهُ، دون أن أجد في ذلك تعبًا أو مشقة.

كان أسلوبها العذب متوازيًا مع جمالها الشامخ، فذُهل القائدان، وتضرَّج وجه إيتوس بحُمرةِ الخجل وهو ينظر إلى عينيها الخضراوين، وسرعان ما أشاحه عنها، وأجاب يتصنع ثبات نبرته:

أكرر شكرك.. إلينا..

أشارت إلى صدرها:

على الرحب والسعة مولاي العزيز، إيتوس.

ثم نهضت واستدارت عائدة من حيث أتت

ولم تكد تفعل حتى اتجهت أنظار الثلاثة بتلهفٍ إلى ما جاءت به وكأنهم لم يذوقوا شيئًا منذ الصباح، والحقيقة أنهم قد سُقوا من الزلال وأكلوا خير طعام، لكنَّ وصفها الجميل لِما صنعته أحاله في أعينهم وأنفسهم إلى شيء نادر لا يحصل في

الدنيا إلا مرة واحدة، فانقضُّوا عليه يشعرون أن فيه لذة لم تُخالط أفواههم قبل الآن!

عادت الأذن المخبأة إلى سيدتها تُنبئها تفاصيل الخبر، جُنَّ جُنون استيلا، وتضاعف كرهها لإلينا أكثر من ذي قبل، راحت تقطع خيمتها ذهابًا وإيابًا وفي جوفها غليان يتصاعد لظاه محرقًا ذلك الجوف وهي تردد:

إن لم تُقطع الشوكة ازداد نموها حتمًا، ولأقطعنَّ اليوم كيدَ تلك الطويلة قبل أن ينمو أكثر!

ثم عادت تدور في خيمتها بعشوائية وفي رأسها ألف فكرة وفكرة تتصادم وتضطرم، ولمَّا لم يتفق لها شيء خرجت من خيمتها بعد أن فشلت خادماتها عن ثنيها، خرجت لا ترى شيئًا من الدنيا سوى من تحت الشجرة! ولا تسمع أيَّ صوت حولها حتى توسلات خادماتها أن تعود؛ ربما سمعتها نعيقًا للغربان حينها!

ولم يشعر إيتوس إلا وهي واقفة أمامه، بلباسها الزهري الرقيق الذي قد تزينت به، لم يتعدَّ طوله ركبتيها، كاشفًا من الأعلى عن عضديها، فخالط لونه الجميل بياض بشرتها الصافية، ولم يرها حينذاك إلا صورةً فاتنة لم يسبق أن رأى لها مثيلًا حتى في نجمته المتألقة!

وما إن رآها صديقاه حتى أشاحا بوجهيهما، وأرسلا أعينهما بعيدًا وقد امتلأت بالدهشة، وربما بشيء من الإعجاب، بينما كان الواضح عليهما هو الاضطراب الشديد حين احترقا بنار مستعرة تتلظى في عينيها!!

وما إن انتبه إيتوس أنها بهذا اللباس خارج الخيمة حتى استاء، فهمَّ أن يقف ويوبخها، وربما يجُرّها إلى خيمتها جرًّا، لولا أنه احترق معهما بنارها وهي تحدق

فيه، فصار متفحمًا مكانه لا يحول عينيه عن عينيها اللتين كانتا على اتساعهما مسجورتين غضبًا وسخطًا، كانت استيلا شادَّة على قبضتيها بكل قوة، وأنفاسها تخرج من جوفها كالذي يلهث؛ فصار لها حسيس ساخن ملموس، وزاد ذلك من اضطراب إيتوس وحيرته!

ما إن تأملته استيلا قليلًا حتى خضع قلبها له؛ فخفق قهرًا وأسفًا، وفاضت دموعها، وانطفأ حينئذ توهج عينيها! عضَّت على شفتيها بقوة تُحاول دفع الضعف الذي هاجمها؛ إلا أن ضعفها تمكن منها ولم يندفع، أخيرًا فتحت شفتيها وبصعوبة نطقت:

لِـ.. لِماذا يا.. إيتوس.. لِماذا.. أنتَ....

وحين أيقنت قرب انهيارها الذي تكره ظهوره لم تُكمل، بل استدارت تركض إلى خيمتها وصوتُ بكائها يخترق أذنيه..

همَّ بالوقوف ليلحق بها، إلا أن أركون جذبه من كُمِّه بقوة وهو يهتف:

انتظر!

فارتدَّ إيتوس مكانه، طالع أركون بتعجب وهو يوبخه:

أوَخَبِلت يا أركون لتشدَّني هكذا؟!

أركون:

بل أريد لك الخير؛ فليس من الحكمة أن تلحق بها الآن!

إيتوس:

ولِمَ؟!

تنهد أركون بأسف، ثم بصوت هادئ:

لأن كل ما ستفعله لها أن تقطع وعدًا، ولا أظنه مجديًا هذه المرة! بل أظن مولاتي مصرة على فعل ما، ثم تبسَّم وخفت صوته:

وأجدني أستطيبه!ً

صمت أركون بعدها ولم يُكمل، لكن إيتوس شعر بنبرة غريبة تحويها كلمته الأخيرة، شيء غامض لم يتبينه!

هادريان مُستكملًا:

أظنها علمت بما قُدِّم إليك اليوم!

التفت إليه إيتوس وعلى وجهه الاستفهام، فأكمل هادريان قاصدًا كل كلمة:

ألم يُقدم لك اليوم كوب الماء الزلال، ورغيف الخبز بالأعشاب؟!

ما إن أكملها حتى فهم إيتوس الأمر، وعاد بكاء استيلا يتردَّد في أذنيه، فإن كان لاستيلا كبرياء بالغ لا تُفصح به عمَّا في داخلها، فإن الأمور قد تكشَّفت له الآن، فغمره عطفٌ عليها حين لم يُدرك أن الغيرة تحرقها منذ يومين! وأحسَّ بشيء من التأنيب لضميره أنه لم يفهم ما في قلبها إلا هذه اللحظة، فكَّر أن يقوم حالًا ويأمر بإرسال إلينا إلى مكان آخر، إلا أن الأمر قد سُلم إلى عمه الذي بدأ بالفعل في الإفادة من خبرتها العسكرية، ومن الحرج أن يُمضي أمرًا دون علم عمه، ومن المحرج أكثر أن يُخبره بما حصل، فرأى أن يذهب إلى استيلا؛ ليرضي انكسارها بوعدٍ قاطع أن يُبعد إلينا في أقرب وقت، لكنه قد وعدها بالأمس، وخاف ألا تراه الآن إلَّا لعوبًا!

ترامت الأفكار داخل رأسه بعنف، فقرر أخيرًا أن يضطجع هاربًا منها جميعًا، ثم غطى وجهه مُواريًا إياه عن صديقيه، وأمرهما:

تستطيعان الذهاب من هنا، أريدُ أن أرتاح بعض الشيء.

نظرا إلى بعضهما نظرة لا تخفي شفقة عليه، ثم نهضا دون أن يقولا شيئًا.

وحين غشى الليل، وبدأ المخيم الصاخب يأخذ طريقه إلى الهدوء، جاء خادمان بما طلبه إيتوس من فرش ووسائد ودُثُر، وضعها هادريان جانبًا، وراح يجزُّ بعض الحشائش قبل أن يبسطها؛ ليغدو المكان أكثر راحة..

لاحظ أركون في الوقت نفسه شرود إيتوس المستمر وهو يجلس مسندًا ظهره إلى الشجرة، ضامًّا ركبتيه إلى صدره، وقد أمال وجهه فوقهما، وأزعجه أن ذلك قد خيَّم على ثلاثتهم جوًّا صامتًا كئيبًا، فطالعه لحظة بضجر، ثم لمعت عيناه بشقاوة، واقترب من إيتوس حتى صار بجانبه تمامًا، واتخذ الجلسة نفسها، انتبه إليه إيتوس، وشعر أن مكرًا جديدًا يأخذ طريقه إليه، أركون:

أتعلم يا مولاي، الحياة كئيبة جدًّا حينما تكونُ على غير ما يرام، صدقني، الآن فقط علمتُ أن ابتسامتكَ تُحيل حياة أصحابك إلى جنة مزدهرة لا تُدانيها جنة أخرى، آآآه يا مولاي، هلَّا أغثتنا بها، فإني أشعر وكأنِّي في أرض فلاة جدباء، ثم وجَّه خطابه إلى هادريان:

أليس كذلك يا هادريان؟

تبسَّم هادريان دون أن ينظر إليهما، واستمر في عمله مُشعرًا أركون عدم رغبته الخوض معه.

فتنهّد أركون بإحباط، ثم تصنع الحزن في نبرته:

انظر يا مولاي، حتى هادريان دائم البهجة والنشاط؛ قد بات جسدًا بلا روح، فروحه ماتت منذ اللحظة التي افتقدَ فيها مبسم ثغرك.

رمقه هادريان مدهوشًا من قدرته الفائقة على قولبة ما لا يريد إلى ما يريد، ثم باغتته ضحكة قوية فعاد مُعرضًا عنهما يكتمها.

إيتوس بهدوء:

هل تعلمُ يا أركون، أتمنى لو تمضي الآن إلى خيمتك؛ ليزول عنكَ حُزنكَ الأخرق هذا وتُريحني من ثرثرتك.

أسندَ أركون رأسه على كتف إيتوس كأنَّه يقوم بدورٍ تراجيدي مُتقَنٍ في مسرحية:

أووه إن قلبي لا يستطيع، لا يستطيع أبدًا تركك تُجابه أمواج الآلام العاتية وحدك يا مولاي، ثم ينعمُ هو بنومة هانئة! أووه كلا، لا أستطيع، لَإزعَاجُك بثرثرتي وأنا بقُربِك أحبُّ إليَّ من أن أتركك تقاسي الوحدة في هذه الأرض الخاوية، أما علمتَ أني قد نذرتُ نفسي لسعادتك يا أميري إيتوس، فكيف بوسعي الآن أن أنكثَ نذري؟!

شعر إيتوس بضحكة توشك أن تجتاحه، فنظر إلى أركون، ورفع زاوية فمه بدهاء وهو يقول:

يا لك من تابعٍ وفيٍّ يا أركون! إذن أنتَ لا تُمانع في أن تكون تسليتي هذه الليلة، وبأيِّ طريقة شئتُ!

ازدرد أركون ريقه ورفع رأسه وقد حيَّرته كلمات إيتوس، وببسمة غبية أجاب:

ربما.. أقصد إلى حدٍّ ما!

إيتوس بنبرة جِدِّية مُخيفة:

كلا، لا حدود، فلقد نذرتَ نفسك لسعادتي متى ما أردتُ.

ثم حوَّط أركون بذراعه القوية وجذبه نحوه، واستلَّ بيده الأخرى خنجره، وفي لحظة خاطفة كان الخنجر بين عينى أركون!

حملق أركون في الخنجر بِعينيهِ مذعورًا فصار كالأحول، وعلا حينها ضحك هادريان لمنظره، شدَّ إيتوس من قبضته أكثر وعاد يقول بابتسامة مُتعطشة أخافت أركون:

منذ زمن وأنا أرغب في تشريح إنسانٍ حيٍّ؛ لأرى أعضاءه وهي تنبض بالحياة! حقًّا ما أوفاك من تابعٍ يا أركون لتمنحني تحقيق حُلمي هذا!

أركون وهو يحاول الإفلات:

أوه كفى مزاحًا ثقيلًا يا إيتوس، فما قصدتُ هذه التسلية إطلاقًا! أرسلني الآن تكاد تخنقني! أرسلني أرجوك.

إيتوس لهادريان:

ما رأيك، ألا تراه خذلني؟!

هادريان وهو يجمعُ بعض الحشائش التي جزَّها:

بلى

إيتوس:

وهل تراه يستحق الشفقة فأتركه؟

هادريان ببرود وهو يقف ويمضي ليرمي تلك الحشائش:

لا أرى ذلك، فقد سمعته يخاطبك بإيتوس ولم يُعرك احترامًا!

صرخ أركون:

هادريان أيها الوغد! سأعلمك ما الاحترام، انتظر حتى أتخلص منه وسأريك.

إيتوس بغير اكتراث له، ومُكملًا حديثه مع هادريان:

لا أعلمُ لمَ أجدُ -دائمًا- لرأيك قبولًا عندي، لكن هل ترى أن أبدأ بقلع عينيه، أم بجزِّ أنفه؟

رفع هادريان صوته حين صار بعيدًا عنهما بعض الشيء:

أرى أن تبدأ بقطع لسانه أولًا؛ كي لا يزعجك بثرثرته وصراخه.

كان أركون حينها مُحمرَّ الوجه لشدة ما حاول الإفلات دون جدوى، فصرخ أخيرًا:

يكفي يا إيتوس، أنا أعتذر، وأقسم إني لن أثرثر عليك ثانية، ولْتمُت أنت وأحزانك أيها العاشق المعتوه! فما شأني بك حين قسا عليك قلبك الأحمق وقد امتلأت دنياك بالجميلات غيرها! - ثم علا صراخه - أعترفُ أني أحمقُ وثرثار وأتدخل فيما لا يعنيني!

فأرخاه إيتوس حين غلبته ضحكته أخيرًا، ووقع الخنجر من يده الأخرى، كان هادريان حينها عائدًا نحوهما فارجًا بين شفتيه ببسمة عريضة، رفع يده كالمنتصر وهتف:

أخيرًا أخذنا عهدنا من هذا المشاكس أن يُوفر علينا ثرثرته.

أركون وهو يُعدِّل ثيابه التي تبعثرت إثر ذلك الشدِّ، ويستردُّ أنفاسه:

كلاكما سيدفع الثمن غاليًا، أعدكما بذلك.

ثم رمق إيتوس الضاحك بغيظ:

منذُ متى تُجيد تمثيل دور الأشرار يا سيد إيتوس، لقد أنكرتكَ حقًّا، وخفتُ أن تبدأ في تشريحي بالفعل!

إيتوس بعد أن عدَّل جلسته وخفتت ضحكته:

أظنه منذُ عرفتك، أليس يُقال: من خالط غيره اكتسب منه؟! فها قد اكتسبت بعض صفاتك.

تبسم أركون بمكر وراح يتعمد لذع إيتوس:

متأكد؟ ظننته من بعض مشاهد قصرك التَّرِف في ثيفا!

فهِمَها إيتوس، وأغاظته، فزجره بصوت لا ضحك فيه:

الزم حدَّك يا أركون، ولا تُعيرني بما لا ذنب لي فيه! وأقسمُ لو أعدتَها ثانيةً فإني قاتلك، هل تفهم؟

ثم صمت لحظة، نظر بعدها إلى أركون المدهوش بشيء من الأسف لم ينطقه، بيد أنَّ بريقًا محزونًا في عينيه أوصل ذلك الأسف إلى قلبِ أركون؛ فتندم هو الآخر على غِلظته مع أميره.

عاد إيتوس بعدها إلى جلسته السابقة مسندًا ظهره إلى الشجرة، ثم رفع ركبتيه وضمَّهما إلى صدره وهو رافعٌ رأسَه يتصنع ثبات فؤاده، لكن سرعان ما هُزم الفؤاد؛ فأرخى وجهه ببطء حتى استقر فوق ركبتيه، ثم أطلق تنهيدةً عميقة كأنَّما يزيح جبالًا من الأسى عن صدره قبل أن يُردف بنبرة دامعة:

إنه والدي على كل حال، والدي الذي لا تساوي الدنيا عنده شيئًا بدوني، وها قد صارت له بدوني، ليتَ شعري ما هو فاعل في دنياه الموحشة تلك؟!

ثم ترقرقت عيناه وتهدَّج صوته:

ليتهُ رضيَ بنصيحتي بدلًا من نصائح شيشرون؛ بل ليته لم يصل للملك يومًا حتى لا أقوده بيديَّ إلى هذه النهاية، أليس ذلك أرحمَ له ولي؟!

حلمُ إيتوس

كان هادريان حينها قد فرغ من بسط الفرش، فاستوى واقفًا ومضى نحو إيتوس، جلس عن يساره دون أن يقول شيئًا، وكذا كان أركون جالسًا عن يمينه ولم تنبس شفتاه بحرف هو الآخر، وأخذا ينظران معه إلى الأمام، ومع أنَّ المكان من حوله قد هدأ وخلا من كل صوت؛ إلا أن إيتوس شعر بمواساتهما الصادقة له، ربما أحاديث الأرواح أخبرته بذلك، وربما حقيقة تلك النظرات التي كانت تحمل في طياتها فيضًا من الأحزان والكلمات، فللصمتِ كلماته أيضًا!

وفي اليوم التالي، أمر ألكساندروس الفتاة ألا تغادر خيمتها دون إذن، وألا تزاول أيَّ عملٍ غير ما خوِّل إليها من أمور عسكرية وحسب، ولم يأتِ مساء ذلك اليوم إلا وإيتوسٌ وأركون في خيمتيهما، قد خُيل لكلٍّ منهما أنه لم يخاصم زوجه قط.

الفصل السابع عشر
(نهايةُ إلينَا)

مضت عدة أشهر على وجود إلينا في جيش أَلِكْساندروس، كانت خلالها قد غيرت نهجها مع إيتوس؛ فحين لم تنجح في إيقاعه في حبها، سلكت مسلكًا آخر للإيقاع به فيما تريد! فوجهت تركيزها على فوائدها العسكرية التي أوصلته إلى حد الذهول والإعجاب الشديد بها حين كانت تُكلل بالنجاح دائمًا! وأوغل جيشه على إثرها في أراضي ثيفا أميالًا كثيرة، وانهزمت جيوش كاليجولا في كل المواقع التي حددتها إلينا ورسمت حيثيات معاركها!

وبالحديث عن هذا المسلك، فقد نجحت الفتاة فيه أعظم نجاحٍ؛ حيث وضع ألكساندروس عنها القيود التي فرضها عليها أول الأمر، وصارت من أهمِّ قادته وأعلاهم مكانةً، وصار إيتوس يحترمها ويثق بها ثقة عمياء، ولا يرى في إلينا إلا النصر ذاته متمثلًا في هذا الكيان الشامخ الفاتن؛ ليسهل طريقه ويأخذ بيده ومن معه إلى الظفر بأملهم أسرع مما كانوا يظنون!

كان ألكساندروس وجميع قادته يشعرون بغبطتهم بتلك الصدفة العجيبة التي ضمَّت إلينا إلى جنودهم، فتتابعت عليهم من بعدها الانتصارات، ما عدا قائدًا واحدًا كان يشعر بارتياب شديد منها، وبتوجس يتزايد في قلبه كلما اجتمعوا للاستماع لخططها، تلك الخطط التي كان لا يعقبها إلا النصر، النصر الذي ينبغي

أن يملأ جميع القلوب فرحًا به، وحبًّا لمن قادته لهم، لكنه لا يزيد أركون إلا ريبةً في أمرها، وشعورًا بعدم الراحة يتفاقم يومًا بعد يوم تجاه إلينا!!

باح يومًا لهادريان بما في قلبه على الرغم من تكتمه عليه زمنًا طويلًا، كان ذلك في اليوم الذي عزمت فيه إلينا أخذ إيتوس معها في رحلة استطلاعية على بعض المناطق الجبلية المطلة على ساحة القتال القادمة..

هادريان بتعجب:

ما الذي تقوله يا أركون؟! أوَتشكُّ في إلينا بعد كل ما قدمته لنا؟!

أركون:

كنتُ أعلم جوابك؛ لذا لم أبح لك بذلك من قبل مع أنك أقرب أصدقائي.. لكنني لم أستطع الآن؛ خاصة بعدما عزمَت أمرها على أخذ إيتوس معها!

هادريان:

وما الضير في ذلك؟! إن المنطقة المراد استطلاعها جبال نائية وعرة، لا وجود فيها لجنود كاليجولا كما تعلم، فلمَ الخوف؟!

أركون:

بما أنَّه لا وجود لهم فيها، فلماذا اختارت أن يرافقها إيتوس وحده؟!

صمت هادريان بتوجس، ثم في محاولة ضعيفة لتثبيت ثقته فيها مجددًا أجاب:

قالت إنَّها في مصلحة الخطة القادمة؛ حيث إن مشاركة إيتوس لها في هذا الاستطلاع المهم سيعينها على رسم حيثياتها أكثر بفضل خبرته، وحنكته! وإنَّ وجودنا معهما سيخلط الآراء ويشتتها.. أركون، تعلم أن موقع القتال القادم مختلف عن كل ما سبق، ومن الغرارة الإقدام عليه دون تخطيط جيد!

لاح طيف ابتسامة ساخرة على شفتي أركون وهو يجيب:

يخلطُ الآراء؟! لا أدري كيف استطاعت هذه الماكرة إقناعكم بذلك؛ لتنفرد بإيتوس؟!

لم تسع الدهشة والاستنكار وجه هادريان، فأجاب مُغضبًا:

كأنَّك تلمح إلى وصمنا بالغباء!! ألا ترى أنها وقاحة منك؟! على كلٍّ قل ما بدا لك، في النهاية ستدرك بُطلان اتهاماتك لنا ولإلينا..

أشاح أركون وجهه وزفر، ثم عاد ينظر إلى صاحبه ورد بصوت هادئ لم يخف ندمه:

لم أقصد يا هادريان، صدقني.. ولكني غير مطمئنٍ أبدًا لفكرتها هذه، ولم أقتنع بجدوى هذا الانفراد!

ثم اقترب من هادريان وقد رانَ على وجهه الكثير من القلق، وراح يُشير إلى صدره ويقول:

أرجوك يا هادريان.. أطعْ أمري هذه المرة فقط واستمع لما في قلبي، إنَّه لم يخذلني من قبل، فكيف لي أن أعصيه الآن؟!!

بقي هادريان ينظر إليه بصمت حائر، ولم يجد جوابًا..

وفي الساعة المحددة وصلت سرية الاستطلاع إلى الموقع الذي عنته إلينا لمهمتها مع إيتوس، وحين همَّا بالصعود، نادى أركون على إيتوس وهو يُسرع إليه، ولما صار حذوه أمسك كتفيه، وراح يهمس له وقد بزغ الخوف في عينيه:

لن أوصيك يا مولاي بأكثر من الحذر.. أرجوك احذر جيدًا ممن حولك!

إيتوس مُتبسمًا ومُطَمْئِنًا:

لا تقلق، فأنا ماهر في المرور بأضيق المنحدرات، ثم إني حملتُ معي السيف والسهام، وستكون نهاية من تُسوِّل له نفسه مواجهتي في مكان كهذا..

أركون وهو يشدُّ قبضتيه أكثر وفي عينيه النذير:

لستُ أحذرك ممن بانت عداوته؛ فالأمر معه واضح يا سيدي، ولكني أحذرك ممن لا تطاله الشكوك؛ فنضع فيه ثقةً تُردي بنا إلى الهلاك!

انمحت ابتسامة إيتوس حين فهم ما يعنيه أركون، ولـمَّا لم يكن في قلبه شيءٌ من ذلك؛ وضع يديه على كفَّيْ أركون؛ لينزلهما عن كتفيه وهو يرد ساخطًا:

ما ظننتُ أن لك ظلمًا يَطالُ من زيدت غنائمك وعلا صيتُ انتصاراتك بسببها يا أركون!! احتفظ بتحذيرك هذا لنفسك فلستُ بمحتاجٍ إليه..

ثم استدار عنه، ومضى مع إلينا إلى وجهتهما المنشودة دون أن يسمح لأركون بالاعتذار، وبقي الأخير يتابعهما بقلب محبطٍ ووجهٍ شاحب؛ قلقًا على أميره، وحين اختفيا خلف الجبال صار أركون يقطع الأرض بعشوائية، مطرقًا رأسه شاردًا فكره، كأنَّ هموم الدنيا كلها اجتمعت على كاهله؛ فأحنته..

كان هادريان حينها ينظر إليه ويعلمُ ما يعتريه، فغلب قلبه شعور مساور لما يشعر به أركون؛ إذ كان يعرف أن لصاحبه حدسًا عجيبًا لا يكاد يخطئ!

أوغل إيتوس وإلينا في عمق الجبال، وقطعا مسافة أبعدتهما كثيرًا عن السرية المنتظرة لهما في الأسفل بأحاديث لم تنقطع لحظةً من فم إلينا عن المعركة القادمة، وعن كل ما خططته لها بانهماك وبأسلوب شيق، جعلت تركيز إيتوس ينصبُّ على حديثها لا سواه، وكأنه لم يقطع المسافات والممرات المتداخلة في بعضها إلا بجسده فقط، أما عقله فكان يرفرف فوق ساحة القتال المقبلة، ينظر من خلال

وصفها الدقيق إلى المسافة الفاصلة بين الجيشين، ثم يهوي قريبًا منهما فيرى الأسلحة التي دُجج بها جيشه بنصيحة إلينا؛ حيث تناسب المكان، ثم يرى أسلحة جيش العدو التي اتضح له ضعف جدواها في هذه المنطقة، وانتشى قلبه فرحًا لذلك، ثم عاود ارتفاعه قليلًا؛ ليرى بوضوح لحظة انقضاض الجيشين على بعضهما البعض واشتباك الصفوف، ولم يفت على عقلها الذكي وصفها للقائد إيتوس وهو يُدير المعركة التي رسمها بنفسه بفضل جولته الاستطلاعية القائمة، فأوقع في العدو هزائم لم يتوقعها!

ظل إيتوس يقطع ممرات الجبال المنحنية بجسده دون عينيه، فعيناه لم تكن تبصران سوى القائد إيتوس فوق جواده الأبيض الفتَّان وهو يخترق الصفوف برشاقته، وتتأملان سيفه البتَّار وهو يجُزُّ رؤوس الظلمة ويُحرز أعظم الانتصارات!

وبعد مدة، خفَّ حديث إلينا، ثم ما لبث أن انقطع، ولزمت الصمت.. لكن المعركة لم تنتهِ بعد، ولم تُكمِل القائدة الفذَّة ما رسمته بالتفصيل! فأخذ إيتوس يسألها عما يودُّ معرفته، لكنها كانت تجيبُ باقتضاب مرة، وتكتفي بإيماءة خفيفة أنها ستخبره لاحقًا وعلى شفتيها بسمة غريبة مرة أخرى! فلم يجد إلا أن يصمت أخيرًا حين أدرك عدم رغبتها في الإجابة، وحَارَ في أمرها، لكنها حيرة لم تصل إلى الشكِّ بها لحظةً، وإنما أوعز تصرفها الغريب إلى رغبتها في التركيز على المهمة التي أدرك قربهما منها، ولأول مرة ينتبه إلى الطريق وإلى موقعه! وحين لم يتذكر كيف وصل إلى هنا ولا أيَّ طريق سلك، بادر إلينا متبسمًا بتعجب:

هل تصدقين يا إلينا، إن براعتك في وصف اللحظات الحاسمة مذهلةٌ للحدِّ الذي عاش معه عقلي كأنَّه يشاهدها حقًّا، ولم أدرِ كيف وصلنا إلى هنا!

اتسعت ابتسامتها، وردَّت بوجه مُستبشر من غير أن تنظر إليه:

إذن نجحتُ!

إيتوس وهو يرفع حاجبًا دون الآخر بغير فهم:

نجحتِ في ماذا؟!

إلينا:

لا عليك مولاي، ستعرف قريبًا كل شيء.. كل شيء.

لم يجد إيتوس إلا أن ينصاع لأمر هذه القائدة التي بدا له أنَّها شديدة التركيز على مهمتهما، فصمت؛ ولكن شيئًا من الريبة تجاهها قد غزا قلبه هذه المرة!

وأخيرًا.. بدأ الطريق الضيق يتسع شيئًا فشيئًا أمام خطواتهما، فسألها إيتوس:

هل اقتربنا؟

إلينا:

أجل، إننا على وشك الوصول.

إيتوس بسرور:

رائع، إذن سنستطلع الأرض التي نلتقي فيها بوروس وجنوده الآن -ثم برقت عيناه بابتهاج متزايد- سنذهل العدو ببراعةٍ لم يحسب لها أي حساب!

ضحكت إلينا ولم ترد، طالعها إيتوس باستغراب:

ما الأمر؟ هل أخطأتُ في شيء؟! ما قلتُ لكِ إلا ما حدثتني به!

إلينا:

كلا، لم تخطئ يا عزيزي، بل أثبتَّ لي أنك تلميذٌ نجيب تحفظ ما أقوله ببديهة قوية حاضرة.. تثير إعجابي حقًّا يا (إيتوس)!

شعر إيتوس بغرابة مخاطبتها له على غير عهدٍ سبق! فأحس بشيء من التوجس اجتاح فؤاده ليشاطر ريبته الآنفة! تنهد بعمق في محاولة لطرد كلِّ خاطر يحاول تشكيكه في قائدته الوفيَّة، وأخذ يحدِّث نفسه باضطراب:

تبًّا لكَ يا أركون، ألم تجد ما تقوله غير ذلك الكلام الغبي؟! إنَّه ما زال يتردد في ذهني مُذ تلفظتَ به مُحاولًا تشكيكي في إلينا!!

ثم هزَّ رأسه لينفضه، ومضى معها حتى انتهيا إلى ساحة كبيرة، كانت قمةً لجبل، ومن حولهما جبال كثيرة تتفاوت ارتفاعًا وقربًا من قمة الجبل الذي استقرا عليه، كانت بعض قمم تلك الجبال ترى بوضوح، وبعضها ضبابية؛ فصارت على شكل أقماع متجاورة مُتفاوتة، ومن حول تلك الساحة أشجار ارتفعت سيقانها عاليًا كأنها تريد مُناطحة السحاب! فتوقف إيتوس مكانه تاركًا عينيه تجولان بدهشة وهو يقول:

يا له من مكان غريب! لم أتوقع يومًا أن بثيفا مثل هذا الجمال!

ثم سأل وهو يتأمل الأشجار بإعجاب:

ما هذه الأشجار يا إلينا؟ وهل توجد في غير هذا المكان؟

وحين لم تسمع أذناه جوابًا، نظر إلى الـمُخاطبة؛ ليلحظ شرود فكرها وهي تنقل بصرها إلى اليمين مرة، وإلى اليسار أخرى ويداها على جانبي خصرها.. كانت هيئتها تدلُّ على انتظار شيء ما.. فاقترب منها وهتف:

ما الأمر يا إلينا؟ أليس هذا هو المكان الذي قصدته؟!

نظرت إليه، فتبدلت ملامح الانتظار إلى بسمة غامضة دون أن تُنزل ذراعيها كما كانت تفعل من قبل حين تخاطبه، وأجابت:

بلى هو..

إيتوس وهو يرقبُ هيئة جسدها:

ولـمَ أراكِ شاردةً حائرة؟! ألم يحن الوقت لنرسم المهمة؟!

أشاحت وجهها عنه قليلًا كالـمُفكرة، ثم أعادته نحوه:

بلى، ولكَ أن تذهب إلى الحافة الآن وتفعل ذلك..

إيتوس:

ولـمَ أنـا فقـط؟ لـم أقـم بمثـل هـذا العمـل مـن قبـل، ولا أظننـي سـأخرج بنتيجـة مرضية إثر ذلك.. يجب أن نقوم بذلك معًا يا إلينا..

أجابته بنبرة رقيقة تشبه التي خاطبته بها أول مرة أمام استيلا:

أووه عزيزي إيتوس، أنسيتَ أني فتاة؟! فتاة ضعيفة يرهقها صعود الجبال على الرغم من كل ما تقدمه لكم!

ثم اقتربت منه حتى صارت أمامه مباشرةً، وجهت يديها نحو يديه فأمسكت بهما، وأمالت وجهها بدلال وهي تُكمل:

لا يليق بالنبلاء مثلك إلا منح أمثالي وقتًا من الراحة، أليس كذلك؟!

كان إيتوس ينظر إليها بثبات لم يُربكه تصرفها، بل ردَّ عليها:

أتعلمين يا إلينا، منذ اقتربنا من المكان وأنا ألحظُ تغيركِ على نحوٍ لم أرتح له، لكني آثرتُ الصمت خشية أن أكون قد ظلمتك بظني! ولعلَّ خلاف الأمر يتبين لي

- ثم وهو يسحب يديه وقد ارتفع صوته بحدة وارتياب - إلينا، ما وراءكِ؟!

شعرت بخوف من لهجته الشديدة المتوازنة مع التباين الجسدي بينهما، لكنَّها أظهرت ثقة متناهية في بسمة شامخة مع ظهرها المستقيم، أو ربما تظاهرت..

سرعان ما استدارت عنه بعدها وقد تأكدت ثقتها حين تناهى لسمعها أصوات أقدام تتسلق الجبل إليهما، وأيقنت قرب المصير الذي انتظرته طويلًا، فقالت:

حسنًا، سأعترف لك بكل شيء..

اعلمْ أولًا أنني قد أُسِرتُ لديكم برغبتي، كان ذلك حين قتلتَ أخي أمام عيني يا إيتوس، وأيقنتُ عجزي في الانتقام له إن واجهتك، فقد شهدتُ بنفسي مهارتك في القتال، فأردتُ الانتقام له بطريقة أخرى تليقُ بضعف جسدي وقوة عقلي..

ثم أعادت وجهها نحوه:

كل ما وهبته لكم من خطط مكنتكم من الانتصارات، كانت لأجل هدفي أنا وليس من أجلكم، أردتُ الحصول على ثقتكم لا أكثر، وقد حصل ما أردت، فها أنت تقف معي الآن وحيدًا دون أحدٍ من أتباعك المخلصين.. واعلمْ أنني ما زلتُ على اتصال بوالدك الإمبراطور ووزيره منذ قدمتُ إليكم وحتى قبل أن نصعد أنا وأنت هذا الجبل، كان آخر ما وصلهم أننا بدأنا الصعود؛ ليستعدوا لهذه اللحظة التي لم تخطر حتى بأحلام شيشرون أو بوروس، بل حتى في أحلام لودفيش ابن القائد بوروس الذي بات قريبًا منا مع معاونيه؛ ليتولى المهمة التي طالما تمنى تحقيقها، ولأرى نهاية من قتل أخي أمام عيني!

صمتت برهةً، ثم لاحت على شفتيها ابتسامة خبيثة وأردفت:

لقد أمر الإمبراطور باصطيادك لتعود إلى أحضانه مرغمًا، في حين كانت خطة شيشرون للودفيش أن يقتلك ثم يخبر والدك أنَّك لقيت حتفك على يد أتباعك حين هوجمتم! فأي الأمرين برأيك سينفذ لودفيش؟!

ملأت الدهشة عينيه وهو يهتف:

أيتها الخائنة!!

ضحكت إلينا بصوت مرتفع، ثم نظرت إليه بوجهٍ زال تصنعه وظهر شرُّه:

لقد كرهتك يا إيتوس منذ اللحظة التي قتلتَ فيها أخي، وطويت عليك في قلبي حقدًا لا يُطفئه أي شيء، لن أنكر أن كرهي لك كان يتعرض لنفحاتٍ رقيقة من الحبِّ تحاول مشاطرته قلبي نظير لطفك الشديد معي؛ لطف لم يمنحني أحدٌ إياه من قبل حتى أخي الراحل! لكني كنتُ أنفض ذلك الحبَّ الأخرقَ بعيدًا كلما حاول غزو فؤادي، فلا أظنني قادرة على الوفاء لأخي ولعائلتي إن سمحتُ له بذلك!

صمتت هنيهة ترقب ردة فعله، فما رأت غير مزيج من الصدمة والإحباط طغيا على عينيه البُنِّيتين بوضوح، وانعقد لسانه على إثرهما فلم يُجب، أو ربما وهنت روحه عن إبداء الجواب وهي تسمع صوت أركون يتردد في داخلها (ولكني أحذرك ممن لا تطاله الشكوك؛ فنضع فيه ثقةً تُردي بنا إلى الهلاك!)

ولما لاحظت إلينا ذلك ابتسمت شامتة من حاله.. ثم قالت محاولة إذلاله:

لا أنكرُ أن شعب ثيفا سيكون أسعدَ الشعوب قطعًا وأهنأها عيشةً لو حكمته، لكني حلتُ بينه وبين سعادته تلك، ترى لو علمَ ذلك الشعب المسكين ما فعلتُه به؛ هل تظنُّ أنَّه سيلعن روحي كلما ذكرني؟

ثم نظرت إلى السماء وهي ترفع يدها؛ لتثبت شعرها الذي يتطاير مع الهواء، وتابعت:

بالنسبة إليَّ لا أظنه سيكتفي بهذا؛ بل ستعلنني من بعده كل أجياله المتعاقبة البائسة!

وعلت ضحكتها حتى عاد رجع صداها، فكزَّ إيتوس على أسنانه غيظًا وارتفعت من صدره زفرة عميقة أعادت إلى روحه القوة، فشدَّ على قبضة سيفه وهو يحدُّ النظر إليها، لما انتبهت إلينا لذلك وسعت ذراعيها في الهواء وراحت تصرخ بصوت فرح مجنون:

أحسنتَ يا إيتوس، افعلها الآن واقتلني، أخرجْ كل ما في روحك من شرٍّ واقذفه عليَّ، فلا ألوم نفسي بعدها أني خنتُ روحًا طيبة.. هيا اطعني؛ لتستوي ميتتنا، وأسمحُ بعدها لنفحاتِ الحبِّ أن تحتل قلبي كله هذه المرة، فنصعد إلى السماء معًا كحبيبين، ألا يدعو هذا إلى السرور؟!

وعلت قهقهتها..

إيتوس:

اخسئي يا خائنة، فلن تنالي بغيتك؛ سيفٌ شريف كهذا لا يليق به طعن الوضيعين أمثالك، أجل ستموتين؛ ولكن ميتةً تليق بعفن روحك الذي صرتُ أشتمه بوضوح الآن.. أين أنت يا أركون لتشهد مصرع رجل استهان بصدق نصيحتك ووبخك؛ ليقع في غباء ثقته العمياء؟!

ثم انطلق سريعًا بعد أن دفعها جانبًا، فالتفتت إليه بذهول ظانَّةً أنه سيهرب، لكنَّ عينيها وقعت على لودفيش الذي صار فوق القمة مع عدد من رجاله في مهمة قتل إيتوس، فاندفع هو الآخر تجاه إيتوس، واشتبكا..

كان لودفيش يقاتل ببسمة متعطشة حاقدة وهو يصرخ:

أخيرًا سينال المدلل الذي أبغضه حتفه على يديَّ!! شكرًا لك يا إلينا على هذه الهدية..

وما إن سمعت الفتاة ذلك حتى انبلجت أساريرها، وبقيت تتابع المشهد مع بقية الجنود مكتفةً ذراعيها، تمرر لسانها فوق شفتها العليا مرة، ثم تعض السفلى أخرى، متعطشة مترقبة اللحظة التي أمَّلت نفسها طويلًا أن تشاهدها منذ قُتل أخوها، ولما رجحت كفة إيتوس، واتضح عجز لودفيش من تحقيق مرادها كزَّت على أسنانها، ثم زفرت بإحباط وغيظ وهي تتناول خنجرها، ولم تتمالك نفسها؛ فاندفعت خلف إيتوس دون أن يلحظها؛ لتغرس خنجرها بقوة في ذراعه.. فاختل توازنه، وتشتت تركيزه بينهما، وبسرعة خاطفةٍ ركلت سيفه الذي سقط من يده بكل قوتها؛ ليتدحرج في المنحدر أسفل القمة، وارتدت بعدها إلى الخلف سريعًا بعد أن صيَّرته أعزل وهي تصرخ:

لقد أضعفته لك يا لودفيش فاشفِ غليلي منه.. هيا يا لودفيش!

رمقها إيتوس بازدراء وهو يمسك ذراعه النازفة بشدة، ثم هتف:

جبناء، كلُّ الأشرار جبناء، يستعصي عليكم الشرف حتى في القتال، فلا تجدون ما تتقنونه سوى الخيانة والغدر!

ضحك لودفيش وإلينا كأنهما أمام جزء مسلٍّ من مسرحية شيقة، ثم صاح لودفيش:

سأقطع أطرافك واحدًا تلو الآخر، وسأمتع نفسي بتعذيبك هذا اليوم حتى تغرب الشمس، ثم أتركك في العراء؛ لتكمل وحوش الجبال بقية المهمة، أعدكَ يا إيتوس.. أعدكَ أن أجعل هذا اليوم يومًا فريدًا من أيام عمرك..

ثم انقض عليه بسيفه ليقطع ساقه؛ لولا أن سهمًا خاطفًا اخترق رقبته مستقرًا في وسطها.. فاستحالت الوجوه إلى شحوب مذعور وهي تنظر إلى جهة الرامي، وكذا

فعل لودفيش؛ ولكن بصعوبة كأنَّه يحرك حديدًا، وعيناه الجاحظتان تتطلعان إلى ذلك الرامي، كان رجلًا متسربلًا بالسواد لا يُرى منه سوى عينيه، وكان مُمسكًا قوسه مستعدًا لحصد المزيد، وعن يمينه وشماله رجال ملثمين مندفعين نحوهم، لم يسعف الوقت لودفيش ليشهد بقية الحدث؛ فقد سقط ميتًا مقهورًا من فوات حظه الذي انتظره طويلًا في إيتوس! أما جنوده فحاول بعضهم مجاراة المهاجمين، ولما انتهى أمرهم سريعًا، وأيقن البقية استحالة نجاتهم، قذفوا أنفسهم من أعلى المنحدر؛ لتهوي أجسادهم ممزقةً في مكانٍ سحيق، من بينهم إلينا! وما إن رآها بقية الجنود المنتظرين في الأسفل، المتلهفين لمهمة قائدهم لودفيش، حتى أصابهم الفزع والخوف حين استُبدلت جثة إيتوس بجثة إلينا! فعادوا إلى شيشرون يحملون إليه خيبة مسعاه..

أسرع الرامي حينها إلى إيتوس الجاثي على الأرض، ولما صار بجانبه جلس إليه ووضع يديه على كتفي إيتوس وهو يخاطبه قلقًا مشفقًا:

مولاي، هل أنت بخير؟

أومأ إيتوس بوجهه المتعب المتفصد عرقًا، فتبسم صاحبه بعطف وأردف:

لقد كنتَ شجاعًا جدًّا.. كنتَ بطلًا بالفعل على الرغم من تيقنك من عجزك!

إيتوس ببسمة واهنة فيها الكثير من الندم:

أركون، عزيزي..

ثم تنهد بعمق: شكرًا لك، شكرًا أيها الوفي.

تطلع بعدها إلى ملثمين يقفان جانب أركون، وتابع:

شكرًا لكما.. هادريان، وأسخيلوس..

تبسم أسخيلوس وهو ينزل اللثام عن وجهه، وأجاب هادريان بإشفاق:

مولاي الجليل، سعيد أننا وصلنا قبل فوات الأوان..

ثم جلس يتفحص جرحه، سرعان ما دُهشت ملامحه وهو يسأل:

طعنة خنجر؟! كيف استطاع إصابتك به؟!

صمت إيتوس برهة زالت فيها بسمته، ثم أجاب بصوت خافت:

لم تكن من لودفيش.. بل كانت من إلينا.

أركون بتعجب:

تلك الخائنة؟! يبدو أن لها مع عقلها الخبيث يدًا ماهرة لتصيبك هكذا في مثل هذا الموقف!

إيتوس بحزن:

ربما لو لم أقتل أخاها لما كانت بهذا السوء، أشعر أنَّني سبب كل ما حدث لها

ثم تنهَّد بأسى..

لم تكن كلماته تلك إلا جمرة أوقدت غضب أركون، فنهض متسخطًا على أميره وهو يقول:

(رِقَّتُك هذه ستودي بك إلى حتفك يومًا ما دون شك!)

ثم أدار وجهه عنه وأكمل:

بل كان الشرُّ يجري في دمها من قبل أن تقتل أخاها..

ثم مضى في طريقه دون أن يلحظ ما خلفته كلماتُه الأولى على وجه إيتوس؛ فقد كانت مشابهة لما قاله له هادريان سابقًا! لكنَّ أسخيلوس لاحظ ما اعترى إيتوس، وعلى الرغم من جهله سبب القلق الذي بدا عليه، إلا أنه اقترب منه يُباسمه ويُطمئنه:

بل لولا رِقَّتُك التي يعيرك بها هذا الغاضب ما نجوتُ أنا، ولا نجا من يشبهني من جنود ثيفا..

فتبسم إيتوس وهو يومئ لأسخيلوس مخفيًا اضطرام قلبه.. ثم حمله الأخير على ظهره، سالكين طريق العودة..

الفصل الثامن عشر

القادة الثلاثة

بعد تلك الحادثة بشهرين، صار ألكساندروس موغلًا في إمبراطورية ثيفا الواسعة، وأصبحت معظم مدنها تحت سيطرته وحكمه، ولم يبقَ لكاليجولا - الذي خذلته الانشقاقات الواسعة بين جنوده - سوى العاصمة، وبعض المدن حولها..

وعظمت حينذاك شهرة الملثم الأحمر؛ بشجاعته، وبسالته، وغموضه! غُنِّيت فيه الأشعار، ودُبِّجت في مدحه الخطب، وازداد الناس له حبًّا، وبأمره إعجابًا..

أما هناك في العاصمة، فأشدُّ ما يكون عليه من حقدٍ وسخط، ليس في قلوب العامة البؤساء، بل في أفئدة أهل البلاط والنعيم، كان أمره يؤرِّقُ ليلهم، ويُعكِّر نهارهم وهم يلحظون زَحْف قواته إليهم، ذلك الزحف الذي يطوي تحت كل شبرٍ يُسيطر عليه صفحةً من أيامهم، مؤذنًا بزوال أملاكهم؛ لتشرق معه شمس ثيفا من جديد، وكأنَّ مصير كلِّ شمس وإن أطالت المغيب أن تبزغ عند الفجر متبخترة متوهجة، مُعلنةً انتصارها على الظلام في معركتهما الكونية، معركة لا تتغير ولا تتبدل عبر القرون إلا أنَّها تنتصرُ فيها كل مرةٍ مُعِيدةً للحياة نورها وبهجتها.. لقد عاش إمبراطور ثيفا وزبانيته الوجع والكمد قبل أن يصلا إليهم، ودبَّ الموت في أرواحهم قبل أن تحين آجالهم، وصاروا يحيون بأجسادٍ جوفاء لا أرواح فيها سوى ما تُمكنهم من قليلِ الأكل، والشرب.. وكثيرِ القلق، والرعب، وندبِ الحظِّ

العاثر.. ولعنِ الـمُلثم الأحمر! وكأنَّ الأقدار تأبى إلا أن تذيق كلَّ ظالم من الكأسِ نفسه، ولسان حالها يقول: كلُّ ساقٍ ذائقٌ ما سقى!

كان نجمُ هذا الـمُلثم الأحمر يزداد توهجًا بعد كل لقاء بين الفريقين، فلا يُرى أشد منه بطشًا بأعدائه، ولا أكثر رحمة مع العُزَّل والمستسلمين منهم، ولا أقدر على بثِّ العزيمة والأمل في قلوب جنوده وقادتهم!

يُلوح بيديه من فوق جواده الأبيض الفتَّان فرحًا مستبشرًا بعد كل انتصار، والناس عن يمينه وشماله كضفتين منتشيتين بِخَرِير مائها الراقص، يُحيونه طربًا لنصرته لهم، وينثرون عليه ألوان الورود احتفالًا به وفرحًا بحكمه العادل الذي سيغمرهم بعد سنوات الظلم التي عاشوها.. ثم إذا ما خلا بنفسه سَكَن، وهَدأ.. ولا يلبث أن يلفَّه قدْرٌ رهيب من الحزن والألم، يزداد ذلك معه بعد كل انتصار، وبعد كل شبر يُقربه من العاصمة! فيتمنى حينها أن يحدث له حادث يحول بينه وبين ذلك اليوم الذي يشهد فيه مصير والده المحتوم، والذي تبدَّى له قريبًا جدًّا أكثر من أي يوم مضى.. ولكن سُرعان ما يؤلمه هذا الخاطر حين يذكر أن له ولدًا يوشك أن يخرج إلى الدنيا.. فتزيده أفكاره القاسية المتخبطة، وآماله المتنازعة الـمُتناقضة وجعًا وكدرًا..

لم تكن حاله تلك تخفى على القريبين منه، عمِّه، وصديقيه هادريان وأركون، دون أن يجد أحدٌ منهم ما يقوله له، فيختارون مراقبته من بعيد، بقلوب يفطِّرها همُّ صاحبهم وأميرهم! حتى إذا ما عادوا إلى البلاد الخضراء سُرِّي عنه ذلك، وأسرع نحو خيمته مبتهج الخاطر، سعيد النفس بلقاء محبوبته، وما إن يراها باسمة الثغر مُتلهفة للقائه حتى تزداد سعادته، ويزداد شوقه إليها؛ فيحوطها بذراعيه، ويضمُّها

إليه كأن لم يفعل من قبل، يهبها من قبلاته، ويغدق عليها بكلمات الوجد والهيام، واشتياق الروح للروح، فتزداد وجنتاها المتوردتان توردًا، وتجيبه بقلبٍ أكثر تشوقًا أنَّ رؤيتها لوجهه هي الحياة لها.. ثم ما يلبث أن يجثو على ركبتيه؛ ليواجه وجهه بطنها، ذلك البطن الذي يحمل في أحشائه ولده الذي قد بلغ سبعة أشهر، فيتلمسه بحنانٍ ووجهه يصرخ فرحًا به واشتياقًا لرؤيته، ثم يُقبله قبلتين أو ثلاثًا، يشعر حينها بأن شفتيه تلامس بشرة طفله الرقيقة الطرية؛ فيزداد نبضه خفقانًا، ويأنسُ بما يشعر به، ولا تنتهي طقوس بهجته بزوجه وولده الموعود إلا بعد أن يضع خده على بطنها برِقَّة كأنَّه يتلمَّس خدَّ طفله الممتلئ الرقيق، فتخرج ضحكته لطيفة منتعشة، ولا تملك استيلا حينئذٍ نفسها.. فتضحك ضحكة عذبة تداريها بأصابعها، ثم تُرسل يديها فوق رأسه تمررهما بين خصلاته البندقية وهي تتصنع العتب:

أراكَ تُحبه أكثر مني!

فيرفعُ رأسه؛ لتلتقي عيناه بعينيها وتتعانقان عناق الغصنين الجذلين، ثم يُجيب وقد قرأ ما بداخلها:

وهل كنتُ سأحبه بهذا الجنون؛ لولا أني بحبِّ أمِّه أجنُّ؟!

فتزداد ضحكتها، ويزداد قلبه وَلَعًا بها، فينهض وهو ممسكٌ يديها، ينظر في عينيها برهة كأنَّه يراها أول مرة؛ فتهرب بهما عنه بخجل، وربما بدلال.. ثم تعيدهما نحوه وقد زادت بسمتها عذوبة، يهمس:

لا أعلمُ لولاكِ أيَّ حياة كنتُ سأعيش! أيَّ سعادة كنت سأُحرمُ منها لولا أني سمعتُ عزفك الشجي عند تلِّ الألوان؟!

ثم يرفع يديها ويقبلهما، وما إن تنحني لتقبيل يديه حتى تجد نفسها مغمورة بين ذراعيه..

❊ ❊ ❊

وبعد مُضي أسبوع من عودتهم إلى البلاد الخضراء، راح الجيشُ يستعدُّ لهجومٍ أشدَّ قوة على العاصمة وما حولها من مدن، فتكثفت التدريبات والتجهيزات العسكرية، ولم يبقَ للراحة سوى الشيء القليل، إلَّا أن النفوس مع ذلك أخذت تعلو حماستها، ويزداد تلهفها للقاء الجديد، والأمل يحدوهم مع كل رمية سهم أو ضربة سيف في تدريباتهم إلى رؤية ثيفا متحررة مستقرة، يكسو وجوه أهلها ما اكتسته وجوه أهالي المدن المُحررة من السعادة والبِشْر بانفكاكهم من قيود الإذلال، والقتل، واستباحة الأعراض بلا رحمة..

صار ألكساندروس أكثرَ سرورًا من أي يومٍ مضى، وأكثرَ اعتزازًا بما يقوم به ومن معه، وإن كان لا يزال طيف طانْيوس (وزيره الذي ضحى بنفسه؛ ليهرب ألكساندروس إلى البلاد الخضراء) يلوح له بين الحين والآخر، فيهتز قلبه حنينًا إليه، وإجلالًا لما قام به من تضحية كان نِتَاجها هذا الواقع العظيم، ثم تتحرك شفتاه، كأنها تُتمتم بشيء يسكن قلبه منذ فارقه رفيقه..

❊ ❊ ❊

وذات مرة، حدَث خلاف بين إيتوس وأركون في أمرٍ ما، واشتدَّ نقاشهما أمام هادريان الذي حاول غير مرة إسكات أركون وزجره، إلا أن هذا الأخير كان يفور غيظًا فلم ينزجر، بل عزَا موقفَ إيتوس إلى غيرته من قوته..

إيتوس مدهوشًا مستنكرًا:

أنا أغارُ من قوتك؟!

أركون وهو يكتف ذراعيه ويتبسم باستفزاز:

أجل.. وهو ما يجعلكَ الآن تصرخ غيظًا يابن النعمة!

لا يعلم إيتوس لمَ اجتاحته ضحكة لم يستطع كبتها على الرغم من غضبه منه؛ فعلا صوتها، واعتبر أركون ذلك استهزاءً به وانتقاصًا له، فزالت الثقة التي تمثلها، وقال مُتحديًّا:

إن كنتَ تشكُّ في قوتي فواجهني إن استطعت!

عقد هادريان حاجبيه وهو يصرخ في وجهه:

كيف تجرؤ؟! لقد بلغتْ وقاحتكَ حدًّا لا يطاق يا أركون!!

ثم فزَّ واقفًا عازمًا على تأديبه، وفعل أركون مثله، وتواجها.. إلا أن إيتوس كان أسرع فحال بينهما وهو يقول:

يكفي يا رفاق، يكفي.. ليس الوقت مناسبًا لهذه النزاعات الخرقاء! تعلمان عدد المهام التي كلفنا بها القائد الأعلى هذا اليوم، والوقت لا يتسعُ حتى للتَّنفس؛ فكيف إن علمَ بتضييع وقتنا في هذه المهاترات؟! لا أظنُّه إن علم بذلك إلا أن يستاء ويسخط - ثم وهو يُثبت نظره على أركون - علينا استغلال وقتنا فيما هو أهم، وقد أدركنا جميعًا ثِقَلَ المسؤولية التي تضاعفت مع قُربنا من تحرير العاصمة!

تبسم أركون بمكر وهو يجيب:

إذن فأنت تتهرب، جيد أنكَ اعترفت..

إيتوس:

أتهرب من ماذا؟!

أركون:

من مواجهتي..

إيتوس:

كلا، لستُ أتهرب، وليس ذلك من عادتي، لكنه الأهم فالمهم؛ فتعَقَّل أيها القائد!

كان إيتوس يعلمُ النتيجة مسبقًا، فأركون وإن كان قويًّا، ماهرًا في القتال، إلا أن إيتوس يفوقه، لكن كأنَّه كره أن يضع نفسه وأركون في موقف يُغضب عمَّه فكلاهما من أهم قادته..

لقد كان أركون يُدرك ذلك أيضًا؛ لكن غلبت عليه شقاوته؛ فأصرَّ على المواجهة، ولم يجد إيتوس بُدًّا من أن يقبل بذلك إنهاءً لهذا الخصام!

واتفقا على أن تكون المواجهة مصارعة بالأذرع، وهادريان هو الحكم بينهما..

كان ذلك تحت شجرتهم التي باتت معروفة بـ(شجرة القادة الثلاثة)؛ لكثرة ما يجلسون تحتها..

بدأ التحدي، وأخذت يداهما تهتزان في مكانهما، لا ترتدان يمينًا ولا شمالًا، حتى مضى على ذلك بعض الوقت، ثم أخذ العرق يتصبب منهما، والوجهان يطفو عليهما العزم وبسمة الثقة؛ ثقة إيتوس بنفسه التي من قبل، وثقة أركون التي راودته للتَّو حين رأى قوة بأسه، وتأخُّرَ نصر منافسه!

برزت عروق اليدين، واشتدت قبضتاها على بعضهما، وهادريان مُحدقٌ فيهما قد تركزت كل حواسه على تلك اليدين لا سواهما، ثم رأى يدَ إيتوس تتقدم مُثنيةً ذراع أركون بعض الشيء، فصرخ بحماس:

أحسنتَ يا إيتوس، أحسنت.. لم يبقَ إلا القليل..

ولما سمع الجنود هذه الصرخة العالية من هادريان، وبذلك النحو الذي لم يعهدوه منه أن يُجرد إيتوس من ألقابه، التفتوا إليهم، فرأوا النزال القائم تحت الشجرة، ولم تمهلهم أقدامهم طرفة عينٍ؛ فمضت بهم سِراعًا نحوها، وأخذوا يتداعون لحضور هذا النزال المثير، فوصل الخبر في لحظات معدودة إلى عددٍ كبيرٍ من جنود المخيم، وفي لحظاتٍ أقل كانت الشجرة مُكتظة بهم من كل جانبٍ، وهم يهتفون بحماسة شديدة باسم إيتوس الذي بدأت كفته بالرجحان! وما إن انتبه أركون لذلك حتى تسخَّطَ واستنكر هذا الانحياز لخصمه، فرفع كفه الأخرى لوجه إيتوس مُعطيًا إياه إشارة أن يتوقف، وامتثل إيتوس لذلك مستغربًا، فالتفت أركون إلى الجمع حوله وهو يقول بحنق:

هذا ظلم بيِّن! ما الفرق بيننا لتشجعوه؟ ألأنه ابن أخ القائد الأعلى، وحاكمكم الموعود؟! ما خِلتكم بهذا التفريق المشين بين الناس يا جنود تحرير ثيفا!!

فرانت على وجوه الجميع سحابة حرج من هذا التوبيخ اللاذع، واتفقوا في لحظة أن يُشجعَ المتنافسان معًا، فرضي أركونٌ بذلك، وعاد التنافس وسط ضحك هادريان وإيتوس الذي كاد أن يُوديه ضحكه إلى الهزيمة لولا أنه ثبَّت نفسه من جديد..

اشتدّت المنافسة بين القائدين، ووصل الضجيج إلى الخيم كلها فتطلعت منها الرؤوس، ورأت ذلك الازدحام، وسمعت بوضوح أصوات الهتاف للقائدين، غير أن أحدًا لم يفهم شيئًا مما يحدث.. ومن بينهم القائد الأعلى ألكساندروس.. فسار نحو الجمع حائرًا قلقًا ومن خلفه سولون، وما إن اخترقا الجمع الصارخ بحماس

وانتشاء بهذه التسلية غير المسبوقة، حتى رأى ذلك التحدي الذي لا يمزح، بوجهيهما المحمرين المتصببين عرقًا غزيرًا كحبات الجمان! وقد انمحت ابتسامة الثقة من ثغريهما، فاستحالت لِكَزٍّ قويٍّ على الأسنان، وعيناهما تُحملقان بشدة في أيدي بعضهما؛ قد سئم كل واحدٍ يده التي بدت له أنها خذلته!

وفي لحظة خاطفة تهاوت ذراع أركون كثيرًا، وكادت أن تسقط بالفعل مُعلنة هزيمة صاحبها لولا أن صرخ ألكساندروس غاضبًا:

ما الذي يجري هنا؟!!

ميَّزَ إيتوس الصوت؛ فارتعد قلبه وخفَّت يده، وبما أن أركون قد ركَّز كل تفكيره وحواسه على هدف الفوز فلم يسمع ما سمعه إيتوس، انتهز تلك الخِفة غالبًا بها يد خصمه.. ولم يكد يُدرك فوزه المفاجئ هذا حتى أغمض عينيه بقوة، رافعًا يديه وصوته معًا:

أجل أنا الأقوى، أنا الأقوى..

ولـمَّا لم يسمع هتافًا باسمه، استنكر هذا الظلم الجائر بعدم الاحتفال بانتصاره! ففتح عينيه حانقًا نحو الجمع الصامت، إلا أن جميع الوجوه كانت تنظر خلفه مُتوشحة رداء التفاجؤ والحرج معًا! ولم يكد يشاركهم النظر حتى وقعت عيناه على وجه ألكساندروس المُتلونِ غضبًا، فأُسْقِط في يده، ونسيَ فرحته بانتصاره الذي لم يشهده أحدٌ سواه..

صرخ القائد الأعلى في جنوده أن تفرقوا، فامتثلوا لأمره سريعًا دون جدال أو اعتذار، ولم تمضِ لحظة حتى خلت الساحة منهم.. فأخذ يقلب نظره بين الثلاثة الباقين بُرهة دون أن يفتح شفتيه بكلمة، إلا أنَّ ملامحه كانت كفيلة بإرعابهم، وأخيرًا هتف موبخًا:

يـا لحظـي بسـادة قـادتي كافـة! السـادة الـذين وضـعت فـيهم ثقتـي واعتمـادي، يجمعـون الجنـود لحضـور مبـارزة بلهـاء كهـذه، تـاركين شـؤون الـبلاد وتـدريبات المعركة القادمة خلفهم، دون مبالاة لما نحن مقبلون عليه!!

كان الثلاثة يستمعون إليه بإجلال، وحرج واضح، اختتم القائد توبيخه بـأمرهم أن يمضـوا معـه إلـى خيمتـه.. ومـا إن وصـلوا إليهـا حتـى أخـذ يُحـدق فـيهم بحنـق واسـتياء، وسـولون مـن خلفـه يكـتم ضـحكته علـى مظهـرهم، فخرجـت كابتسـامة مرتجفة..

وأخيرًا.. سأل ألكساندروس:

من الذي بدأ الشجار؟

أركون:

أنـا يا سيدي

ألكساندروس:

ولـمَ؟ ألا تدرك الوضع الذي نحن فيه؟!

أركون:

بلـى - ثـم أحنـى رأسـه يتصـنع النـدم - لكـن الأميـر اسـتفزني، وأخرجنـي عـن طوري!

شعر إيتوس بالغيظ، غير أنه اكتفى بالنظر إليه شزرًا وهمس:

أترفّع عن الرد عليك..

سمعه ألكساندروس، فزفر متضجرًا وهو يقول:

ألـم تكتفيا بعد؟!

ثم أطرق رأسه مفكرًا، ليعود بعدها ينظر إليهم وعلى شفتيه ابتسامةُ من خطرت في رأسه فكرة ماكرة؛ قال بصرامة ودون مقدمات:

آمركم بقطع الشجرة..

لم تُخفِ ملامحهم مفاجأتهم واستنكارهم!

ألكساندروس موضحًا:

إنها سبب البلبلة..

ردَّ أركون مباشرة وهو يضع كفه على صدره مُستعطفًا:

أوه مولاي ألكساندروس ليس للشجرة ذنب، فقد كانت لنا ظِلًّا ومُستراحًا، ومنبعًا لكل ما أدلينا به في انتصاراتنا الساحقة، أوَنجازيها بقطعها؟! إنَّك بأمرك هذا تأمرنا أن نقطع جزءًا من أرواحنا..

ألكساندروس متعجبًا:

ألهذه الدرجة؟! شعرت لوهلة وكأنك تحدثني عن صديق عزيز.. إنَّها شجرة صماء يا أركون!!

تولى إيتوس حينئذٍ الحديث:

بل هي أكثر من صديق عزيز - ثم أشار بيده إلى هادريان - فلم يأوِ هادريان المسكين سواها، كانت مأواه حين خلت حياته من الزوج والولد.. فهل يكون الجزاء أن يقوم بقطعها؟! مسكينٌ هادريان، سيعاني بعدها..

نظر هادريان إلى إيتوس معترضًا دوره المسرحي الهزيل الذي اُختير له، غير أنَّه لم يصمت، وقرر ردَّ الصاع بصاعين، فأكمل الأداء القائم بنبرة تراجيدية مُتقنة:

هذا صحيح، كما أنَّها مأوى القائدين كلما طُردا من خيمتيهما؛ يا لَحسرتي عليها، شجرة وفية لا تستحق هذا الحكم!

لم يتمالك سولون حينها ضحكته، فخرجت مرتفعة، ومع أن ألكساندروس أظهر تماسكًا للهيبة، إلا أنَّه لم يستطع كبح ابتسامته، ثم أصدر أمره بأن يتولوا صيد هذا اليوم وحدهم.. على أن يكون صيدًا كافيًا لكل المخيم؛ وإلا فهو قطعُ الشجرة.. فخرجوا من عنده محبطين يائسين؛ لا يشكُّون أن آخر عمرها هو المساء!

ولم تكد خطواتهم تجتاز بداية الغابة المجاورة للمخيم حتى داعب هواؤها العليل وجوههم، وراقص نسيمه المحمل بعبق الأزهار والرياحين أنوفهم، وتهادت لآذانهم زقزقة العصافير الملونة، وهديل الحمامات، وضغيب الأرانب البرية، وسليل الغزلان المتقافزة من بعيد؛ فانتشت أرواحهم، وامتلأت أجوافهم باللذة والنشاط، وراحوا يسارعون الخطى متغلغلين بين أشجار الغابة، يتقدمهم إيتوس لممارسة أحب هواياته التي قطعته عنها معارك ثيفا، وكان أول صيده أرنبين، وصيد هادريان إوزَّة، أما أركون فشغله التهكم على صيد صاحبيه عن قنص فرائسه، وراح يستفزهما:

أرنباك يا مولاي لا يكفيان سوى جندي أو جنديين! انظر إلى صغر حجمهما، للتَّو خرجا من المهد!

ثم التفت لإوزَّة هادريان، فضرب كفه على وجهه وهو يضحك ممعنًا في انتقاص صيده، وأردف:

ليتك أوكلت إليَّ مهمة الصيد، وأَرَحت رأسك تحت الشجرة - ثم مدَّ كفه مشيرًا إلى الإوزَّة - فهذه لن تشبع حتى أنحل الجنود جسدًا..

حاولا تهميشه وتغافله، إلا أنَّه استمر على نهجه حتى زجره إيتوس موبخًا، آمرًا إياه أن يقوم مقامه، فانصاع أركون لأمره بصمت، وجلس إيتوس مستندًا على

شجرة قريبة يرقب صاحبيه و ما تزال سيما غضبه بين حاجبيه، استمر صاحباه في الصيد الذي كان معظمه من الأرانب، غير أن أركون كان يشيد كل مرة بمواصفات صيده الخِلقية الجميلة، ولا يشير إلى صيد هادريان إلا بصغر حجمها وضعف جدواها في الإيفاء بغرض مهمتهم بالرغم من أنها تُماثلُ صيده، لكن هادريان لم يلقِ له بالًا، حتى يئس أركون أخيرًا معترفًا بضعف جدوى صيده أيضًا، كان مشهدهما كفيلًا لأن يُسلي إيتوس ويُسكت عنه الغضب، فنهض من مكانه يهتف بصاحبيه أن يتوقفا، فالطرائد أصغر بكثير من أن تفي أهل المخيم.. والأمر يحتاج إلى عدة أيام لجمع ما يكفي منها!

هادريان وهو يجلس على الأرض:

وما الذي تقترحه يا مولاي؟

جلس إيتوس تجاهه:

سمعت سليل غزلان عندما ولجنا الغابة، وأظن عددها كبيرًا - ثم خاطب أركون متبسمًا - ألا ترى أني محق أيها المتهكم؟ فحجم الغزال أكبر، غير أن طعم لحمه ألذ وأطيب من هذه الأرانب..

كان أركون حينها يجمع الطرائد ويضعها في السلال، فخرجت من صدره زفرة عميقة بائسة، ثم افترت شفتاه عن بسمة ساخرة وهو يجيب دون أن ينظر إلى إيتوس:

وما أدراني بمذاقه يا مولاي؟! ففي الوقت الذي كنتَ تأكل فيه لحم الغزلان، كنا نقتات فيه على كِسر الخبز اليابس..

أصابت كلماته قلب إيتوس الرقيق فتفطَّر، وانمحت ابتسامته، شعر كأنَّها أنينٌ حانقٌ خجول! أو بقايا ذكريات محرقة أبت أن تغادر قلوب أصحابها على الرغم

من مرور الزمن.. أدرك هادريان ما أصاب إيتوس، لكنه لم يستطع عتاب أركون فقد شعر بعطفٍ شديدٍ تجاهه، غير أنَّه حاول تغيير مجرى الحديث حين راح يحثهما على النهوض لإكمال المهمة مُظهرًا حماسه ونشاطه، فاستجابا له يُماثلانه ما أظهر، مُخفيين ما احتل قلبيهما من أوجاع وأحزان..

مشوا في الغابة وقتًا طويلًا دون أن تقع أعينهم على شيء يرضونه، كان التململ يتسلل إلى أرواحهم مُخلفًا وراءه يأسًا وتضجرًا حتى قطعوا الغابة ووصلوا إلى حافتها الثانية، فرأوا الشمس تنسلُّ بخجلٍ نحو مخدعها الغربي، مُعلنة انتهاء مهمتها لهذا اليوم! ليُعلن أركون حينئذٍ استسلامه، فلم يعترضه أحد، ولم تكد خطواتهم تهمُّ بالمغادرة حتى بلغ آذانهم صوت غريب، تزداد قوته شيئًا فشيئًا! نظروا إلى بعضهم من غير شعور، هادريان:

إن لم يخب ظني.. فهو قطيع - ثم توسعت عيناه مُبتهجًا - قطيع من الثيران قادم نحونا!

صرخ أركون:

يا للبشرى! فليرتقِ كل منا شجرة وليرينا مهارته في الصيد..

ثم اتجه مسرعًا نحو شجرة مرتفعة ليتسلقها، وصعد إيتوس وهادريان أيضًا والبِشر والحماسة تملآن وجهيهما..

اقترب القطيع من المكان، وكان ظنُّ هادريان في مكانه، فزادت بهجتهم حين أدركوا نجاح المهمة التي استيأسوا منها! أمسك كل واحد قوسه وتناول سهامه، وراح يطلقها دون أن يضيع وقته في معرفة ما خلَّفه كل سهم وكأنه في سباق مع سرعة مرور القطيع.. أثناء أداء إيتوس لمهمته لمح جسدًا غريبًا ينسلُّ من بعيد، من

جهة قدوم القطيع عائدًا نحو الغابة! ظل ينظر لأثره.. ولم يُفقهُ سوى صراخ أركـون حين استحثَّه على معاودة الصيد..

كـان صـيدهم الثمـين بمثابـة معجـزة لـم تمـر مـرورًا عاديًـا علـى القائـد الأعلـى ونائبه، كانت مفاجأة عظيمة لهما! بل كانـت بمثابـة إشـعار لجـيش الـبلاد الخضـراء بعِظَم قادتهم الثلاثة، القادة الذين منحـوهم تسـلية غيـر مسـبوقة صـباح اليـوم تحـت الشجرة، وها هم يمنحونهم عشاءً فريدًا دسمًا في المساء! وبعد المأدبـة راح الجنـود يتداعون لحضور المجلس الذي يتصدره أركون واقفًا أمام جنوده، يحكي لهم عـن رحلتهم، ويخبرهم بمدى ذكائه حين قاد صاحبيه إلى مكـان مـرور القطيـع! وكيـف استطاع حصد أغلب الطرائد بفضل مهارته وسـرعته ودقتـه في التصـويب! كـان بـين لحظـة وأخـرى يسـترق نظـرة نحـو صـديقيه الجالسـين قريبًـا منـه مسـتندين إلـى شجرتهم، لم يستغرب تغافـل هادريـان لحكايتـه التـي لا تمـت إلـى الحقيقـة بصـلة، لكنه كان يؤمل أن ينجح في إثارة غضب إيتوس فيـدخل معـه في شـجار جديـد يحبـه ويأنس به، بيدَ أنَّ ظنه خاب هذه المرة فلم يُبدِ إيتوس أي بـوادر ينتشـي لهـا أركـون، بل ظل يستمع إليه متبسـمًا لمتعـة الحكايـة، معلنًـا عجـزه عـن مجابهتـه، ثـم التفـت لهادريان وقال:

لـم أصادف في حياتي كلها ماكرًا مثل أركون، انظر إليه كيف يستطيع جعل ما لـم يحدث حقيقة كائنة لا تحتمل التكـذيب! إنَّـه يفعـل ذلـك بثقـة لا يشـوبها مـا يشـوب المنتحِلين، حتى إنَّني لأشعر بتصديقه في كل ما قال!

ثم ضحك وأردف: أعلن استسلامي أخيرًا عن مواجهته..

ضحك هادريان، ثم نهض إيتوس باحثًا عن شيءٍ يشغله منذ اصطياد القطيع..

توجه إلى خيمة أسخيلوس فأخبروه أنَّه في الإصطبل يعالج خيله الجريح، اتجه إيتوس نحوه، وحين انتبه له أسخيلوس نهض متفاجئًا وهو يقول:

لو دعوتني يا مولاي لجئتُ إليك..

إيتوس:

لا عليك يا عزيزي..

ثم راح يمرر يده على جسد الخيل وهو يقول:

كانت مجازفة منك أن تقود به الثيران!

لم تسع الدهشة وجه أسخيلوس وهو يسأل:

وكيف عرفتَ يا مولاي؟!

تبسَّم إيتوس وهو يتفقد جروح الخيل:

ولمن سيكون ظِلَّ ذلك الجسد الضخم إن لم يكن لجسدك؟

توردت وجنتا أسخيلوس خجلًا وهو يتبسم، ثم أجاب:

كنتُ قريبًا من النهر الواقع شرق البلاد هذا الصباح لقضاء بعض أعمالي؛ فرأيت القطيع حوله، وحين علمتُ بأمر القائد الأعلى لكم وأيقنتُ صعوبة المهمة جال في خاطري قيادة القطيع نحو الغابة..

إيتوس:

كيف استطعتَ ذلك؟ وهل ساعدك أحد؟

أسخيلوس وهو يشعر بالسعادة حين قرأ الرضى على وجه أميره الباسم:

لا عليك يا مولاي، أخشى أن تعكِّر عليك التفاصيل متعة إنجازك..

إيتوس بنظرة مُشفقة:

عزيزي أسخيلوس، أعلمُ أنها كانت مهمةً صعبة - ثم عاد ينظر إلى جسد الخيل الجريح - لكن إياك أن تعود لمثلها، لن أسامحك حينها أبدًا.. هل تفهم؟

أسبل أسخيلوس عينيه بإجلال:

أمرك مولاي..

صمت إيتوس لحظة تبدَّلت فيها ملامحه الباسمة إلى الأسى، ثم أردف يبثُّ شكواه:

أتعلمُ يا أسخيلوس، لقد قال لي أركون كلامًا تمنيت أني متُّ قبل أن أسمعه، لقد أدمى به قلبي..

صمت هنيهة قبل أن يلتفت إلى أسخيلوس متغضِّن الوجه، وأردف بصوت محزون:

كان ذلك حين سألته مُتبخترًا عن لحم الغزال، فأجاب أنَّه لم يذق قبلُ غير كِسرِ الخبز اليابس! لا أعلمُ لمَ حملت لي كلماته حينها منظر الجائعين في ميدان ثيفا، وأبرزت لي عن كثب أجساد المحتضرين في أقفاص الميدان - ثم ارتجفت نبرته - يا وجع قلبي يا أسخيلوس، لم أشعر أنَّها مجرد كلمات، بل شعرتُ أنَّها طعنات خنجر توالت على فؤادي من دون رحمة!

سارع بعدها ينظر إلى السماء كي لا يرى أسخيلوس ترقرق عينيه، غير أن صوته فضح بكاء قلبه حين أكمل:

ما أبأس الإنسان حين يكتشفُ أنَّه كان سببًا لشقاء غيره وهو لا يدري!

ربَّت أسخيلوس على كتف أميره مُواسيًا، ثم أطرق رأسه بملامح باهتة؛ ليرفعه بعدها وهو يقول:

إن كنت تشعر بكل هذا مع أنَّك كنتَ تجهل الحقيقة، فما حيلة الأعذار فيمن كان يعلم؟!

وقبل أن يجد إيتوس جوابًا، ارتفعت من صدر صاحبه تنهيدة تعمَّقت في الندم والألم، ثم أردف بنبرة كسيرة:

بل يا وجع قلبي أنا يا مولاي، يا حسرتي على ما كان مني..

وراح يتوعد في محاولةٍ بائسةٍ لإرضاء ضميره:

أقسمُ إني لن أرتاح حتى أرى الظلم الذي كنتُ سنده يومًا ينقشع عن سماء ثيفا ولو كلفني ذلك حياتي.. ولو كلفني ذلك حياتي..

لم يتمالك إيتوس إلا أن ربَّت بيده على كتف صاحبه وهو يواسيه ببسمة واهنة ويقول:

ستنتصر ثيفا، ستنتصر..

ثم انصرف عنه بعد أن أتاه شاكيًا وجع قلبه، ليرحل عنه حاملًا وجع قلبين!

الفصل التاسع عشر

تحريرُ ثيفا

بعد مدة من تلك الحادثة، سقطت جميع المدن التي تحفُّ العاصمة، ولـم يبـقَ لألكساندروس حِصنٌ منيعٌ يجتاحه سوى العاصمة، فخيَّم هو وجنوده حولها عـدة أيامٍ؛ استعدادًا لتلقي الإشارة لاقتحامها!

وفي إحدى الليالي الحالكة، بعث ألكساندروس إلى قادته الخمسة المتواجدين معه في حصار عاصمة ثيفا أن يحضروا إليه حالًا.. ولما أخـذوا مجلسـهم، أخـبرهم بـأن الإشـارة قـد وصـلت، وأن الموعـد هـو قُبيـل الفجـر، فـابتهج القـادة، ولمعـت أعينهم شوقًا إلى النصر، غير قائدٍ واحدٍ، لم يكد يسمع الخبر حتى رانت على عينيه لمحة حزنٍ ثقيلة، فأطرق وجهًا أسيفًا كسيرًا إلى الأرض، وتنهَّـد بعمـق كأنَّـه مُقبـل على موقفٍ لطالما كرهه وتمنى ألا يشهده!

لـم يلحظ ذلك سوى القائد الأعلى ألكساندروس، ولولا أنَّـه كـان عمـه وأقـرب الناس إليه، لأوعز حزنه إلى الخيانة! ولكنه يعلـم أنَّهـا عاطفـة فطرهـا الـربُّ في كـل قلبٍ، وليس بيد أحد أن يغلبها أو يمحوها.. فاجتاحت قلبه رأفة شديدة بـه، ثـم أذن لهم بالانصراف، فانصرفوا، ومضـى إيتـوس شـارد الـذهن كاسِـف الملامـح، مشـى مسـافة طويلـة، حتـى إذا مـا ابتعـد عـن المكـان، وخفتـت عنـه الأصـوات، فـاق مـن شروده ورفع رأسه، فلم يرَ إلا أرضًا خالية ممتـدة تنتـهي بسـور العاصمـة الـمشـيد،

كان آخر ما رأى جدران هذا السور حين فرَّ من السجن مع أوتو وبعض الجنود، ولم يكد يتأمله بعض الشيء حتى لاحت جدران القصر أمامه، القصر الذي نشأ فيه وترعرع، وعاش فيه طفولته وشبابه أرغد وأطيب ما يكونان من العيش، ولم يكد يصل إلى هذه الذكريات حتى تبدت له ملامح ذلك الوجه الذي شمِله بعظيمِ حُبِّه، وأغدق عليه حنانه ولطفه منذُ عرف الدنيا، ذلك الوجه الذي ما كشَّر فيه يومًا ولا عنَّفَه؛ بل طالما احتواه بشدة اهتمامه حتى عاش كمن يعيش بِكَنف أمه وأبيه معًا، فقد كان له تلك الأم التي فقدها وهو رضيع؛ بجانب أُبُوته، وفجأة.. تهادى لأذنيه صوت والده وهو يناديه دومًا بـ(إيتوسَ قلبي) فتسللت إلى حلقه غُصَّة رهيبة آلمته، وترقرقت عيناه بالدموع، ثم فاضت وانسكبت بغزارة وحرارة لفحت وجنتيه، ثم فتح شفتيه، وهمس بصوت باكٍ مرتعش:

لِمَ يا أبي؟ لِمَ اخترت هذه الحياة وهذا المسلك الغليظ مع شعبك حتى هذه اللحظة؟ ألم يكن الأجدر بك لو مِلتَ إلى موقف عمِّي واسْتَطبته؟! لو فعلتَ لكان حالُك اليوم أعزَّ وأجمل، ولكنك آثرتَ شيشرون والشيطان على صوت الخير الذي بداخلك.. واآآآحسرتي عليكَ يا والدي أني سأشهد غدًا مقتلك، وأيُّ مقتلٍ هو هذا الذي سأُلحقه بك! يا ليتني آثرتُ الموت في السجن ولم أفرَّ منه! يا لي من أحمق.. لِم فررتُ منه؟ لمَ؟!!

ثم خارت قواه، ولم تعد لركبتيه القوة لحمله، فجثا على الأرض، ثم أحاط رأسه بيديه، وأخذ ينشج وينتحب على نحو تنفطر له القلوب..

وبينما هو كذلك، إذ حوَّطت به ذراعان، وجذبته بحنان إلى صدر صاحبها وهو يهمسُ له بصوتٍ عطوف مُشفق:

مولاي الحبيب، يكفي أرجوك، فقد حمَّلت قلبك من الآلام ما يعجزُ عن حمله أرسى الجبال..

مسح إيتوس دموعه، وتبسم بحسرة، ثم قال:

لو كنتَ مكاني يا هادريان ما لُمتني، ولكني أتجرع قسوةَ موقف لم يسبِق لأحدٍ من أهل الأرض تجرُّعُها!

فشدَّه هادريان أكثر دون أن يجد ما يقوله هذه المرة غير الأزيز الذي سمعه إيتوس ينبعث من صدره، فرفع عينيه إلى وجه صاحبه؛ وإذا بالقوة التي عُرفت عنه تنهار ببكاءٍ صامت! لما رأى إيتوس ذلك هدأ، هدأ إلى الحدِّ الذي انمحت فيه رغبته بالبكاء، لا يعلمُ لمَ اجتاح قلبه ذلك الهدوء الغريب! غير أنه شعر أن المواساة بالبكاء، هي أعظم أنواع المواساة وأصدقها على الإطلاق...

كان أركون حينها يرقبهما من بعيد، ولما عاد إيتوس إلى خيمته عند عمِّه، والتقى هو بهادريان، بادره:

ألا يُمكن أن يكون أقوى قلبًا ولو لغدٍ فقط؟!

هادريان باستنكار:

ما هذه اللهجة يا أركون؟! أراك تقسو عليه!

تنهد أركون، ثم أجاب:

لستُ قاسيًا بل مُنصفًا، فكيف لجيشٍ أحدُ قادته هو هذا البكَّاء أن ينتصر؟!

تمعَّر وجه هادريان غيظًا وهو يقول:

أتعلمُ من تقصد بكلامك؟ إنَّه سيِّدك اليوم، وسيِّدك أبد الدهر..

ارتفعت نبرة أركون وهو يرد:

ما أنكرتُ ذلك يا هادريان لتُذكرني به الآن! وإن كنتَ لا تعلم فأنا أحبه كما تُحبه أنت، وأنا مثلك.. أعمل المستحيل لنصل بإيتوس إلى حكم البلاد، ولكن ليس إلى حدِّ التعاطف مع أعدائنا، فهذا لا يُطاق أبدًا ولا يُنبئ بخير!

لاحت على شفتي هادريان ابتسامة جافة يلُفها الحزن، ثم أجاب:

أتعلمُ من هو عدوه الذي تنقِمُ عليه ألمه من ملاقاته غدًا؟ ألا تعلم أنَّه والده؟ قُل لي يا أركون.. لو عشتَ عمرك في أحضان والدٍ يحبك إلى حدَّ الجنون، ويخافُ عليك حتى من الشوكة أن تصيبك، عشت حياتك معه في ألطاف، وجمال؛ بين النعيم، والاحترام، والمكرمات.. ثم وجدت نفسكَ فجأة في مواجهته! مواجهة تُحتِّمُ عليك قتله؛ لتُرضي الخير الذي تؤمنُ به في داخلك، ألن يُصيبكَ ما أصَابه؟

استحالت ملامح أركون الغاضبة إلى الانكسار، فأطرق وجهه إلى الأرض، بقيَ برهة من الزمن قبل أن يرفعه؛ لترتفع من صدره زفرة عميقة ملؤها الأسى، والعجز، وعيناه تلمعان ندمًا.. ثم استدار عن هادريان، ومضى بخطوات ثقيلة نحو مضجعه دون أن يرد بشيء..

وعند الساعة الموعودة، كان الجيش مستعدًا للحظة التي تُفتح فيها أبواب المدينة من قِبل الجنود الذين أخفوا أمر ولائهم لألكساندروس، كان إيتوس حينها يمرُّ بين الصفوف ليُشعل في النفوس الحماسة لخوضِ هذا الغمار الأخير من معركة تحرير ثيفا، يرى الجميع في وجهه البِشر والتحرق لفتح آخرِ معاقل كاليجولا ما عدا الثلاثةَ المقربين منه؛ فقد كانوا يسمعون مع كلماته الرنانة القوية نبضاتِ

قلبٍ حزين.. فلم يجرؤ أحد على مشاركته ما يقوم به، فتصَدَّر المشهد وحده كقائد جسور قادر على أخذ جنوده نحو النصر مواريًا عنهم قلبه الباكي!

انفتحت أبواب المدينة، وتدفَّقَ الجنود نحوها على حينِ غفلةٍ من أهلها، فمضوا يصرخون بالظَّفرِ كسَيلٍ هادر ضجَّت له مداخل المدينة، ولم يطُلِ الوقت حتى صاروا في وسطها بعد أنً سهُل عليهم قتل جنود كاليجولا الذين يحرسون السور، ففاق الناس على هذه الصرخات والنداءات بعزِّ ألكساندروس! ولما أدرك الشعب البائس أنَّه قد نالهم أخيرًا ما ناله أهل المدن الأخرى؛ سَعُدت أرواحهم وحلَّقت فرحًا، وأخذوا يشاركون الجنود صيحات العزِّ للقائد العظيم..

ولما أدرك ألكساندروس أنَّ الموقف في ميادين العاصمة وأحيائها في صالح جنوده، كلَّف القائدين أسخيلوس وكاسكا، بالإضافة إلى مستشاره سولون بتولي القيادة فيها، ثم أوعز إلى قادته الملثمين إيتوس وهادريان وأركون أن يتجهوا معه نحو قصر الحكم..

وصل خبر اقتحام العاصمة إلى كاليجولا ومن معه، جُنَّت عقولهم، وارتعبت قلوبهم أيَّما ارتعاب، استدرك كاليجولا حينها ليصرخ بصوتٍ متقطع مبحوح، وعينين جاحظتين زائغتين أن انطلقوا إلى مخبأ الهروب الذي كان قد أعدَّه لمثل هذه اللحظة!

وحين وصل ألكساندروس وجنوده إلى القصر، لم تستقبلهم سوى أبوابٍ مُشرعة، وغُرفٍ خالية، فبدا كقصرٍ مُعطَّلٍ خاوٍ لا حياة فيه!!

أوغل بعض جنود ألكساندروس في داخله، ولم يلبثوا قليلًا حتى عادوا إليه مؤكدين عدم وجود أحد فيه!

بقـيَ الجمـع يتأمـل بعضـهم قلـيلًا غيـر مسـتوعبين، وأخيـرًا اتسـعت عينـا ألكساندروس استدراكًا وهو يقول:

هربوا.. لقد هربوا!

أركون بغضب وإحباط من فوات الحظ:

اللعنة!

ثم رفع كفيه إلى وجهه وصرخ فيهما:

قضيتُ عمري كلَّه وأنا أحلم بالفتكِ بكاليجولا بيديَّ هاتين، والآن يفرُّ مني؟!

ألا سحقًا له من جبان!

ألكساندروس:

لا أظنهم ابتعدوا، يجب أن ننتشر الآن للبحث عنهم..

ولم يكد يمتثل الجنود لأمره حتى صاح هادريان:

كلَّا، انتظروا.. لا أظنهم فروا إلا إلى قبو التعذيب، ففيه نفق سرِّي يؤدي إلى خارج العاصمة.

انطلقوا جميعًا نحو القبو، فدخلوا الردهة الطويلة أولًا؛ حيث المكتبة، والغرف القديمة التي بناها ألكساندروس (الأب الجد) مُلحقًا للقصر، فعرفها ألكساندروس؛ إذ نشأ فيها، فتسلَّل إلى قلبه ألم الحنين للماضي الجميل؛ حيث حُكْمُ والده، ووِزَارةُ طانيوس، وأيامُ العدل والرخاء قبل أن يُطرد من بلاد والده، لكنه قاوم كل تلك المشاعر أن تظهر، وأمعن في ولُوج القبو خلف هادريان وإيتوس؛ وقد بدا للجميع أنه يعرف القبو أيضًا!

ولم يكادوا يصلون إليه حتى باشرت أعينهم الأقفاص، كانت ملأى ومُكدَّسة بالبشر للحدِّ الذي يُثير الرعب والفزع،

ألكساندروس بنبرة مدهوشة مضطربة:

ما هذا؟ من هؤلاء؟!

أشاح إيتوس وجهًا يفيضُ بالقهر والحزن معًا وهو يشدُّ قبضة يديه، ولم يُجب..

هادريان بألم:

هؤلاء من يُعدُّون لتسلية إمبراطورهم - ثم وهو ينقل عينيه بين تلك الزنازين - يبدو لي من عددهم الهائل أن حال كاليجولا هذه الأيام أشدُّ بؤسًا من أيِّ يوم مضى؛ ليستهلكَ منهم أعدادًا وافرة كل يوم!

ثم كزَّ على أسنانه بحُرقة، وعيناه تلمعان أسى حين اتجهت أعين الذابلة أجسادهم، العاجزة أقدامهم عن حملهم إلى القضبان بتوسلٍ ليُفرجوا عنهم، فأغمض عينيه بقوة وصرخ:

لنُسرع يا مولاي..

الفصل الأخير

حلمُ إيتوس

وصلوا إلى باب القاعة الواسعة التي يتلقى فيها المسجونون طُرق الموت المرعبة على منصتها؛ لتسلية حاكمهم، وما إن ولجوها حتى رأوا جنود الإمبراطور يُحاولون كسر باب النفق السرِّي الذي يبدو أنَّه قد سُدَّ بفَعلة فاعل!

فصرخ شيشرون حين أدرك فوات فرارهم:

اللعنة عليكم أيُّها الأوغاد!

فانقضَّ القائد الأعلى وجنوده عليهم، كان في الواجهة شيشرون، وبوروس، ومائتا جندي، أما كاليجولا فقد توجَّه مباشرة مع ثلاثين من جنوده نحو المنصة في آخر القاعة، ثم طوَّقوه مُعلنين حمايته والوفاء له إلى النهاية، أو ربما لِيأسهم من أن يُقبل استسلامهم الآن!

ولم يكد شيشرون ينتبه لذلك حتى قذف كل أحقاده الخفيَّة من قلبه، فخرجت بنبرةٍ عالية مُرعبة:

تريد النجاة يا كاليجولا؟! سأجعل نهايتي الشريفة قتلك قبل مقتلي..

ثم اتَّجه مُسرعًا وعيناه على القابع فوق المنصة لا غير، ولم يكد يصل إليها حتى حال بينهما فارسٌ ذو لثام أحمر وهو يهتف:

بل مقتلكَ أنت قبل أيَّ أحدٍ هنا أيها القذر..

فصرخ شيشرون:

الملثمُ الأحمر؟! الويلُ لك أيها الخائن الحقير! ما زلتَ تُوقع بنا الخسائر يا سليلَ الأنذال! أقسم إني سأجعل هذا اليوم يومك الأخير، يومًا أحمرَ بدمائك، كلَونِ لثامك المهترئ هذا..

ثم أسرع نحوه مُستلًّا سيفه، وتواجها بقوة، كان شيشرون ماهرًا في القتال، عنيدًا في المبارزة على الرغم من شيخوخته؛ فطال بينهما النزال، في الوقت ذاته كان هناك نزال آخر بين هادريان وبوروس، أما ألكساندروس وأركون.. فاشتبكا وجنودهما مع جنود كاليجولا الذي كان يرْقُبُ ذلك كله برُكبَتين تنتفضان، ووجهٍ شاحبٍ جاحظ العينين، وخنجره بين يديه، يكادُ يسقط من ارتعاشهما الشديد!

وفي أثناء قتال شيشرون والملثم الأحمر، حدَّقت عينا شيشرون في عيني خصمه البُنِّيتين؛ فتَأَتَا حين عرفه، وفغر فاه صارخًا باضطراب وفزع:

أنتَ إيتوس؟ إيتوس هو.. الملثمُ.. الأحمر؟!!

إيتوس:

هو ذا يا شيشرون، ولأُقلدَنَّك الآن وسام الشرف بأن تكون آخر قتلاي.

فلما سمع شيشرون ذلك زاد حنَقَه، واحمرَّ وجهه، وانقضَّ على خصمه بقوة لم تكن فيه من قبلُ حتى قارب أن يغلبه، وإيتوس يُحاول تفادي ضرباته وقد أدرك تضاعف قوة عدوِّه.. لكن ومن غير شعور؛ صارَ يُبارز شيشرون وهو لا يرى في وجهه الشرس إلا وجوه الشاحبين خلف القضبان.. ولا يسمع في صيحاته المتوعدة إلا أنَّات المعذبين! فلم يزده ذلك إلا إصرارًا على قتله، وفي لحظة خاطفة ضرب كتِفَ شيشرون بسيفه فسقط الأخير على الأرض، وطار سلاحه بعيدًا عنه، فجحظت عيناه في رُعبٍ وهو ينظر إلى سيف إيتوس، وراح يتوسل إليه:

مولاي ولي العهد، فليسعني صفحُك، أتعهدُ أن أعمل على إكرام الشعب ما حييت.. أتعهدُ أن أعمل على إكرام الشعب ما حييت.

إيتوس بغيظ واحتقار:

الآن يا شيشرون؟! كلا.. فالشعب لا يحتاج لعجوزٍ مثلك، وقد سئِمَت الحياة طول عمرك، لأخلصنها الآن من عفن روحك الذي أنتنَ جمالها..

ثم ضربه ضربة الموت، وانتهى أمر شيشرون بعد صرخة ملأت القاعة كلها.. ومن الغريب أن توازت صرخته تلك مع سقوط رأس بوروس وتدحرجه تحت أقدام جنوده، وما إن رأى الجنود المَشهدين حتى ذابت قلوبهم يأسًا، وخارت قواهم، فتمكن ألكساندروس وجنوده منهم وأوشكوا أن يغلبوهم، ولـمَّا اطمأنَّ أركون لذلك، اعتلى المنصَّة؛ ليُلبي رغبةً لا تزالُ تلحُّ في قلبه منذ زمن طويل، فنادى ببعض جنوده لِلَّحاق به، وعرف إيتوس أنَّه يقصد والده فلحق به مُسرعًا، أخذ أركون يفتِكُ بمن يقف حائلًا بينه وبين كاليجولا وتولَّى بقيةُ جنوده أمرَ الآخرين، فلاحت له الفرصة أخيرًا، وخلَتِ الساحة بينه وبين كاليجولا الذي شُغل عنه جنوده بأنفسهم، ولم يكد يرى كاليجولا ذلك حتى صاح بنصف عقل:

اقترب أيها الوغد وسوف أُريك.. اقترب وسوف أُريك.

ضحك أركون بسخرية، ثم أسرع إليه بتعطشٍ وابتهاجٍ لتحقيق أمنية حياته بقتل إمبراطور ثيفا الظالم! وخفَّت قدماه نحوه وهو يقول بأعلى صوته:

بل أنا الذي سأريك، وسأشفي غليلي منك يا كاليجولا.

ورفع سيفه عاليًا ليهوي به على رأس كاليجولا الذي خانته قواه فلم يُبدِ دفاعًا، بل ظلَّ جسده ينتفض وهو يُحملق في سيف أركون الذي قارب أن يفلق رأسه، ثم أغمض عينيه أخيرًا مُستسلمًا لنهايته الشنيعة، وإذا به يسمع صرخةً قويةً:

توقف يا أركون، توقف..

فتح الإمبراطور عينيه؛ فإذا بالملثمِ الأحمر قائمًا أمامه، مُشرعًا ذراعيه في الهواء وصدره تجاه أركون، هذا الملثمُ الذي أقضَّ مضجعه، ونكَّل بجنوده، وأسقط حُكمه، يقف أمامه الآن مُديرًا له ظهره، وهو أعزل تمامًا!!

وما إن استوعب كاليجولا الموقف حتى أيقَنَ أنَّها فرصة لم تجُل حتى بأحلامه! فكشَّر عن أسنانه بحقد، وفارت روحه المتوحشة في جسده، شدَّ يده على خنجره، ثم رفعه طاعنًا به ظهر خصمه!

فصرخ إيتوس حين أدرك هذه الغدرة التي لم ينتبه لِحَتْمِيَّة وقوعِها حين أعطى ظهره لعدوِّه! وصرخ معه أركون، ولم تكد الصرختان تصلان إلى أذني كاليجولا حتى انتشى بنصره، فسحبَ الخِنجر؛ ليوغله ثانية بقوة أكبر مخترقًا قفص إيتوس الصدري، فانفجر الدم من الجهتين، وعلَت حينها شهقةٌ رهيبةٌ من صدر إيتوس، حاول الالتفات بصعوبة بالغة إلى والده، ثم ناداه:

و.. والـ.. دي..

فتحولت عينا كاليجولا الضاحكتان إلى اتساع جافٍّ مذهول! أمعن النظر في وجه المُلتفت إليه، فرأى عينه بوضوح، تلك العين التي طالما تعلقَ بها، وتغزل بجمالها! فتح شفتيه المرتعشتين وهو يقول:

إيـ.. توس؟!

حلمُ إيتوس

انهار إيتوس أخيرًا عاجزًا عن حمل نفسه، فتلقَّفه والـده بذراعيـه وصـدره وجثـا معه، فاستقر ابنه في حِجره، كان وجهه الملثم في مقابلة وجه والده، فرفع الأخير يده التي كانت تنتفض بشدة إلى وجه ابنه، أماطَ لثامه، فرأى الملامح التي لم يرهـا منـذ عامين، تلك الملامح التي كانت له السعادة بأسرها حين كان يُطالعها كلَّ حين، ثـم اسودَّت الدنيا كالِحةً مُقفرةً بعد أن غابت عنه، ها هي الآن تعودُ إليه؛ ليراها مجددًا، ولكن بتقاسيم ذابلة مُضرَّجة بالدماء، كان إيتوس ينظر كذلك إلى وجه والـده، فـرآه شـاحبًا نحـيلًا قـد بـرزت فيـه عظـام وجنتيـه، وعلـمَ أيَّ حيـاة عاشـها والـده لتُحيـل ملامحه النَّضرة إلى ملامح الأشباح هذه.. فرقَّ لـه قلبـه، وحـاول أن يقـول شـيئًا إلا أنَّه لم يستطع، ربما لعِظَم جرحه، وربمـا لِتفَتُّتِ فـؤاده لمنظـر والـده، فبقـي يُطالعـه بنظراتٍ تفيض بالأسى، واللوم، لفَّ الإمبراطور حينها شعور مفـاجئ بالـذنب كأنَّـه قد أدرك حقيقة ما تعنيه نظرات ابنه الصامتة! ولـم يملـك إلا أن يفـتح شـفتيه بنـبرة دامعة:

لِـم يـا إيتـوس؟ لـمَ أعطيتنـي ظهـرك؟ ألـم يـدُر بخلـدك أن أقتلـك وأنـا لا أعلـمُ حقيقتك؟!

ثم تأوَّه، وفاضت عيناه بالدموع، رفع إيتوس حينها يدهُ ببُطء، وثبَّتها فـوق خـدِّ والده، وما إن لمسه حتى تبسَّم بوَهن، ثم قال بإنهاك:

لا بأس عليك.. يا والدي.. فقد افتديتُك..

كاليجولا ودموعه تُبلل قميص إيتوس:

افتديتني؟! يا لِقلبكَ الذي أبى أن يَصْلُب! أما كان مـن الخيـر أن يعـيش شـبابُكَ الزَّاهر، وتفنى شيخوختي؟ لِم فعلتَ ذلك؟! لِم يا إيتوسَ قلبي؟!

لم يكد يسمعها إيتوس حتى بانت نواجذه ببسمة مبتهجة، فرفع رأسه إلى الأعلى وهتف:

أركون..

كان أركون حينها بجانبه، جاثيًا على ركبتيه باكيًا بمرارة، فلم يستطع أن يُجيب، لكن إيتوس سمع نشيجه، فتابع:

قد افتديتُ.. والدي، فلا يقتُلنَّه.. أحد.. هل تسمع يا.. أركون؟

شعر أركون بوجع ألف خنجر يطعن فؤاده! فأمسك بيدِ إيتوس وقبضها بشدة وهو يحني رأسه عليها، ثم أجابه وهو يبكي:

أجل.. أجل يا مولاي.

صمتَ إيتوس قليلًا وهو يشدُّ قبضته التي بين يدي أركون وعلى ملامحه الألم الشديد، والعرقُ يتصببُ منه، ثم تأوه بقوَّة وزفر.. ولم يكد يهدأ بعض الشيء حتى تبسَّم وهو يقول بصوتٍ مُتعب وعيناه تنظران إلى الأعلى:

أركون، أخبر استيلا.. أن تُسمي ابننا.. باسم جديَ العظيم.. هوميروس،

ثم اتّسعت بسمته؛ فامتزج ذبول وجهه بجمالها، وأردَف بصوت خافتٍ محزونٍ أشبه بالأنفاس الأخيرة لنسرٍ جريح:

وأخبرها أنَّني.. ما أحببتُ في الدنيا شيئًا.. مثلما أحببتُها...

بقيت ابتسامته عالقة على شفتيه في حين ارتخت يده التي بين يدي أركون، وسقطت الأخرى تاركةً وجْنةَ والده!

فاتّسعت عينا أركون وهو ينظر إلى وجه إيتوس، وانعقد لسانه فلم يستطع نطق شيء، وازدادت دموعه انهمارًا..

أما كاليجولا فشعر بالهوَان يسري في جسده كله، فأراح يده بصعوبة بالغة فوق رأس إيتوس، مرَّرها بين خصلات شعره المتناثرة على وجهه، ثم أنزلها بخِفَّة نحو وجنتيه ليحيط بهما، وراح يناديه بصوت خافت:

إيتوس! إيتوس بُنَي!

فلم يرف له هدب، ولم تجب شفتاه، وكان وجهه باردًا كالصقيع، أدرك كاليجولا حينها أن الذي بين يديه جسدٌ لا روح فيه.. كأنَّ روحه التي خرجت لتُحَلِّق عاليًا، رَبَأت بنفسها عن هذا العالم المليء بالظلم والآلام.. فصاح كاليجولا صيحة دوَّت لها أركان القاعةِ والتفتت لعُلُوِّها الرقاب:

إيتووووووس.. إيتووووووس ولدي.. قتلتُ ولدي! قتلتُ ولدي بيديَّ!!

ثم أخذ يهزُّه بقوة كأنَّه يرفض تصديق ما يرى وهو يصرخ بندائه:

كلا يا إيتوس، ردَّ عليَّ أرجوك، رُدَّ عليَّ، رُدَّ عليَّ يا إيتوسَ قلبي.. آآآآآه يا لشقائي وبؤسي.. قتلتُ حبيبي بيديَّ! قتلته بيديَّ!

وعلا بكاؤه وانتحابه، فصعد هادريان إلى المنصة بقدمين ترتعشان، وعينين ذاهلتين، فرأى أركون جاثيًا أمام جسد إيتوس يبكيه بشدة، وكاليجولا يحتضنه ويتأوَّه لعدم استجابته له، فعلمَ أن إيتوس قد مات، ولم يكد يصل إلى هذا اليقِين حتى خارت قواه، وسقط على ركبتيه.. أحاط رأسه بيديه، وراح يطالع المنظر الدامي أمامه ملجوم اللسان جامد الأطراف، والدمع يسفح غزيرًا من عينيه..

وبينما كاليجولا في حالته تلك؛ إذ شعر بشخص ما يجلس بقربه.. رفع عينيه الباكيتين نحوه، فدُهِشتا فزعًا، وتمتم:

أ أ.. ألك.. ألكسا... ندروس؟!!

أومأ الأخير له دون أن ينظر إلى وجه إيتوس، بل بقيَ ينظر في عيني أخيه الأصغر بضع لحظات، وأخيرًا فتح فمه بنبرة ملؤها العتب والأنين:

وصلَ بك التجبر إلى أن سعيتَ لمُجاراة سُنن الكون، وإبطال ثوابِته! فارتكبتَ الشنائع في حق شعبك دون مبالاة لأن تحصد ما صنعت آخر الأمر.. وها قد أثبتت لك السُنن أن لا مُغير لها؛ لتذوق الآن ما أفنيتَ حياتك كلها وأنت تُمارسه ضدَّ شعبك الأعزل، يا كاليجولا!

ثم حمل إيتوس بين ذراعيه ورفعه، فأخذ كاليجولا يصيح بعجزٍ تام:

ولدي يا ألكساندروس، هاتِ ولدي أرجوك.

ألكساندروس:

منذُ تخليتَ عنه منحازًا للمجرمين، نذرَ إيتوس روحه الطيبة للشعب، فصارَ مُلْكَهم يا كاليجولا..

ثم استدار عنه، وأمر جنوده باقتياد الإمبراطور إلى غرفته الملكية في القصر..

بقي ألكساندروس واقفًا مكانه عدة لحظات تجول عيناه في القاعة، فرأى صديقيْ إيتوس يبكيانه بشدة، وأبصَرَ دموع جنوده وانهيارهم بوضوح، ثم رأى جُثة شيشرون تحت المنصة مباشرة، ورأى بعيدًا عنها رأس بوروس، وبينهما قتلى من أتباعهما الذين أعانوا الظلمة في البطش بالشعب الأعزل المسكين، وآخرين هناك.. قد خارت قواهم؛ فاستسلموا للقيود حين أدركوا هزيمتهم النكراء، وإمبراطورهم يُقاد إلى خارج القاعة وهو يصرخ كالمجنون، لما رأى ذلك كله، ردد ألكساندروس بصوتٍ مُتقطع مرتجف، تكاد الحسرة تفتك بقلبه:

أحرزتَ لنا النَّصر.. ثم قتلوك! أحرزتَ لنا النَّصر.. ثم قتلوك!

وأخيرًا.. ألقى نظَرَهُ نحو الوجه الساكن بين ذراعيه، لم يدرِ لِمَ رأى ابتسامته حينها ألطف من أيِّ يوم مضى؟! ولِمَ رأى في وجهه جمالًا وبهاءً لم يرَ مثلهما من قبل؟!

فاهتزَّ قلبه، وتحشْرَج صوته، وفاضت عيناه وهو يُخاطبه:

حلُمتَ بإنقاذ الشعب، وفداء والدك!! أما علمتَ أن لكلِّ شيء ثمنًا؟! وكلَّما عظُمَ المطلوب، كان ثمنهُ باهظًا! واحسرتي عليك يا إيتوس! ليت روحي كانت هي الثمن! ليت روحي كانت هي الثمن!

ثم رفع رأس إيتوس إليه، وأمال عليه وجهه حتى لامس جبهته، وبكى، بكى ألكساندروس طويلًا وبصوتٍ مسموعٍ مَهِيب، بكى كأن لم يبكِ من قبل..

تسلل إلى أذني هادريان حينها صوتٌ مُرتجف حزين:

منذ عامين، ماتَ أبي هنا بين يدي مولاي إيتوس.. واليوم في البقعة نفسها، ماتَ مولاي إيتوس بين يدي والده!

التفت هادريان ناحية الصوت؛ فإذ بأوتو واقفًا بجانبه، ينظرُ إلى دماء إيتوس على الأرض، وقد ابتلَّت وجنتاه ببكائه الصامت، فوقف هادريان، وجذب أوتو نحو صدره برفق، وانتحب معه نحيبًا موجعًا..

ولم يطلع الفجر حتى أُعلن عن اعتلاء ألكساندروس عرش ثيفا، فأصدر عدة أوامر، تقضي بإعادة الشباب من تحت المناجم إلى أهاليهم، وإلغاء قانون أخذ الفتيات، وإعادة العاملات منهنَّ إلى دورهن وأحضان أهاليهن، وكذلك تم إلغاء قانون وراثة الدولة لأموال التجَّار، وأُنزلت أقفاص المجرمين، وأُخرج من فيها من الأحياء لتلقِّي العناية، ودُفن رفات موتاها، وأُخرج السجناء الأبرياء من كل سجون

الدولة، ولا سيما من سجن قبو التعذيب، بل وأُمر أن يُهدم ذلك القبو، وأن تُطمس ملامحه، فلا يبقى من المبنى سوى الملحق الذي بناه ألكساندروس الأول بمكتبته الواسعة.. فشاع الفرح في أرجاء ثيفا، وغمرت السعادة جميع الأنفس، والتقى الأهالي بفلذات أكبادهم بعد غياب سنوات، وعادت الأملاك إلى أصحابها، فصارت ثيفا كقطعة بهيجة من الجنة غِبطةً وسرورًا، وكأن النصر دائمًا لا يأتي إلا مع الفجر!

ولما أوشكت الشمس على المغيب، وأُحكم الأمن في البلد، أُذيع خبر مقتل الملثمِ الأحمر؛ إيتوس ولي عهد البلاد.. فخرج الآلاف رجالًا ونساءً؛ لتشييع جثمانه إلى مثواه الأخير، ولم تعد ترى إلا وجوهًا أسيفةً، ولا تسمع إلا البكاء والنحيب، وكأن الناس لم تكن في الصباح جذلة مسرورة!

ودُفن رفاته بجانب جدَّيه؛ هوميروس، وألكساندروس الأول..

أما كاليجولا، فأُبقيَ في غرفته في القصر، مرَّت عليه أيام لا تكتحل عيناه فيها بنوم، ولا يهدأ نحيبه وصياحه، كان يندبُ حظَّه، ويضرب رأسه في أيِّ صلب في غرفته كلما غفل الحراس عنه، فأمر ألكساندروس بتشديد الحراسة عليه، ومنعه من ذلك، وكان يزوره كل يوم، بيدَ أن كاليجولا بدأ يفقد عقله، ويسلك مسلكه نحو الجنون، فصار لا يعرف أحدًا، ولا يذكر من عالمه أيَّ شيء إلا أخاه ألكساندروس، فصار كلما دخل عليه الأخير أسرع كاليجولا نحوه كطفل ضائع رأى أمه، فيمسك ثيابه بهلع:

أخي ألكساندروس، لا تتركني هنا وحيدًا، الأشباح في كل مكان، وأنا أخاف الأشباح، أخافهم جدًّا..

فيضع ألكساندروس يده فوق رأسه، وبعينين مشفقتين:

لا بأس عليك أخي الصغير، ستكون بخير هنا، فلا يوجد في هذا المكان إلا حراسًا يحبونك ويحمونك!

فيطمئن كاليجولا، ويتبسم بنصف عقل، وما إن يخرج ألكساندروس من عنده حتى يعود إلى صراخه وفزعه، ولم ينقضِ الشهر حتى فقد عقله كليًّا، فنسي ألكساندروس، بل ونسي من هو.. إلا أنَّه ما يزال يذكرُ فتىً يُقالُ لهُ إيتوس! يصرخ في رثائه، ويبكيه كل ليلة..

وبعد عدة أيام، دخل أحد حراسه ليُطعمه، فوجده بين قيوده مُصفرَّ الوجه، هَلِع الملامح، كان جثةً هامدةً لا حياة فيها، ثم دُفن بجانب إيتوس.

* * *

في يوم غائم، عليلِ الجو، رقراقِ النسيم، ذهبت استيلا إلى مقبرة الملوك، وحين وصلت إلى قبر إيتوس، وجدت شابًّا عشرينيًّا جاثيًا على ركبتيه، يبكيه بشدة حتى بللت دموعه الثرى تحته، ولم يكد يسمع خطواتها حتى نهض، ومسح دموعه بسرعة، ثم انصرف، طالعته لبرهة، شعرت أنَّها قد رأته، لكنها لم تدرِ أين!

ثم وقفت بسكينة وخشوع أمام القبر، رافعة يديها تلهج بصوتٍ خفِيٍّ وهي مُغمضة العينين، وبجانبها صبيٌّ في العاشرة من عمره، يُحاكيها فيما تفعل، ولما انتهت، نظرت إليه، فوجدته ما يزال على حاله، فتبسمت، فلما انقضى تطلَّع إليها، وبادلها التبسم، ثم قال:

هل كان أبي يُحبني حقًّا؟ أخبرني معلمي هادريان أنَّه كان يحبني أكثر من أيِّ أب آخر في الدنيا.

استيلا:

أجل يا بني، كان يحبك جدًّا، ويتشوق لرؤيتك كل يوم.. كل يوم...

أطرق الفتى رأسه بحزن وقال:

ليته عاش حتى يراني، ليته لم يمت.

انكسرت عينا استيلا بأسف شديد، ثم اقتربت منه، وجلست أمامه وهي تضع كفيها على كتفيه، ثم تبسَّمت بعطف وهي تخاطبه:

هوميروس عزيزي، إنَّ والدك يعيش معنا، يقولون إنَّ الأموات الطيبين تبقى أرواحهم تتتبَّعُ أخبار أحبابهم؛ فيفرحون بالجميل منها، وأنا أؤمن أن والدك يعرف أخبارك، وأنه سعيدٌ جدًّا بحالِك وفخورٌ بك بين أهل السماء.

فأشرق وجه الفتى، وبرقت عيناه بالسعادة:

أحقًّا يا أمي؟!

أومأت استيلا بنعم وهي تتطلع في عينيه؛ كانتا بُنِّيتين، أريَشِيَّتين، نجلاوين؛ كأنهما عينا أبيه إيتوس لم تخالفهما في شيء، ثم تأملت ملامحه التي كان لها بعض النصيب من ملامح والده أيضًا، أمَّا ابتسامته اللطيفة فكانت استيلا لا تراها إلا ابتسامة إيتوس التي أحبتها، ربما كانت تشبهها بالفعل؛ وربما أرادت تَخيُّلَها كذلك؛ لتبقى ذِكراه كائنة أمامها كلما تبسَّم ابنها في وجهها، فجذبته نحو صدرها وهي تقول بنبرة متأثرة:

أحبك يا بُني، أحبك كحبي لوالدك..

وبينما هما كذلك؛ إذ تهادى لسمعهما صوت هادريان:

أوه أنتما هنا!

رفع الفتى رأسه مباشرةً، وأسرع نحو هادريان مبتهجًا وهو يهتف:

معلمى العزيز..

فالتقطه هادريان، ورفعه عاليًا وهو يضحك..

هوميروس بغرور وهادريان يُنزله إلى الأرض:

هل تعلم يا معلمي، لقد زادت قوتي مع التدريبات الأخيرة، وسأهزمك في مبارزتنا القادمة..

هادريان ضاحكًا وهو يُربِّتُ بيده على رأس هوميروس:

حسنًا لا بأس، سنرى ذلك أيها الشجاع..

ثم مضى نحو استيلا وهو يقول:

لا أرى معكِ اليوم أخاك كريستيان!

استيلا مسرورة:

أجل، فلقد رزق اليوم بمولود جميل..

ضحك هادريان وهو يقول:

إذن صار كريستيان أبًا، ما أسرع مرور الأيام!

ثم أخبرها أن أوتو الذي هاجر من العاصمة بعد دفن إيتوس، وصار رسامًا مشهورًا في البلاد؛ قد عاد إليها اليوم..

ثم راح يتطلع عن يمينه ويساره كمن يبحث عن أحدهم وهو يقول:

لقد أخبروني أنَّه هنا، ما بالي لا أراه الآن!

استيلا بعينين مُستدركتين:

ذلك الشاب كان أوتو؟ يا إلهي لم أعرفه!

هادريان:

إذن جاء إلى هنا بالفعل..

استيلا بصوت هادئ حزين:

أجل، كان جاثيًا عند قبر إيتوس يبكيه بشدة، حتى أثار استغرابي وعطفي معًا..

تنهد هادريان بعمق وصَمَت، ثم عاد ليقول:

على كلٍّ، سنتجه الآن إلى معرض الفنون الكبير، يُقال إن أوتو وضع فيها الرسمة التي استغرقت منه عشر سنوات..

مضوا جميعًا نحو المعرض، فاستقبلهم أركون، وآلي، وابنتهما كايا، ما إن رآها هوميروس حتى ركض نحوها فرحًا، كانت كايا تصغره بعامين، وكان هوميروس يأنسُ بها، فاستأذن والدته للعب معها، فأذنت له تحت مرافقة بعض الحرس الذي جاؤوا معهم إلى المعرض..

ودخل الأربعة إلى القاعة الكبيرة التي بها أشهر اللوحات والمنحوتات، فالتقوا فيها بأوتو، قابلهم بالتحية حين رآهم، ثم انحنى لاستيلا:

آسفٌ يا مولاتي أني انصرفت دون أن أحييكِ حين رأيتني في المقبرة.

استيلا:

لا داعي للاعتذار يا أوتو، فأنا أدركُ سبب ذلك، وأنا سعيدة جدًّا بعودتك إلينا..

ثم انبسط وجهها عن ابتسامة عذبة: بالمناسبة، لقد كبرتَ كثيرًا حتى أني لم أعرفك.

أركون:

صحيح، ولم يبقَ له إلا أن يتزوج،

ثم أحاط رقبة أوتو بذراعه، وهمس له:

مع آلي أختٌ جميلة، ولكنها تفضلها بطول اللسان، وشدة الخوف! وأرى أنَّها تناسبك؛ لتنسيك هموم السنين الخالية.

أوتو وهو يبعد ذراع أركون:

أوه كلا يا قائد الجيش، أعفني من ذلك أرجوك..

ثم ضحكا

وسأله هادريان:

أين لوحتك يا أوتو؟

فأشار إليها.. ومضى الأربعة نحوها..

كانت لوحة كبيرة، منحت بكبرها ملامح واضحة لكل ما فيها، ما إن رأوها حتى ذهلت ملامحهم، ورانت عليها بوادر الحزن والحنين معًا، كانت الصورة تحملُ آخر مشهدٍ على منصة القبو قبل أن يُهدم، إيتوس مُضطجعًا في حِجر والده هادئًا باسمًا، كأنَّه نائمٌ بين يديه، ووالده يطوقه بذراعيه، ويضمُّه إلى صدره بملامحه الفجعة الباكية، وفمه المفتوح بصراخه..

فجفلَ هادريان وأركون أمام اللوحة كأنَّهما يحضران المشهد نفسه قبل عشر سنوات، بقيا يتأملان اللوحة حتى ترقرقت عيناهما بالدموع.. أما آلي فانتحت جانبًا، وأسلمت نفسها للبكاء، لكن استيلا لم تُظهر شيئًا من ذلك، بل بدت قوية متماسكة، أو ربما مذهولة حين تمثَّل المشهد الذي حُكي لها كثيرًا أمامها الآن؛ لتراه بعينيها لا بسمعها هذه المرة!

فمشت نحو الصورة ببُطء، ولما صارت حذوها رفعت يدها إلى وجه إيتوس الباسم كأنها تتلمسه، وما إن فعلت حتى ارتجفت شفتاها، وارتفعت من صدرها شهقات البكاء، وهمى الدمع على وجنتيها، بقيت على ذلك زمنًا تتأمله بوجدٍ واشتياق.. ثم انتبهت لشيء لم تنتبه له من قبل!

فقد كانت الأرض تحت كاليجولا بركة من الدماء، بينما هي تحت إيتوس خضراء مُزدهرة! وكذا السقف والجدران في كل اللوحة كما كانت على طبيعتها، غير أنَّها خلف إيتوس سماءٌ مفتوحة الأبواب، وكأنَّها تتلقَّفُه!

فتوازى ذلك الجمال مع وجهه النَّضِر الساكن وكأنه رأى ما يسرُّه قبل أن يغفو!

تمتمت استيلا لهادريان الذي كان قريبًا منها:

انظر يا هادريان، ليس المشهد كما حكيتموه لي من قبل، بل يبدو رائعًا جذلًا!

هادريان بصوت مُتهدج:

أجل.. فقد رسم أوتو ما يؤمن به لا ما شاهده، ما أصدق اللوحة يا استيلا!

ثم تبسَّم سامحًا لدموعه أن تأخذ مجراها نحو شفتيه وهو يؤكِّد:

فالنسر لا يمكث في الأرض، النسر لا يَتسع لشموخه إلا السماء!

❊ ❊ ❊

يُقال إن الإمبراطورية نعِمت بعد ذلك بالرخاء والعدل خمسة قرون، وإنَّ أكثر اسم شاع للذكور فيها.. هو اسم (إيتوس).

< تمت بحمد الله >